محت قطت

مفاهیک بینبخی ارتصا

دارالشروقــــ

مَفَاهْيِئُمُ تِينبَعْيُ انضَحَحَ

بميسع جستوق الطت بع محسنهوظة

ه دار الشر**وة**__

سَبِيرٌوَثُ: مَا دَالْبَاسَ - سَنَادِعُ سَبِّدةَ صَبِيْدَكَائِنَا - بِسَايَةَ صَعَبَا صَ بَ : ١٦٤٨ - سِبَرَقِينًا ، دَاسِسُرُوقُ - شَلَكُسَ ١٩٥٥٤٤ ١٩٩٩٥٤ - هِسَانِتُ، ٢١٥٨٥٩ - ١٩٧٢١٢ - ١٩٧٧٨٥ ٢٠٧٩٨١ - ١٩٧٥٥٥

العتّاهِرَة ؛ ١٦ ستّارئ جَوَاد حَسَني ت ؛ ٢٩٣٤٧٨ / ٢٩٢٩٣٣ و العقديد فتأكس ٢٩٣٤٥١٤ - ستاكك س ٢٩٣٤٥١٥ منافقة المستري - مدينة نسر. ت ؛ ١٣٢٩٨٥ ١١٧٥١٨ مناكس ١١٧٥٦٧

بير للترالح التح التح التحفي

وَالْمَغْرِبِ وَلَنَكِنَّ الْمَبِرَ مَنْ عَامَنَ بِاللّهِ وَالْبَوْمِ الْاَنْجِهِ وَالْمَغْرِبِ وَلَنَكِنَّ الْمَبِرِ مَنْ عَامَنَ بِاللّهِ وَالْبَوْمِ الْاَنْجِهِ وَالْمَلْمَةِ وَالْمَلْمَةِ وَالْمَلْمَةِ وَالْمَلْمَةِ وَالْمَلْمَةِ وَالْمَلْمَةِ وَالْمَلْمَةِ وَالْمَلْمِينَ وَاللّهَ الْمَالُ عَلَى حُبِهِ عَلَيْهِ وَالْمَلْمَةِ وَالْمَلْمِينَ وَالْمَالُ عَلَى حُبِهِ عَلَيْهِ وَالْمَلْمِينَ وَالْمَلْمَةِ وَاللّهَ اللّهِ اللّهِ وَالسّابِلِينَ وَالْمَلْمِينَ وَالْمَلْمِينَ وَالْمَلْمِيلِ وَالسّابِلِينَ وَالْمَلُونَ وَالْمَلْمِينَ وَالْمَلْمِينَ وَالْمَلْمِيلِ وَالسّابِلِينَ وَفِي الْمِلْمُ وَالْمَلْمِينَ وَالْمَلْمِينَ وَالْمَلْمِينَ وَالْمَلْمِينَ وَالسّابِ وَالسّابِهِ وَالسّابِينَ وَالسّابِينِ وَالسّابِينَ وَالسّابِينَ وَالسّابِينِ وَالسّابِينَ وَالسّابِينَ وَالسّابِينَالِ وَالسّابِينَ وَالسّابِينَ وَالسّابِينَالِ وَالسّابِينَ وَالسّابِينِ وَالسّابِينَ وَالسّابِينَ وَالسّابِينِ وَالسّابِينَ وَالسّابِينَالِ وَالسّابِينَ وَالسّابِينِ وَالسّابِينَ وَالسّابِينَ وَالسّابِينَ وَالسّابِينَ وَالسّابِينَ وَالسّابِينَ وَالسّا

مقدمة

يعيش العالم الإسلامي اليوم - كما أشرت في غير هذا الكتاب (١) مرحلة من أسوأ مراحله التاريخية ، إن لم تكن أسوأ مامر به في تاريخه كله . فلم تكن الأزمات الماضية تصيب المسلمين كلهم في وقت واحد في كل بقاع الأرض كما هو الحال في هذه المرة . ولم يكن الذل والهوان والضياع بشمل الأمة الإسلامية كلها كما يشملها في هذه المرة .

فإذا كانت نكبة الأندلس _ مثلا _ تعتبر من أسوأ مامر بالمسلمين في القرون الماضية ، فنكبة فلسطين أسوأ . فحينا كان ظل المسلمين يتقلص عن الأندلس ، كانت الدولة العثانية الفتية تقتحم القسطنطينية وتجعل منها عاصمة الخلافة الإسلامية ، ثم تتوغل بجيوشها في أوربا حتى تصل إلى فينا وبطرسبورج . أما نكبة فلسطين فإنها تحدث وظل المسلمين منحسر في كل الأرض ، والمذابح لا تكف عنهم في كل مكان : في الفلبين . في الحبشة . في أريتريا . في تشاد . في نيجريا . في الهند . في أفغانستان . في

⁽۱) فى كتاب " واقعنا المعاصر " . وقد كان الأصل أن يصدركتاب " المفاهيم " قبل " واقعنا المعاصر " لأنه مكتوب قبله بعدة سنوات ولكن شاء الله أن يتأخركتاب المفاهيم كل هذه السنوات . وتصدر قبله كتب أخرى كتبت بعده بسنوات ! وكل شيء عنده بمقدار .

العالم الشيوعى كله حيث يخيرون بين الكفر أو الموت. والمؤامرات تحاك للإسلام والمسلمين على نطاق القوى الدولية كلها مجتمعة. والعالم الإسلامي يفتت ، ثم يعود فيفتت ، ثم يعود فيفتت . وتقوم المحاولة إثر المحاولة لإقامة دول لغير المسلمين في الأرض الإسلامية ، تقتطع في كل مرة جزءا من أرض الإسلام ، وتستعبد من يبقى فيها من المسلمين أو تقتلهم .. ثم الدعاة المسلمون يقتلون ويعذبون أبشع تعذيب في التاريخ ، على يدحكومات تناوئ الدعوة الإسلامية ، وترفض أن تحكم المسلمين بشريعة الله .

هذا هو الوضع السيئ الذي يعيشه العالم الإسلامي اليوم بغير شبيه له في التاريخ .

3;F 3;F 3;F

ولا شيء في هذا الوضع يحدث اعتباطا ، ولا يمكن أن يحدث شيء واحد في حياة البشر اعتباطا ! إنما يجرى كل شيء في حياة البشر حسب سنة الله التي لا تتخلف ولا تحابى أحدا من الحلق :

« فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلا » (٢) .

ومن سنة الله أنه لا يغير نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، أى ينحرفوا عن الطريق :

⁽٢) سورة فاطر [٤٣] .

« ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وأن الله سميع عليم » (٣) .

ومن سنته أنه لا يحابي أحدا لنكونه من « ذرية » قوم صالحين :

« وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ، قال : إنى جاعلك للناس إماما . قال : ومن ذريتي ؟ ! قال لا ينال عهدى الظالمين » (٤) .

إنما يمكنهم حين يكونون هم بأنفسهم مؤمنين صالحين :

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدونني لا يشركون بى شبئا » (٥) .

أما الذين يرثون الكتاب وراثة ، أى لا يعتبرونه خاصا بهم ، ولا ملزما لهم ، إنما هو شيء موروث عن الآباء والأجداد فأولئك هم الخلف السيئ الذين أشير إليهم في كتاب الله في معرض الحديث عن بني إسرائيل لتحذير المسلمين من عاقبتهم :

« فخلف من بعدهم خَلْفٌ ورثوا الكتاب ، يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا ! وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ! ألم يؤخذ

⁽٣) سورة الأنفال [٣٥] . (٥) سورة النور [٥٥] .

⁽٤) سورة البقرة [١٧٤].

To: www.al-mostafa.com

عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا مافيه ؟ والدار الآخرة خير للذين يتقون ، أفلا تعقلون ؟ ! » (?) .

وهم هم الذين يقول الله فيهم:

« فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فسوف يلقون غيا » (٧) .

هذه كلها سنن ربانية تجرى بها الأمور في الحياة البشرية ، لا تحابى أحدا ، ولا تتبدل على هوى أحد من البشر.

ولقد أنعم الله على الأمة الإسلامية بالتمكين والاستخلاف والتأمين ، وفتح عليها بركات من السماء والأرض كما وعد المتقين « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » (^) .

ثم تغير الحال من الاستخلاف والتمكين والتأمين إلى الذل والضعف والهوان ، والتشريد والتنكيل والتقتيل حين صاروا إلى الصورة التى أنذرهم بها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحذرهم منها :

« يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها . قالوا : أمن قلة نحن يومئذ يارسول الله ؟ قال : أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل .. » (٩) .

⁽٦) سورة الأعراف [١٦٩]. (٨) سورة الأعراف [٩٦].

⁽٧) سورة مريم [٥٩] .(٩) أخرجه أحمد وأبو داود .

فها الذي تغير؟ .. وكيف حدث التغيير؟

* * *

لقد حدثت انحرافات كثيرة فى حياة المسلمين فى مسيرتهم الطويلة خلال التاريخ.

وكل انحراف وقع فى حياتهم عن المنهج الربانى كانت له ولاشك عاقبته البطيئة أو السريعة حسب نوع الانحراف ، ودرجة تفشيه ، وموقف الأمة منه بحكامها وعلائها وعامتها .. حتى إذا وصل الانحراف إلى حده الأقصى كانت عاقبته مانراه اليوم من ضعف ومذلة وخوف ، بدلا من الاستخلاف والتمكين والتأمين ..

ومابنا في هذا الكتاب أن نتحدث عن خط الانحراف الطويل كله .. (١٠)

إنما نتحدث هنا عن نوع معين من الانحراف ، قد يكون هو الأشد خطرا في حياة المسلمين في الوقت الحاضر ، أو قد يكون هو الخلاصة التي آل إليها الانحراف التاريخي كله ..

إن كثيرا من الدعاة المخلصين أنفسهم ليظنون أن ما أصاب المسلمين قد أصابهم بسبب انحراف سلوكهم عن الصورة الإسلامية الصحيحة. وانحراف المسلمين في سلوكهم أمر أوضح من أن يشار إليه .. فإن

⁽١٠) تحدثت عنه وعن آثاره في كتاب ﴿ وَاقْعَنَا الْمُعَاصِرِ ﴾ .

ما تفشى فى حياتهم من الكذب والغش والنفاق ، والضعف والجبن والاستخذاء ، والبدع والمعاصى ، وما صار إليه الشباب من تفلت وتحلل ، وما صار الناس إليه من تبلد على الفجور والمنكر . وعشرات غيرها من الصفات والأعمال ، كلها ليست من الإسلام فى شىء ، بينا هى الواقع الذى يعيشه « المسلمون » !

ومع ذلك فليس الانحراف السلوكي هو الانحراف الوحيد في حياة أولئك « المسلمين » ، ولا هو الانحراف الأخطر في حياتهم . ولوكان الأمر مقصورا على الانحراف السلوكي وحده لكان الأمر – على سوئه – أهون بكثير!

ولكن الأمر تجاوز ذلك إلى الانحراف في « المفاهيم » .. كل مفاهيم الإسلام الرئيسية ابتداء من لا إله إلا الله !

وحين تجد إنسانا منحرفا في سلوكه ، ولكن تصوره لحقيقة الدين صحيح ، فستبذل جهداً ما لرده عن انحرافه السلوكي ، ولكنك لا تحتاج أن تبذل جهدا في تصحيح مفاهيمه ، لأنها صحيحة عنده وإن كان سلوكه منحرفا عنها . أما حين يقع الانحراف في المفاهيم ذاتها ، فكم تحتاج من الجهد لتصحيح المفاهيم أولا ، ثم تصحيح السلوك بعد ذلك ؟ تلك هي حقيقة الوضع في العالم الإسلامي اليوم .

تجاوز الانحراف منطقة السلوك ، ووصل إلى المفاهيم الرئيسية لهذا الدين .

ومن أجل ذلك يعانى الإسلام اليوم تلك الغربة التى تحدث عنها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« بدأ الإسلام غريبا ، وسيعود غريباكما بدأ » (١١) .

ولقد عاد غريبا بالفعل .. غريبا بين أهله أنفسهم ، يتصورونه على غير حقيقته فضلا عن سلوكهم المنحرف عنه ويستغربونه حين يعرض لهم في صورته الحقيقية كها جاءت في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذت تطبيقها الكامل في حياة السلف الصالح درضوان الله عليهم -!

وعلينا أن نواجه الأمر على حقيقته ..

فإن أى جهد نبذله فى تصحيح السلوك وحده ـ مع بقاء المفاهيم منحرفة ـ لن يؤتى ثماره كاملة ، ولن يخرج الأمة من وهدتها التى انتكست إليها فى عصرها الحاضر. إنما نحتاج أن نبذل جهدا مضاعفا لإزالة الغربة الثانية كالجهد الذى بذلته الجاعة الأولى من المسلمين لإزالة الغربة الأولى للإسلام.

وهذا الجهد المضاعف هو المهمة الملقاة اليوم على عاتق الصحوة الإسلامية .

وأول مانبدأ به من هذا الجهد هو تصحيح منهج التلقي ..

⁽١١) أخرجه مسلم.

من أين نتلقى فهمنا لهذا الدين؟ من كتاب الله وسنة رسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وسيرة السلف الصالح ــ رضوان الله عليهم ــ ؟ أم مما دخل على هذا الفهم الواضح المستقيم من أفكار دخيلة ومنحرفة ، بتأثير عوامل متعددة فى أثناء المسيرة الطويلة للأمة الإسلامية ، واحتكاكها الدائم بأخلاط من المذاهب وأخلاط من الأفكار؟!

فإذا صححنا منهج التلتى ، وصححنا بناء على ذلك ما انحرف فى حس المسلمين المتأخرين من مفاهيم الإسلام الرئيسية بقيت علينا مهمة أخرى لا تقل خطرا هى مهمة التربية على المفاهيم الصحيحة لهذا الدين .

والتربية هي الجهد الحقيق الذي ترجى معه الثمرة . ولكنه لن يؤتى ثمرته حتى يقوم على أساسه الصحيح .

وهذا الكتاب محاولة متواضعة لتصحيح بعض المفاهيم الإسلامية ، بردها إلى صورتها الأولى ، المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله _ صلى الله عليه وسلم _ وسيرة السلف الصالح _ رضوان الله عليهم _ وإزالة ما علق بها من انجراف في أثناء المسيرة التاريخية للأمة الإسلامية .

وقد تناولت فيه خمسة مفاهيم رئيسية من مفاهيم الإسلام: مفهوم لا إله إلا الله. مفهوم العبادة. مفهوم القضاء والقدر. مفهوم الدنيا والآخرة. مفهوم الحضارة وعارة الأرض.

وسيجد القارئ أن القسم الأكبر من الكتاب قد استغرقه الحديث عن مفهوم لا إله إلا الله ، ثم مفهوم العبادة ، ولا غرابة في ذلك . فلا

إله إلا الله هي الركن الأول ـ والأكبر ـ من أركان الإسلام ، كما أن الانحراف الأكبر ـ والأخطر ـ في حياة المسلمين هو الذي وقع في مفهوم لا إله إلا الله ! وكذلك مفهوم العبادة ، فقد كان له في معناه الواسع الشامل صداه في عظمة هذه الأمة وعظمة منجزاتها ، كماكان له في معناه الضيق الهزيل الذي صار إليه صداه في الواقع المنحسر الذي يعانيه المسلمون اليوم

وحين تصحح هذه المفاهيم ، وتعود لها في نفوس المسلمين صورتها الحقيقية الحية الفاعلة ، فسيصبح الطريق ميسرا ـ بعون الله ـ لتصحيح كل ما أصاب المسلمين من انحراف ، وكل ما ترتب عليه في حياتهم من آثار . .

فإن وفقني الله إلى شيء في هذه المحاولة المتواضعة فإنى شاكر لأنعمه . وما توفيق إلا بالله ،

محرقطب

مَفْهُومُ لاإله إلا الله

لا إله إلا الله هي الركن الأول ـ والأكبر ـ في الإسلام .. قبل الصلاة والصيام والزكاة والحج .. وقبل كل شيء في هذا الدين .

ومن يتدبر القرآن يلحظ ولا شك الأهمية العظمى التي يوليها كتاب الله لقضية التوحيد . . قضية لا إله إلا الله ، بحيث تشغل الحيز الأكبر من القرآن كله ، وإن كان التركيز عليها في السور المكية أشد .

وقد يتبادر إلى الأذهان لأول وهلة _ كما أشرت في كتاب « دراسات قرآنية » _ أن هذا الاهتمام البالغ بقضية لا إله إلا الله في كتاب الله كان سببه أن المخاطبين بهذا القرآن أول مرة كانوا قوما مشركين ، فكان من المناسب أن يركز الحديث لهم في قضية التوحيد لتصحيح اعتقاداتهم الباطلة وتصوراتهم الفاسدة في قضية الألوهية .

ولكن استمرار الحديث عن هذه القضية في السور المدنية ، بعد استقرار العقيدة ، وقيام المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية ، والتزام ذلك المجتمع بتكاليف الإسلام ومقتضياته ، وعلى رأسها الجهاد في سبيل الله .. كل ذلك له دلالته الواضحة على الأهمية الذاتية لهذه القضية ،

حتى بالنسبة للمؤمنين الذين تخاطبهم الآيات المدنية مبدوءة بقوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا .. » وأن قضية التوحيد _ قضية لا إله إلا الله ليست حديثا يذكر لفترة من الوقت ثم ينتقل منه إلى غيره ، إنما هى حديث يذكر ثم ينتقل معه إلى غيره .. حديث لا ينقطع فى أي وقت من الأوقات .

وربماكانت هذه الآية في سورة النساء حاسمة الدلالة فيما ذهبنا إليه:

« يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ، والكتاب الذى نزل على رسوله ، والكتاب الذى أنزل من قبل ، ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدًا » (١) .

فالذين يُدْعَون إلى الإيمان هم المؤمنون بالفعل: «يا أيها الذين آمنوا»! والذي يُدْعَوْن إلى الإيمان به هو الذي آمنوا به بالفعل! فهم يدعون إلى الإيمان بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل، والله يقول عنهم في آخر سورة البقرة: «آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لا نفرق بين أحد من رسله .. »!

فقضية لا إله إلا الله إذن قضية دائمة فى حياة البشرية. لا يدعى إليها الكفار وحدهم لكى يؤمنوا ، ولاالمشركون وحدهم ليصححوا اعتقادهم ، ولكن يدعى إليها المؤمنون بها كذلك ويذكّرون ها ، لكى

⁽١) سورة النساء [١٣٦].

تظل حية فى قلوبهم ، راسخة فى ضمائرهم ، عاملة فى واقع حياتهم ، لا يفترون عنها ، ولا يغفلون عن مقتضياتها : « يا أيها الذين آمنوا ، آمنوا .. »

ولا عجب أن تكون قضية لا إله إلا الله هي القضية!

وليس السبب في اهتمام القرآن بها أنه كتاب دين! إنما السبب في ذلك أنه الكتاب الذي يحدد منهج الحياة للإنسان (٢)!

فحياة الإنسان لاتستقيم حتى يعلم «الحق» الذى خلقت به السهاوات والأرض، وحتى تتوافق حياته مع ذلك الحق، فلاتنحرف عنه، ولا تشذ عن مقتضياته.

والحق أنه لا إله إلا الله .. هو الخالق وحده ، وهو الرازق وحده ، وهو المسيطر وحده ، وهو المدبر وحده ، وهو القيوم وحده .. ولا أحد غيره يخلق أو يرزق أو يدبر الأمر ..

ومقتضى ذلك كله أن يُعْبَدَ وحده ، لا يشرك به غيره ، ولا توجه العبادة لأحد سواه ..

وفضلا عن كون ذلك هو حق الله على عباده ، إذ أن حق الخالق الرازق المنعم المتفضل ألا توجه العبادة إلى غيره ممن لم يخلق ولم يرزق ولم ينعم ولم يتفضل ..

⁽٢) أشرت إلى هذا المعنى فى كتاب « دراسات قرآنية » .

فضلا عن ذلك فهي قضية الإنسان ذاته ..

فالله الخالق الرازق المنعم المتفضل حقيق بأن تفرد له العبودية لأنه هو المتفرد بالألوهية والربوبية . ولكنه _ سبحانه وتعالى _ غنى عن العباد وعبادتهم ، لا يؤثر في ملكه أن يعبده عباده أو يكفروا به !

يقول الله فى الحديث القدسى: «ياعبادى ، لو أن مؤمنكم وكافركم ، برّكم وفاجركم كانوا على أتقى قلب رجل منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئا ، ولو أن مؤمنكم وكافركم ، بركم وفاجركم كانوا على أفجر قلب رجل منكم مانقص ذلك فى ملكى شيئا » (٣) .

ويقول تعالى فى محكم التنزيل على لسان موسى ـ عليه السلام ـ : « وقال موسى : إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعا فإن الله لغنى حميد » (3) .

أما الإنسان فأمره مختلف . .

فهو من ناحية لا يستغنى عن فضل الله لحظة واحدة من حياته : « ياأيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم . هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ؟ لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ؟ (٥)

ومن ناحية أخرى هو عابد بفطرته. لا تمر عليه لحظة من عمره

⁽٣) أخرجه مسلم . (٥) سورة فاطر [٣] .

⁽٤) سورة إبراهيم [٨].

لا يكون فيها عابدا لشيء ما ، واعيا بذلك أم على غيروعى منه (٦) . وهو ف أى لحظة من حياته بين أمرين اثنين لا ثالث لهما : إما أن يكون عابدا لله وحده بلا شريك ، وإما أن يكون عابدا لشيء آخر غير الله ، معه أو من دونه ، كلاهما سواء! مما يسميه الله بسبحانه وتعالى . « عبادة الشيطان » لأنه استجابة لدعوة الشيطان :

« ألم أعهد إليكم يابني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدوني ، هذا صراط مستقيم » (٧) .

كما أن فى تركيب الإنسان ـ فى فطرته التى فطره الله عليها ـ حبا عميقا للشهوات ، يصفه ـ سجحانه وتعالى ـ على هذه الصورة :

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا . . » (^) .

وهذه الشهوات ــ وإنكانت مركبة في فطرة الإنسان لحكمة يريدها الله (٩) ــ فهي هي المداخل التي يستدرج الشيطان منها الإنسان ليبعده عن

⁽٣) حتى الذين يقولون إنهم «ملحدون» لايؤمنون بشىء ولايعبدون شيئا هم عابدون لأهوائهم وشهواتهم كما يقول سبحانه وتعالى : «أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ؟ » [سورة الجاثية : ٣٣] .

⁽٧) سورة يس (٦٠ - ٦١] .(٨) سورة آل عمران [١٤] .

⁽٩) هي من «الدوافع «التي يعلم الله أنها لازمة للإنسان ليقوم بدور الخلافة في الأرض ولكن في الحدود التي أباحها الله، وهي في الوقت ذاته نقطة الابتلاء في حياة الإنسان. انظر الفصل القادم «مفهوم العبادة ».

عبادة الله، بعدا مؤقتاكما يقع فى المعصية: «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن . . » (١٠) أو بعداكاملا ينقطع فيه مابينه وبين الله ، فى شرك أو كفر وجحود :

«قال: فبها أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم. ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين » (١١) .

ولا تستوى حياة الإنسان عابداً لله وعابدا للشيطان :

وجهه أهدى ؟ أم من يمشى سويا على صراط مستقيم ؟ $^{(11)}$.

«قل: هل يستوى الأعمى والبصير، أم هل تستوى الظلمات والنور؟» (١٣٠).

ومن فضل الله وكرمه أنه حين يؤدى العباد حق الله عليهم ، من إفراده بالألوهية والربوبية ، وتوجيه العبادة خالصة إليه ، يكونون فى أحسن تقويم كما خلقهم الله . وتكون حياتهم فى الدنيا خير حياة وأنظف حياة وأجمل حياة ، ويكون لهم فى الآخرة ما وعدهم الله من الجزاء ، بينما يتمتعون فى الدنيا _ إذا كفروا _ متاع الحيوان ، ويكون لهم فى الآخرة ما توعد الله به من الجزاء .

⁽١٠) أخرجه الشيخان. (١٢) سورة الملك [٢٢].

⁽١١) سورة الأعراف [١٦ – ١٧]. (١٣) سورة الرعد [١٦]:

« الذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، والنار مثوى لهم » (١٤) .

« والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى ، فبشر عباد » (١٥) .

من أجل ذلك يحتاج الإنسان دائها إلى لا إله إلا الله ..

يحتاج إليها وهوكافر أو مشرك ليصحح أصل اعتقاده ، ويحتاج إليها وهو مؤمن ليتنبه ويحذر ، ويضيّق فى نفسه مداخل الشيطان ، لكى لا يفتنه عن العبادة الحقة الواجبة لله .

وفى جميع الأحوال تؤدى لا إله إلا الله مهمة معينة فى حياة الإنسان ، ولا تكون «كلمة » تطلق فى الهواء بغير مقتضى لها ولا أثر فى واقع الحياة .

华 华 特

فلننظر الآن المهمة التي أدتها لا إله إلا الله في حياة الجيل الأول _ رضوان الله عليهم _ ولننظر قبل ذلك لماذا رفضها العرب المشركون وصارعوا الدعوة إليها ذلك الصراع المرير الذي يعرفه التاريخ . .

إن لا إله إلا الله هي دعوة الرسل جميعا ـ صلوات الله وسلامه عليهم ــ من لدن آدم ونوح إلى محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وموقف

⁽١٤) سورة محمد [١٧] . (١٥) سورة الزمر [١٧] .

الجاهلية تجاهها موقف واحد لم يتغير خلال التاريخ: موقف الرفض والجاهلية والإعراض والجنوح..

فما الذى فيها يدعو الجاهلية إلى اتخاذ هذا الموقف الموحد خلال التاريخ ، وخاصة من جهة الملأ المستكبرين في كل جاهلية .

« ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إنى لكم نذير مبين ، ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم . فقال الملأ الذين كفروا من قومه مانراك إلا بشرا مثلنا ، ومانراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ، ومانرى لكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين » (١٦) .

« وإلى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، إن أنتم إلا مفترون » . . . « قالوا ياهود ماجئتنا ببينة ، وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين » (١٧) .

« وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اغبدوا الله مالكم من إله غيره ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ، فاستغفروه ثم توبوا إليه ، إن ربى قريب مجيب . قالوا ياصالح قدكنت فينا مرجوا قبل هذا ، أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ؟ وإننا لني شك مما تدعونا إليه مريب » (١٨) .

« وإلى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، ولا تنقُصُوا المكيال والميزان ، إنى أراكم بخير، وإنى أخاف

⁽١٦) سورة هود [٢٥ ــ ٢٧] . (١٨) سورة هود [٣١ ــ ٣٢] .

⁽۱۷) سورة هود [٥٠ إلى ٥٣].

عليكم عذاب يوم محيط » ... « قالوا : ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا مانشاء ؟ إنك لأنت الحليم الرشيد ! » (١٩) .

ولم تكن الجاهلية العربية بدعا من الجاهليات تجاه ذات الدعوة التي أرسل بهاكل رسول من قبل. فلماذا وقفت الجاهلية العربية هذا الموقف العنيد، وأبت ذلك الإباء، كما وقفت كل جاهلية من قبل؟

أمن أجل الكلمة ؟ أم من أجل مدلولها ومقتضاها ؟ وماذا كان مدلولها في حسهم بالضبط ؟ وما الفارق _حسب مدلول الكلمة _ بين صورة حياتهم التي كانوا عليها وبين الصورة التي يُدْعَوْن إليها ، أو يتوقعون أن تكون عليها حين يدخلون في لا إله إلا الله ؟

أما الكلمة فى ذاتها _ بغير مقتضى ولا مدلول _ فلا يتصور من قريش خاصة أن تقف من أجلها موقف العناد الشديد كله الذى وقفته ، وتخوض من أجلها ذلك الصراع كله الذى خاضته ، حتى يفلت الأمر من أيديها ، ويقتل من صناديدها من يقتل . . كما لا يتصور من بقية العرب كذلك أن يخوضوا صراعا هائلا من أجل كلمة ، لوكانت تلك الكلمة لا تغير من حياتهم شيئا ، ولا تقدم ولا تؤخر .

فأما قريش ، فإن القبيلة التي كان يولد فيها شاعر كانت تتيه فخرا على بقية القبائل ، فكيف بالتي يخرج منها نبي ؟! وقد كان لقريش خاصة

⁽۱۹) سورة هود [۸۶ إلى ۸۷] :

زعامة « دينية » تعطيها فى الوقت ذاته مركزا سياسيا واقتصاديا متميزا ، ومولد نبى فيها يزيد الزعامة الدينية بروزا ، ومن ثم يؤكد المركز السياسى والاقتصادى ويزيده وثاقة .

فلهاذا رفضت قريش أن تنطق الكلمة . لو أنها مجرد كلمة تقال ؟! ولقد قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعمه أبى طالب وهو يناشده أن يسلم : قلها ياعم! كلمة أشفع لك بها عند الله! فهل كان يتصور من أبى طالب أن يرفض الكلمة لو أنها مجرد الكلمة ، أى لو لم يكن لها مقتضى ، ولا يترتب على قولها تغيير؟ أم إنه رفضها من أجل ما يترتب على التلفط بها من تغيير كامل فى منهج الحياة كله ، وفى كل جزئية من جزئياته ؟

تلك بديهية لا نحسبها موضع جدال.

لقد كان البون شاسعا جدا بين صورة حياتهم التي كانوا عليها والصورة التي يدعون إليها ، وكانت معارضتهم لهذه الدعوة متعددة الأسباب :

كانوا يكذبون بقضية الوحى ..

ويكذبون بالبعث والحشر والحساب والجزاء ..

وكانوا يرفضون أن يجعلوا الآلهة إلها واحدا ..

وكانوا يرفضون أن يتركوا ما عليه آباؤهم ويتبعوا ما أنزل الله ، وأن

يكون حلالهم وحرامهم ما أحل الله وما حرم الله . .

وذلك فضلا عن الأمور « الخلقية » الأخرى كالخمر والميسر والزنا والقتل والسلب والنهب ووأد البنات وأكل مال اليتيم والظلم المتفشى بينهم والبغى بغير الحق ..

باختصار .. كانوا يرفضون أن يتلقوا « الدين » من عند الله ، بمعناه الواسع الشامل ، الذى يشمل الاعتقاد والشعائر والتحليل والتحريم ، والأخلاقيات والتصورات ، كما يرفضون أن يلتزموا بما يلزمهم به الدين المنزل من عند الله .

وكانت أهم القضايا التي ركز عليها القرآن قضيتان رئيسيتان، تجمعان في طياتهما جميع القضايا: قضية توجيه العبادة لله الواحد، وقضية اتباع ما أنزل الله في التحليل والتحريم:

« وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ، وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة إلها واحدا ؟ ! إن هذا لشيء عجاب ! » (٢٠)

« وإذا قيل لهم ا**تبعوا ما أنزل الله** قالوا : **بل نتبع ما وجدنا عليه** آ**باءنا . أ**و لوكان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير؟ ! » (٢١)

ويلخص القرآن موقف الشرك في هاتين القضيتين تلخيصا دقيقا في سورة الأنعام وسورة النحل :

⁽۲۱) سورة ص [٤ _ ٥] . (۲۱) سورة لقمان [۲۱] .

« سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء . كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقو بأسنا » (٢٢) .

« وقال الذين أشركوا لو شاء الله ماعبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء . كذلك فعل الذين من قبلهم . فهل على الرسل إلا البلاغ المبين؟ » (٢٣) .

فالشرك يتمثل في صورته الاعتقادية في الاعتقاد بوجود آلهة أخرى غير الله ، وفي صورته العملية في التوجه بالعبادة لغير الله ، والتحريم والتحليل من دون الله .

وهذا الذى من أجله رفض المشركون العرب أن ينطقوا بلا إله إلا الله .

* * *

أشرنا فيما سبق إلى أن هذا الموقف موقف الرفض والصد لم يكن خاصا بالجاهلية العربية وحدها ، إنما هو أمر عام فى كل الجاهليات التى كانت من قبل . وآيتا سورة الأنعام وسورة النحل اللتان ذكرناهما آنفا تشيران إلى ذلك :

«كذلك كذب الذين من قبلهم » .

«كذلك فعل الذين من قبلهم » .

⁽٢٢) سورة الأنعام [١٤٨] .

كما أن قصص الأنبياء تشيركلها إلى هذه الحقيقة التاريخية. فني كل جاهلية أرسل إليها رسول نجد « الملأ » يسارعون إلى التصدى للرسول وتكذيبه ومحاولة تخذيله عن دعوته ، ونجد « الجاهير » المستضعفة تتبع سادتها _ إلا القليل منهم _ وتصد عن السبيل.

وقد ترفض الجاهير أن تترك مألوف عبادتها من الآلهة المتعددة ، لأن الجاهير في جاهليتها ـ تكون أكثر التصاقا بعالم الحس وهذه الآلهة المحسوسة القريبة تلبى انحرافاتها الجاهلية ، وتجعلها تحس كلما رأتها أو لمستها أو قدمت لها القرابين أو شعائر التعبد ، أنها قريبة من آلهتها قربا ماديا محسوسا !

وأما الملأ ــ وهم أكثر تنورا وأكثر استعلاء عن الجاهير ــ فإن الذى يحركهم لمحاربة الرسول المبعوث إليهم ليس قضية الآلهة المزعومة بقدر ماهو قضية « السلطة »!

إن ولاءهم لهذه الآلهة صورى أكثر مما هو حقيق! وإن دفاعهم عنها ــ مها بدا حارا ــ لا ينبعث من الاعتقاد بألوهيتها بقدر ماينبعث من كونها هى الأداة التى يستعبدون باسمها الجاهير، ويعطون أنفسهم سلطانا مقدسا مستمدا من قداستها فى نفوس الجاهير!

أما القضية الحقيقية بالنسبة إليهم فهى قضية الحاكمية: من يحكم هذه الجماهير؟ هم؟ أم الله _ سبحانه وتعالى _ عن طريق تحكيم شريعته؟

هذه هي القضية الحقيقية التي تستفز الملأ في كل جاهلية ليحاربوا دعوة لا إله إلا الله .

إن السلطة التي في أيديهم ، سلطة التشريع التي يحكمون بها الجاهير ويستذلونهم بها ليست سلطتهم أصلا ، إنما هي حق الخالق الرازق المنعم المتفضل ، الذي خلق ، ثم رزق وأنعم وتفضل ، فكان من حقه وحده أن يحل ويحرم ، وأن يبيح ويمنع ، وليس لأحد غيره أن يشرع لي يحل ويحرم لا أن يكون خالقا مثل الله ، رازقا مثل الله ، منعا متفضلا مثل الله . والله « ليس كمثله شيء » (٢٤) .

« أَفُن يَخْلَق كَمَن لا يَخْلَق ؟ أَفْلا تَذْكُّرُونَ ؟ ! » (٢٠٠) .

« هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ؟ لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ؟ » (٢٦) .

ولكن «الملأ» يتجاهلون هذه الحقيقة ، ويتجاهلون أسسها «الاعتقادية» ومقتضياتها العملية ، حين يستبدون بالسلطة ـ سواء حكموا بالدكتاتورية الصريحة أم من وراء ستار كها هو الحال في «الديمقراطية» (۲۷) ، وسواء استجابوا لشهوات الجاهير وأهوائهم أم

⁽۲٤) سورة الشورى [۱۱] . (۲۲) سورة فاطر [۳] .

⁽٢٥) سورة النحل [٧٧].

⁽٢٧) انظر إن شئت فصل « الديمقراطية » من كتاب « مذاهب فكرية معاصرة » حيث بينا كيف تحكم الرأسمالية من خلال الديمقراطية . وكيف تحقق جميع مصالحها بينا يتوهم « الشعب » أنه هو مصدر السلطات .

اكتفوا بشهواتهم .هم وأهوائهم (٢٨) _, ويظلون يؤصلون سلطانهم « بأنظمة » للحكم و « دساتير » عرفية أو مكتوبة تجعل لهم الحق فى التحليل والتحريم ، والإباحة والمنع . .

حتى إذا جاء رسول من عند الله يقول: « لا إله إلا الله » « اعبدوا الله مالكم من إله غيره » يتغير الموقف كله!

إن الملأ قد يختصمون فيما بينهم أيهم الذي يتولى « السلطة » ويستعبد الجماهير. وقد يختصمون فيما بينهم وبين الجماهير كما حدث في الديمقراطية _ أي قدر من السلطة يحتفظون به في أيديهم وأي قدر يسقطونه فُتَاتاً تتلهي به الجماهير. أما حين يأتي الرسول الذي يقول: « لا إله الا الله » « اعبدوا الله مالكم من إله غيره » فإن جوهر القضية يتغير.. وتصبح القضية هي نزع السلطة أصلا من أيدي الملأ ، بل من أيدي البشر جميعا ، وردها إلى الله صاحب السلطان ، صاحب الحق في المنع والإباحة ، والتحليل والتحريم!

ومن أجل ذلك يفزع «الملأ» من دعوة لا إله إلا الله أضعاف أضعاف ما يفزعون من منازعيهم على السلطان الأرضى ، ويجندون طاقتهم كلها لمحاربة الدعوة ، ويستخدمون الجاهير ذاتها من بين الأدوات

⁽٢٨) فى الديمقراطية بالذات يستجاب لكثير من شهوات الجاهير الهابطة . كجزء من اللعبة الضخمة . لتمرير مصالح الرأسمالية الحاكمة وإيهام الجهاهير أنها هى صاحبة السلطان !

التى يستخدمونها لهذه الحرب، بتزييف الحقائق لها تارة، وتارة بالإرهاب!

« وقال فرعون ذرونى أقتل موسى ، وليدع ربه ! إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد ! » (٢٩) .

« ثم بعثنا من بعدهم موسى وهرون إلى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين. فلم جاءهم الحق من عندنا قالوا: إن هذا لسحر مبين. قال موسى: أتقولون للحق لما جاءكم؟! أسحر هذا؟! ولايفلح الساحرون. قالوا: أجئتنا لتلفتنا عا وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض؟ ومانحن لكما بمؤمنين » (٣٠).

« فاستخف قومه فأطاعوه . إنهم كانوا قوما فاسقين » (٣١) .

非 非 非

وفى مكة كانت القضية هى ذات القضية .. وكانت قريش هى «الملأ» الذى يتصدى للدعوة بالصد والحرب. ولم تكن فى حقيقتها حربا بين قريش ومحمد _ صلى الله عليه وسلم _ إنما كانت حربا بينهم وبين « الدعوة » التى يحملها رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ :

« فإنهم لا يكذبونك! ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون! » (٣٢).

⁽٢٩) سورة غافر [٢٦] . (٣١) سورة الزخرف [٥٤] .

⁽٣٠) سورة يونس [٥٧ – ٧٨] . (٣٢) سورة الأنعام [٣٣] .

وفى ذروة المعمعة أرسلت قريش رسولها إلى رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ يعرض عليه الملك والمال ومتاع الأرض كله على أن يتخلى عن تلك الدعوة! فلم تكن العداوة بينهم وبين شخص الرسول _ صلى الله عليه وسلم _ إنما نجمت العداوة من تمسكه بهذه الدعوة وعدم تخليه عنها ، وهم لا يطيقونها ولا يصبرون عليها! ثم كان لابد أن تتحول فى النهاية إلى معركة بينهم وبين ممثل الدعوة _ عليه الصلاة والسلام _ . .

排 排 茶

ثم شاء الله أن يؤمن من آمن بلا إله إلا الله ، فكان منهم ذلك الجيل الفريد فى التاريخ .. فكيف كانت لا إله إلا الله فى حياتهم ، وكيف كان مدلولها لديهم ؟ !

هلكانت مجرد تصديق بأن الله واحد_سبحانه وتعالى _ وأنه لا إله غيره فى هذا الكون العريض كله ؟ أوكانت مجرد تصديق بالقلب وإقرار باللسان ؟ !

أم كانت فى نفوسهم وفى واقع حياتهم شيئا أضخم من ذلك بكثير ، وأعمق من ذلك بكثير ؟!

فلننظر إلى حقيقة الواقع ..

كان العرب _ كما أشرنا في كتاب « واقعنا المعاصر » (٣٣ _ شتيتا

⁽٣٣) فصل «نظرة إلى الجبل الفريد.

متناثرا لا يأتلف ولا يتجمع رغم وجود كل عوامل التجمع ، من وحدة الأرض ، ووحدة البيئة ، ووحدة اللغة ، ووحدة المعتقدات ، ووحدة الثقافة ، ووحدة التاريخ . . ومن هناك التقطهم الإسلام فأخرج منهم «خير أمة أخرجت للناس » .

لم تكن الأصنام وحدها هي الأرباب المعبودة في الجزيرة العربية كما تلح بعض كتب التاريخ التي تحصر قضية لا إله إلا الله في إزالة ذلك اللون الحسي الغليظ من الشرك ، ولاكان الفساد مقصورا على تلك المفاسد الحلقية من الخمر والميسر والزنا ووأد البنات وغارات السلب والنهب والمظالم الاجتاعية كما تلح كتب أخرى من كتب التاريخ!

لقد كانت لا إله إلا الله تستخلص النفوس من الشرك كافة ، ولم يكن الشرك لونا واحدا وإنما ألوانا متعددة تندرج فى النهاية تحت هاتين القضيتين الرئيسيتين : تعدد الآلهة واتباع غير ما أنزل الله . .

كانت القبيلة ربا معبودا ، كما يقول الشاعر:

وهل أنا من غزية ، إن غوت

غويت، وإن ترشد غزية أرشد!

وكان عرف الآباء والأجداد ربا معبودا :

« وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا : بل نتبع ماوجدنا عليه آباءنا (٣٤) .

⁽٣٤) سورة لقمان [٢١] .

وكان الموى والشهوات أربابا معبودة:

ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغي

وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى ؟!

وكانت قريش وغيرها من القبائل الكبيرة أربابا تحرم للعرب ماتشاء وتحل ماتشاء ، كماكان كهنة الأصنام :

« إنما النسئ زيادة فى الكفر يُضَل به الذين كفروا ، يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ماحرم الله (ه") ، فيحلوا ماحرم الله . زُيِّن لهم سوء عملهم ، والله لايهدى القوم الكافرين » (٣٦) .

« وجعلوا لله مما ذراً من الحرث والأنعام نصيبا ، فقالوا : هذا لله ، بزعمهم ، وهذا لشركائنا ! فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وماكان لله فهو يصل إلى شركائهم ! ساء مايحكمون ! وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم . ولو شاء الله مافعلوه . فذرهم وما يفترون . وقالوا : هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء _ بزعمهم _ وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه . سيجزيهم بما كانوا يفترون .

⁽٣٥) كان العرب فى جاهليتهم يؤمنون بحرمة الأشهر الحرم الأربعة التى حرمها الله . ولكنهم كانوا إذا اقتضتهم أهواؤهم يحلون ما شاءوا من هذه الأشهر . ويحرمون بدلا منها ما شاءوا بحيث يظل مجموع الأشهر الحرم أربعة فى العام ! وإلى هذا تشير الآية الكريمة .

⁽٣٦) سورة التوبة [٣٧] .

وقالوا: ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء! سيجزيهم وصفهم ، إنه حكيم عليم . قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله . قد ضلوا وماكانوا مهتدين » (٣٧) .

ومن كل هذه الألوان من الشرك _ إلى جانب عبادة الأصنام _ وعلى درجة واحدة من الأهمية ، كان القرآن يدعو _ بلا إله إلا الله _ لتخليص النفوس والقلوب ، والمشاعر والسلوك . وكان جهاد الرسول _ صلى الله عليه وسلم _ فى مكة موجها إليها جميعا بأمر الله وتوجيهه لرسوله _ صلى الله عليه وسلم _ .

ولئن كانت قضية البعث والحساب قد شغلت حيزاكبيرا من خطاب القرآن للمشركين في مكة ، فإن الله يعلم _ سبحانه _ ما للإيمان باليوم الآخر من أثر في اقتلاع الشرك بجميع أنواعه وجميع آثاره من القلوب ، ذلك أنهم إن لم يؤمنوا الإيمان القاطع أنهم سيبعثون بعد الموت ، ويحاسبون على شركهم ، فلن يَدَعُوا ذلك الشرك ولن يقلعوا عنه ، سواء كان شرك العبادة أو شرك الاتباع ..

张 张 张

وحين خلصت نفوس المؤمنين بلا إله إلا الله من تلك الألوان من الشرك ، فقد حدث في نفوسهم تحوّل هائل . كأنه ميلاد جديد .

⁽٣٧) سورة الأنعام [١٣٦_١٤٠].

لم يكن مجرد التصديق ، ولا مجرد الآقرار . .

لقدكان _كها ذكرنا فى غير هذا الكتاب _كأنه إعادة ترتيب ذرات نفوسهم على وضع جديد ، كها يعاد ترتيب الذرات فى قطعة الحديد فتتحول إلى طاقة مغنطيسية كهربائية .

كان الاهتداء إلى « الحق » هائل الأثر في كل جوانب حياتهم ..

لقد زالت لتوها كل الأرباب الزائفة التي كانت تحتل قلوبهم وأرواحهم وواقع سلوكهم ، ولم يعد يشغل تلك القلوب والأرواح إلا عبادة واحدة ، لله الواحد لا شريك له ..

وسقط مع تلك الأرباب الزائفة كل ماكان متعلقا بها من أعراف ، وكل ماكان حولها من اهتمامات ..

لم تعد القبيلة ، ولا عرف الآباء والأجداد (٣٨) ، ولا العادات ولا التقاليد الموروثة تزن في حسهم جناح بعوضة أو تضغط على حسهم لتشكل سلوكهم أو مشاعرهم . ولم تعد روابط الدم ، ولا روابط « المصالح » هي التي تجمّع بينهم أو تفرّقهم ..

بل لم تعد الدنياكلها _ بكل اشتباكاتها وكل وشائجها _ هى الشغل الشاغل لهم كماكانت قبل إيمانهم بلا إله إلا الله ، ولم تعد « القيم » هى التي تقررها الدنيا منقطعة عن الآخرة !

⁽٣٨) يقابل هذا العرف في وقتنا الحاضر مايسمي بالرأى العام !

لقد صارت « لا إله إلا الله » هي مفتاح التجمع والافتراق . . هي الرباط الذي يربط القلوب التي آمنت بها ، ويفصل بينها وبين غيرها من القلوب . وصار التجمّع الجديد ، الذي أخذ في نفوسهم مكان التجمعات القديمة كلها ، منبثقا كله من لا إله إلا الله ، دائرا حول لا إله إلا الله ، مستمدا وجوده الجديد كله من لا إله إلا الله .

ثم كان الرسول _ صلى الله عليه وسلم _ الذى هداهم للا إله إلا الله ، والذى تمثلت فيه رسالة الله إليهم _ يلتق بهم فى دار الأرقم ليقوم بأعظم عمل قام به إنسان فرد فى تاريخ البشرية كله ، وهو تربية ذلك الجيل الفريد على مقتضيات لا إله إلا الله ، وأخلاقيات لا إله إلا الله . .

ومن خلال هذه التربية الفذة على مقتضيات لا إله إلا الله ، وأخلاقيات لا إله إلا الله ، على يد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خرجت خير أمة في التاريخ . .

张 称 称

يتوهم كثير من الناس أن لا إله إلا الله كانت مطلوبة بكل مقتضياتها ، ومؤثرة فى ذلك الجيل الفريد بكل آثارها لأنهم كانوا ـ قبل ذلك ـ مشركين !! وأنهم لوكانوا فى غير هذا الوضع لكان كل المطلوب منهم هو التصديق والإقرار!!

وتلك هي الجناية الكبرى التي جناها الفكر الإرجائي على الأمة الإسلامية ، والتي ظلت ـ مع عوامل أخرى ـ تفرغ لا إله إلا الله من

محتواها الحقيقي تدريجيا حتى أحالتها في النهاية كلمة خاوية من الروح.

وقبل أن نناقش هذا الوهم ، نريد أن نستعرض ــ قليلا ــ صورة لا إله إلا الله مع المؤمنين في المدينة .

إن حديث لا إله إلا الله _كما أسلفنا _ لم ينقطع فى المدينة ، لأنه ليس حديثا يذكر فى مبدإ الطريق ثم ينتقل منه إلى موضوع آخر ، إنما يذكر فى مبدإ الطريق ثم ينتقل معه إلى كل موضوع آخر.

ولنأخذ نهاذج من السور المدنية تبين هذا الأمر .

إن سورة البقرة التي تناولت موضوعات متعددة بدأ بها تنظيم حياة المؤمنين في المجتمع الجديد بعد قيام الدولة ، تبدأ بوصف المؤمنين الذين صح اعتقادهم ورسخ على الصورة الصحيحة ، ثم أدوا العبادات التي فرضت عليهم :

«ألم. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من رجهم وأولئك هم المفلحون » (٣٩) .

فهاذا يقال لهؤلاء « المؤمنين » « المتقين » « المفلحين » الذين لم يستوفوا فقط شرط التصديق والإقرار ، بل أضافوا إلى ذلك إقامة الصلاة ، وإيتاء

⁽٣٩) سورة البقرة [١ ــ ٥] .

الزكاة ، وهما العبادتان اللتان كانتا وقتئذ قد فرضتا عليهم ؟

هل يقال لهم : يكفيكم ! أحرزتم المطلوب كله وضمنتم الجنة . أم يقال لهم : إن الله فرض عليكم ، وفرض عليكم وفرض عليكم .. على سبيل الوجوب لا على سبيل التخيير؟

ويقال لهم ، لكى يعلموا يقينا أن حقيقة الإيمان لا تتحقق بالتصديق والإقرار وحده ، ولكن بأعمال معينة دالة على الإيمان :

« ليس البرَّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البرَّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربي واليتامى والمساكين وابن السبيل وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس . أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون » (١٠٠) .

وسورة آل عمران ، المشغولة كلها بقضية لا إله إلا الله (١١) ، والتي تبدأ لهذه الآيات المتعلقة بالعقيدة :

«ألم. الله لا إله إلا هو الحي القيوم. نزل عليك الكتاب بالحق

⁽٤٠) سورة البقرة [١٧٧].

⁽٤١) انظر بالتفصيل إن شئت كتاب ، دراسات قرآنية ، .

مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس ، وأنزل الفرقان . . » (٤٢) .

هذه السورة تقرر أصول العقيدة واضحة حاسمة وتقرر إلى جانبها مقتضياتها ، وتبرز من بين هذه المقتضيات قضية القتال لإقرار هذا الحق في واقع الأرض ، ويرد فيها بالذات هذا الدرس التربوي العظيم :

«إن فى خلق السهاوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السهاوات والأرض : ربنا ماخلقت هذا باطلا ، سبحانك ! فقنا عذاب النار . ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته ، وما للظالمين من أنصار . ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفر عنا سيئاتنا ، وتوفنا مع الأبرار ، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد . فاستجاب لهم ربهم : أنّى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أننى ، بعضكم من بعض ، فالذين هاجروا ، وأخرجوا من ديارهم ، وأوذوا فى سبيلى ، وقاتلوا وقتلوا ، لأكفرن عنهم سيئاتهم ، ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله . والله عنده حسن الثواب » (٢٤) .

فهؤلاء المؤمنون الصادقون الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى

⁽٤٢) سورة آل عمران [١ - ٤] . (٤٣) سورة آل عمران [١٩٠ ـ ١٩٠].

جنوبهم - والذكر من عمل الجوارح إلى جانب عمل القلب - ويتفكرون فى خلق الساوات والأرض ، فيهتدون إلى أنها لم تخلق باطلا ، إنما خلقت بالحق ، والحق يقتضى أن يحاسب الناس على أعالهم التي قاموا بها فى الحياة الدنيا ، فلابد من بعث وحساب وجزاء ، فيدعون الله أن يقيهم النار ويدخلهم الجنة ، ويتقدمون بمؤهلات الطلب : أنهم بمجرد سماعهم للمنادى الذى ينادى للإيمان ـ عليه الصلاة والسلام _ عجرد سماعهم للمنادى الذين هذه حالهم وهذه صفاتهم يُحْبرُون أن قد آمنوا . . هؤلاء المؤمنون الذين هذه حالهم وهذه صفاتهم يُحْبرُون أن الله استجاب لهم . . فلأى شىء استجاب سبحانه ؟ أللتصديق والإقرار ؟ أللتفكر والتدبر ؟ أللذكر الدائم الذى لا ينقطع ؟ أللضراعة الحارة للوقاية من النار ودخول الجنة ؟ أم لشىء بعد ذلك كله ، هو من « مقتضيات » ذلك كله ؟ !

« فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم ... »

والتوجيه التربوى واضح .. فالمطلوب ، والذى يستجيب له الله _ حمل وعلا _ هو أن يتحول التفكر والتدبر والتذكر إلى عمل . ولما كانت السورة مشغولة بقضية الجهاد لإقرار الحق فى واقع الأرض ، أبرزت الآية أنواعا من العمل تناسب السياق ، فذكرت الذين هاجروا فى سبيل الله ، والذين أخرجوا من ديارهم فى سبيل الله ، والذين أخرجوا فى سبيل الله ، والذين قتلوا فى سبيل الله ، لا لأنها الأعمال الوحيدة فى سبيل الله ، والذين قتلوا فى سبيل الله ، لا لأنها الأعمال الوحيدة

المطلوبة ، ولكن لأنها هي المناسبة في السياق (٤٤) .

وسورة النساء ، التي وردت فيها الآية التي تخاطب « الذين آمنوا » فتطلب منهم أن يؤمنوا ، بل تطلب منهم أن يؤمنوا بذات الأشياء التي هم مؤمنون بها بالفعل _ كما أشرنا من قبل _ لا تقول للذين آمنوا إنكم إذا آمنتم هذا الإيمان المطلوب ، بل رسختموه وحافظتم عليه وحرصتم عليه ، وامتلأت به قلوبكم ووجداناتكم ، وصدقتم وأقررتم ، فلا عليكم بعد ذلك أن يكون سلوككم الواقعي وتصرفاتكم العملية كما تملي عليكم أهواؤكم ، أو كما تقرر لكم أعرافكم . . إنما يفرض عليهم فرائض » (منه) يختم بيانها بقوله تعالى :

« تلك حدود الله . ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم . ومن يَعْصِ الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين » (٤٦٠) .

ويوجههم توجيهات معينة يقيمون عليها علاقاتهم الأسرية ، وعلاقاتهم الاجتماعية ، ويوجههم إلى المرجع الذي يرجعون إليه في ذلك كله :

« ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ،

⁽٤٤) أشرت إلى هذا المعنى في كتاب « دراسات قرآنية » في عرض سورة آل عمران .

فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . . » (٧٠٠ .

فيربط رد الأمور إلى الله والرسول ، وإجراء الحياة كلها بحسب ما يقضى به الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالإيمان بالله واليوم الآخر و يجعله شرطه : « إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » .

ثم يخبرهم أنه لم يرسل رسله لمجرد التبليغ والإعلام ، حتى يقول من يقول : لقد بلغنى وقد علمت ، وصدقت وأقررت . إنما أرسلهم ليطاعوا :

« وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله .. » (٤٨)

ثم يعلمهم _ بعد بيان أحكامه وأوامره ونواهيه وتوتجيهاته التي فرضها على « الذين آمنوا » _ أن الإيمان ليس بالتمنى ، إنما بالتصديق الواقعى للإيمان في صورة عمل محسوس :

« ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب . من يعمل سوء ا يُجْزَ به ولا يَجدُ له من دون الله وليا ولا نصيرا . ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » (٤٩) .

⁽٤٧) سورة النساء [٥٩] .

⁽٤٨) سورة النساء [٦٤].

⁽٤٩) سورة النساء [١٢٣_١٣٤].

وسورة المائدة التي ورد فيها الإعلان باكتال «الدين» وإتمام النعمة:

 $^{''}$ اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا $^{(00)}$.

هذه السورة كلها بيان لما أحل الله وما حرم من المطاعم والمشارب والمعاملات والأحكام ، وهي كلها موجهة « للمؤمنين » من أول آية فى السورة :

« ياأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود .. »

وهى السورة التى نصت نصا صريحا على وجوب التحاكم إلى شريعة الله دون غيرها من الشرائع كافة ، وبينت أن الحكم نوعان اثنان لا ثالث لها ولا واسطة بينهما : إما حكم الله وإما حكم الجاهلية :

«أفحكم الجاهلية يبغون؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » (٥١) .

وأن من لم يحكم بما أنزل الله فحكمهم عند الله أنهم الكافرون الفاسقون الظالمون ;

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » (٥٢)

 ⁽٠٠) سورة المائدة [٣].

⁽١٥) سورة المائدة [٥٠].

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » (٥٣) . « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » (٤٤) .

وهكذا بقية السور المدنية على إطلاقها .. كلها خطاب للذين آمنوا ، أى أقروا وصدقوا ، تقول لهم : إن التصديق والإقرار الذى جاءوا به من مكة مهاجرين به فى سبيل الله والهجرة ذاتها «عمل» كلفوا به فنفذوه وأو الذى كانوا عليه فى المدينة (إن كانوا من الأنصار) يقتضيهم أن يلتزموا بما جدت فى المدينة من الأحكام والتكاليف والأوامر والنواهى ، وأن يلتزموا بما جدت فى المدينة من الأحكام والتكاليف والأوامر والنواهى ، وأن إيمانهم والآن صار مرتبطا بالالتزام بما جاء من عند الله من هذا كله ، وأن هذا الالتزام هو المحك لصدق إيمانهم ، وإلا فهو النفاق الذى لا يقبله الله ، ولا يجزى به إلا الخلود فى الدرك الأسفل من النار . .

«ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا » . . . « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكوك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسلما » (٥٥) .

« ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ، ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ، وما أولئك بالمؤمنين . وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا

⁽٥٥) سورة النساء [٦٠ إلى ٢٥].

⁽٣٥) سورة المائدة [٤٥] .

⁽٤٥) سورة المائدة [٤٧].

فريق منهم معرضون. وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين! أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا؟ أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله؟ بل أولئك هم الظالمون. إنماكان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا. وأولئك هم المفلحون. ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون » (٥٦).

 $_{\rm w}$ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا $_{\rm w}$.

فإذاكان هذا ماجاءت به السور المدنية من مقتضيات لا إله إلا الله ، فقد وضح لنا أنه حين اكتمل الدين . . يوم أنزل الله قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا » كانت لا إله إلا الله منهج حياة كامل ، يشمل الجانب الاعتقادى ، والجانب التعبدى ، والجانب السلوكى العملى . يشمل الاعتقاد بوحدانية الله (أى توحيده فى ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله) وتوجيه الشعائر التعبدية له وحده بلا شريك ، وتحكيم شريعته وحدها دون غيرها من الشرائع ، والتخلق بأخلاق لا إله إلا الله ، إلى جانب دون غيرها من الشرائع ، والتخلق بأخلاق لا إله إلا الله ، إلى جانب التكاليف المتعددة التي كلفهم إياها . .

وإذاكانت السور المكية قد ركزت على الجانب الاعتقادى : الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، والقدر خيره وشره ، وعلى الجانب الأخلاق كذلك ، وماكان قد فرض فى مكة من الشعائر

⁽٢٥) سورة النور [٧٤ ـ ٧٥]. (٧٥) سورة النساء [١٤٥].

التعبدية ، فإن السور المدنية قد ركزت تركيزا شديدا على قضية الحاكمية ، والالتزام بتحكيم شريعة الله ، واعتبار ذلك هو المحك لصدق الإيمان ، مع التوكيد على الجانب الأخلاق ، والعبادات الأخرى التي فرضت في المدينة ..

ولكن من الخطأ البالغ أن نظن أن قضية الحاكمية ، أى تقريركون الحاكمية لله وحده ، وأن حق التشريع من تحليل وتحريم وإباحة ومنع هوحق خالص لله لا يشاركه فيه البشر ، وأن التشريع بغيرما أنزل الله معه أو من دونه ـ شرك ، وأن إطاعة الذين يشرعون بغير ما أنزل الله شرك .

من الخطأ الظن بأن هذه القضية _ بتفصيلاتها تلك _ قد تقررت فى المدينة حين بدأت التشريعات تتنزل ليقيم المسلمون حياتهم عليها . بل لقد تقررت تقريرا واضحا حاسما فى مكة ، فى أكثر من سورة مكية ، كأصل من أصول الاعتقاد بلا إله إلا الله ، لا بوصفها التزاما سلوكيا فحس .

خذ على سبيل المثال هذه الآية من سورة الأعراف المكية :

« اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ، ولا تتبعوا من دونه أولياء . قليلا ماتذكرون » (٥٨) .

⁽٥٨) سورة الأعراف [٣].

فماذا تفيد منده الآية ؟

إنها تفيد أن الناس في حالتين اثنتين : إحداهما مأمور بها والأخرى منهى عنها . الأولى هي الإيمان ، والثانية هي الشرك .

فالإيمان ملخص في قوله تعالى: «اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ».

والمقابل ــ أى اتباع غير ما أنزل الله ــ هو اتباع الأولياء ــ أى الشركاء ــ وهو الشرك الصريح .

وخذ هذه الآية أيضا من سورة الأعراف :

« ألا له الخلق والأمر » (٩٥) .

فهى تقرر أمرين فى وقت واحد: أن الأمر لله وحده. بصيغة القصر. الأمر على إطلاقه غير محدد بنطاق معين ولا مجال معين. الأمر فى السهاوات والأرض وفى حياة البشركذلك. فأما فى السهاوات والأرض فستفاد من قوله تعالى قبل هذه العبارة: «إن ربكم الله اللمى خلق السهاوات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره» (١٠٠)، وأما فى حياة البشر فستفاد من قوله تعالى بعدها: «ادعوا ربكم تضرعا وخفية، إنه لا يحب المعتدين. ولا تفسدوا فى الأرض بعد

⁽٩٥) سورة الأعراف [٥٤]. (٦٠) سورة الأعراف [٥٤].

إصلاحها ، (٦١) أى لا تعتدوا بالخروج على أمر الله ، ولا تفسدوا فى الأرض باتباع غير شرع الله ومنهجه بعد إصلاحها بما نزل من عند الله .

أما الأمر الآخر الذي تقرره الآية فهو كون حق الحاكمية في السهاوات والأرض وفي حياة البشر مستمدا من الخالقية ، أي من القدرة على الخلق هو وحده صاحب الأمر. وإذ كان الله وحده _ سبحانه وتعالى _ هو المتفرد بالخلق ، فهو وحده كذلك صاحب الأمر ، في السهاوات والأرض وفي حياة البشر سواء .

وخذ هذه الآية من سورة الشورى المكية :

« وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله. ذلكم الله ربى عليه توكلت ، وإليه أنيب » (٦٢) .

فهى تقرر ذات اللبدأ ، وهو رد الحاكمية لله فى كل شىء يعرض للناس فى حياتهم ، فقوله تعالى: « من شىء » معناها جنس الشىء وعمومه ، أى كل شىء على إطلاقه . وكل شىء على إطلاقه حكمه إلى الله فى كونه حلالا أو حراما أو مباحا أو مكروها أو مندوبا . والآية السابقة لها تقرر ذات المعنى الذى قررته آية الأعراف :

« أم اتخذوا من دونه أولياء؟! فالله هو الولى ، وهو يحيى الموتى ، وهو يحيى الموتى ، وهو يحيى الموتى ، وهو على كل شيء قدير » (٦٣) .

⁽٦١) سورة الأعراف [٥٥-٥٦]. (٦٣) سورة الشوري [٩].

⁽٦٢) سورة الشورى [١٠].

فرد الحاكمية فى كل شىء لله هو الإيمان ، وخلاف ذلك هو اتخاذ الأولياء ــ أى الشرك ــ وهو عمل باطل ، لأن الله وحده هو الولى ، وهو الذى يحيى الموتى ، وهو على كل شىء قدير .

كذلك قوله تعالى فى سورة الشورى : «أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ؟ ! » (75) .

ولكن آيات سورة الأنعام ربما كانت أكثر تفصيلا في القضية :

«أفغير الله أبتغى حكما وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا؟ والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ، فلا تكونن من الممترين . وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلاته وهو السميع العليم . وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ، إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون . إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين . فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين . وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه . وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم . إن ربك هو أعلم بالمعتدين . وذروا ظاهر الإثم وباطنه . إن الذين بكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون . ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه . وإنه لفسق . وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم . وإن أطعتموهم إنكم لمشركون » (٢٥)

⁽٦٤) سورة الشورى [٢١]. (٦٥) سورة الأنعام [١١٤ ـ ١٢١].

وهي تبدأ بهذا السؤال الإنكارى: «أفغير الله أبتغي حكما ؟!» الذى يفيد أن الحاكمية لله وحده. هو الذى ينبغي أن يتخذ حكما ، ولا ينبغي لأحد غيره أن يحتكم إليه في أمر من الأمور. ثم تفيد أن الله قد أنزل الكتاب مفصلا فلم تعد هناك حجة لأحد أن يتخذ حكما غير الله في أمر من الأمور.. ويلاحظ أن هذه آية مكية في سورة مكية . وأنه في أمر من الأمور.. ويلاحظ أن هذه آية مكية في سورة مكية . وأنه في مكة لم تكن قد نزلت كل التشريعات التي يحتاج إليها الناس في حياتهم ، إنماكان ذلك في المدينة . فالتفصيل الذي تشير إليه الآية ليس هو تفصيل الأحكام أي تفصيل الفروع إنماكان تفصيل القضية الكبرى قضية الحكمية وأنها من أصل الاعتقاد . وأن الاعتقاد لا يتم ولا يصح إلا إذا كان معناه ومؤداه هو الالتزام من حيث المبدإ بما جاء من عند الله ، كثيراكان ما جاء من عند الله أم قليلا ، ومختصا بالاعتقاد كان أم عنصا بالأخلاق ، أم مختصا بالأحكام . (٢٦)

ثم تمضى الآيات فى تقرير أن كلمة الله هى الكلمة الفاصلة ، وهى الصدق والعدل ، وأن من لا يتبعها هم الضالون الذين يتبعون الظن ، ومن ثم لا يهتدون ، وأن الله يعلم من يضل عن سبيله ويعلم من يهتدى إليه .

⁽٦٦) اقرأ فى هذا الموضوع بتفصيل وافٍ مقدمة سورة الأنعام فى ظلال القرآن ج ٧ ص ١٠٠٤ هذا الموضوع بتفصيل « ألوهية وعبودية » فى كتاب « مقومات التصور الإسلامي » .

ثم تأتى القضية التى تأتى هذه المقدمات كلها توكيدا لها ، وتأصيلا لقاعدتها ، وهى قضية التحليل والتحريم ، ومن الذى يقرر الأمر فيها ، وموقف المؤمنين منها وموقف المشركين ، وما يجعل الإنسان فى شأنها مؤمنا أو يجعله مشركا . ومدارها أن المشركين فى مكة كانوا لا يذكرون اسم الله على الميتة ثم يحلون أكلها ، ويعطون هذا الأمر شرعية من عند أنفسهم بغير إذن من الله وبغير برهان . فينهى الله المؤمنين أن يأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ـ وهو الميتة التى حرمها الله ـ وينذرهم أنهم إن أطاعوا المشركين فهم مشركون مثلهم ، لأنهم يطيعون تشريعا جاهليا ما أنزل الله به من سلطان .

ومن ذلك يتبين أن قضية الحاكمية لم تبدأ فى المدينة بعد نزول التشريع ، إنما بدأت فى مكة فى وقت تأصيل العقيدة وبيان مقتضيات لا إله إلا الله ، وجاءت الأحكام القاطعة بعد ذلك فى المدينة تقرر أنه من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ، وأنه لا يعتبر أحد مؤمنا حتى يحتكم إلى الله ورسوله ، تطبيقا وتوكيدا لما تقرر فى مكة وقت تأصيل العقدة .

茶 株 株

فإذا كان هذا من جانب التكليف الربانى ، فلننظر إلى الجانب التطبيق فى حياة المؤمنين فى المدينة . كيف تلقوا الأمر الربانى وكيف نفذوه . .

لم يكن أحد فى ذلك الجيل المتفرد يتلبث حتى يسأل: هل هذه الأوامر الربانية ــ سواء منها ماجاء فى كتاب الله أو فى السنة المطهرة ــ مُلْزِمَة ؟! هل هى داخلة فى مسمى الإيمان أم زائدة عليه ؟ هل يكفى التصديق بأنها من عند الله ، أم ينبغى تنفيذها كذلك ؟!! وهل يكون الإنسان مؤمنا إذا لم يعمل بشئ منها على الإطلاق ؟!!

لم يكن أحد يصنع ذلك ، سواءكان من المؤمنين الذين شهد لهم الله ورسوله _ صلى الله عليه وسلم _ بالإيمان ، أم كانوا حتى من المنافقين ، الذين يتظاهرون بالإيمان وهم فى دخيلة أنفسهم كافرون .

فقد كان هؤلاء وهؤلاء يعلمون أن لا إله إلا الله ليست كلمة تنطق باللسان وينتهى الأمر ، وإنما هى كلمة ذات مقتضيات ، وكانوا يؤدون هذه المقتضيات بالفعل ، مع فارق أساسى بين المؤمنين والمنافقين ، أن الأولين يؤدونها إيمانا بها ، وطاعة لله الذى أمر بها وأنزلها ، وطمعا فى جنته ورضوانه ، وأما الآخرون فيؤدونها نفاقا بغير إيمان ، ويؤدونها بفتور ظاهر أو خنى ، أو يتحايلون للتفلت منها :

« إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ، ولا يذكرون الله إلا قليلا » (٦٧) .

« وإن منكم لمن ليبطئن ، فإن أصابتكم مصيبة قال : قد أنعم الله

⁽٦٧) سورة النساء [١٤٢].

على إذ لم أكن معهم شهيدا. ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن _كأن لم تكن بينكم وبينه مودة _ ياليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظما! » (٦٨).

ولم يكن أحد من أولئك المنافقين فضلا عن المؤمنين! _ يتصور أنه يستطيع أن يحصل على مظهرية الإسلام فى الحياة الدنيا بمجرد نطق لا إله إلا الله ، دون أن يعمل عملا واحدا من مقتضياتها . ولاكان هذا فى المجتمع المسلم _ ممكن الحدوث!!

إن تصور وجود فرد واحد فى المجتمع المسلم ـ أى المجتمع الذى يتحاكم إلى شريعة الله ـ يسمى «مسلما » ويحتفظ بهذا الاسم ـ سواء كان فى حقيقته مؤمنا أو منافقا ـ دون أن يعمل عملا واحدا من أعمال الإسلام . . هو تصور مستحيل !

فهناك على أقل تقدير مسألة الصلاة!

لا يستطيع فرد واحد فى المجتمع المسلم ـ أى المجتمع الذى يتحاكم إلى شريعة الله ـ أن يبقى ثلاثة أيام متوالية لا يقيم الصلاة دون أن توقع عليه عقوبة القتل! ويستوى أن يقتل حدًّا أو يقتل كفرا. فليست العبرة هنا! إنما العبرة ـ كما قال الإمام ابن تيمية بحق ـ أنه لا يمكن فى الواقع العملى أن يوجد إنسان فى قلبه ذرة واحدة من الإيمان يتعرض للقتل

⁽۲۸) سورة النساء [۲۷_۲۳].

بسبب عدم أدائه الصلاة ثم يظل مصرا على عدم الصلاة حتى يقتل بالفعل!! مستحيل!!

وهناك أيضا الإقرار الواقعى العملى بحاكمية شريعة الله ، والتحاكم إليها وحدها ، وعدم التحاكم إلى أى شريعة سواها .. وإلا ، فلو أنه خرج عليها في المجتمع المسلم أو أنكر شيئا منها ، فهل يظل « مسلما » ؟ وهل يظل حيا ؟ أم يصبح مرتدا يوقع عليه حد الردة ؟ !

وهكذا يتبين أنه من المستحيل ـ فى المجتمع المسلم ـ أن يوجد فرد واحد لا يعمل عملا واحدا من أعال الإسلام ، ثم يظل يسمى مسلما ويحتفظ بهذا الاسم ، فضلا عن أن تظل له حياة فى ذلك المجتمع !! إنما تثار مثل هذه الدعوى الفارغة فى المجتمعات الجاهلية التى تدعى الإسلام ، مستندة إلى الفكر الإرجائى ، الغريب غربة كاملة عن روح هذا الدين ..

#

ولننظر الآن فى هذه القضية الخطيرة _ قضية مقتضيات لا إله إلا الله _ من ثلاثة منطلقات مختلفة ، تؤدى كلها إلى نتيجة واحدة فى النهاية :

أولا: هل يمكن أن يؤدى هذا الدين أهدافه التي نزل من أجلها إذا كان المطلوب كله هو التصديق والإقرار، أو إذا كان التصديق والإقرار _ وحده _ يكنى لإعطاء صفة الإسلام ، لا فى الدنيا وحدها ، بل فى الآخرة كذلك ؟!

ثانيا: هل كان مايفعله رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ وصحابته الكرام فى تطبيق مقتضيات لا إله إلا الله ، تطوعا من عند أنفسهم ، غير واجب عليهم ؟!

ثالثا: هل يمكن في واقع النفس البشرية أن يؤمن إنسان بشئ ثم يكون سلوكه الواقعي كله مغايرا لمقتضيات ذلك الإيمان ، أو مناقضا له؟!

非 排 排

ونبدأ بالمنطلق الأول فنسأل أولا: لماذا يرسل الله الرسل إلى البشرية ، ولماذا ينزل معهم الرسالات ؟

ولا نجيب من عند أنفسنا في هذا الأمر الخطير ، فإنه لا ينبغي لأحد أن يجيب من عند نفسه في هذا الأمر ، لأن الله _ سبحانه وتعالى _ قد تكفل بهذا في كتابه المنزل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه :

« وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله » (٦٩) .

⁽۲۹) سورة النساء [۲۶].

« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب . إن الله قوى عزيز » (٧٠) .

وقبل أن نتحدث عن الرسالة الخاتمة _ ذات الوضع الخاص والأهداف الخاصة _ نتدبر هاتين الآيتين اللتين تتحدثان عن الرسالات عامة من لدن آدم ونوح إلى محمد _ صلى الله عليه وسلم _ .

فإحدى الآيتين تقرر أن إرسال الرسل لا يتم من عند الله لمجرد التبليغ والإعلام ، بحيث يسع أى إنسان أرسل إليه رسول أن يقول : لقد بلغنى الأمر وعلمته الأمر وعلمته وأعا ينبغى أن يقول : لقد بلغنى الأمر وعلمته وأطعته . ليكون بذلك قد استجاب للرسول المرسل إليه ، وحقق الهدف الذى من أجله أرسل .

والآية الأخرى تبين ذلك الهدف وتحدده ، وهو إقامة حياة الناس بالقسط . وهي عبارة موجزة شاملة جامعة تفصلها آيات القرآن الأخرى (والسنة المطهرة كذلك) تفصيلا دقيقا محددا غير متروك لأهواء البشر . ذلك أن تحديد القسط لو ترك لأهواء الناس لفسد كل شئ :

⁽۷۰) سورة الحديد [۲۵].

⁽٧١) العلم في اللغة يفيد اليقين ، فهو يشمل «التصديق» الذي يتكلم عنه المرجثة ويقولون إنه هو المعنيّ بالإيمان .

« ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت الساوات والأرض ومن فيهن » (٧٢).

ومقتضى الآية المشار إليها آنفا إن إرسال الرسل وإنزال الكتاب ليس لمجرد التبليغ والإعلام ، إنما لتحقيق هدف عملى واقعى في حياة الناس هو إقامة شريعة الله ومنهجه ، وإخضاع الناس لهذه الشريعة وذلك المنهج ، لأن هذا هو السبيل الوحيد الذي يؤدي إلى قيام الناس بالقسط . أي أن هناك عملا ينبغي أن يتم في واقع الأرض بعد التصديق والإقرار ، وبغيره لا يكون الهدف من إرسال الرسل وإنزال الدين قد تحقق ، إنما يظل الدين شعارات مرفوعة بغير رصيد واقعى ، أو أماني في الضائر ، يظل الدين شعارات مرفوعة بغير رصيد واقعى ، والإشارة _ في الآية _ لا تقدم ولا تؤخر ، ولا تغير شيئا في حياة الناس . والإشارة _ في الآية _ إلى الحديد والبأس ، ونصرة الله ورسله ، واضحة الدلالة في أن من بين الأعال المطلوبة الجهاد في سبيل الله لكي « يقوم الناس بالقسط » .

فإذاكان هذا المعنى متحققا فى جميع الرسالات من لدن آدم ونوح إلى محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ فالرسالة الأخيرة لها وضع خاص ، وتكاليف خاصة ، غير الرسالات السابقة جميعا ، وبالإضافة إليها جميعا .

يقول _ سبحانه وتعالى ... عن الرسالات السابقة وأهلها: « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ، ويقيموا الصلاة

⁽٧٢) سورة المؤمنون [٧١].

ويؤتوا الزكاة ، وذلك دين القيمة » (٧٣) .

فإذا كان هذا الأمر شاملا للرسالات كلها حتى رسالة محمد - صلى الله عليه وسلم ـ فإن الرسالة الأخيرة ـ الخاتمة ـ التي أرسل إليها الرسول الخاتم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لها شأن آخر غير بقية الرسالات ، وتكاليف إضافية غير بقية الرسالات .

لقدكان فى قدر الله ومشيئته ألا يرسل رسولا بعد محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ :

« ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين » (٧٤) .

« ألا إنه ليس بعدى نبي » (٥٥) .

وكان فى قدر الله ومشيئته أن يتم الدين بهذه الرسالة الخاتمة ، وأن تكون للبشرية كافة :

 $^{''}$ اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا $^{(Y7)}$.

« وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا » (٧٧) .

⁽٧٣) سورة البينة [٥]. (٧٦) سورة المائدة [٣].

⁽٧٤) سورة الأحزاب [٤]. (٧٧) سورة سبأ [٢٨].

⁽٧٥) أخرجه الشيخان.

« قل : ياأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا » (٧٨) . « . . وبعثت إلى الأمم كافة » (٧٩) .

وقد اقتضى ذلك جميعه أن تكلف الأمة الخاتمة ذاتُ الرسالةِ الخاتمة تكليفين اثنين لا تكليفا واحداكبقية الأمم المؤمنة من قبل .

فإذا كانت الأمم المؤمنة السابقة كلها قد كلفت أن تعبد الله «مخلصين له الدين حنفاء»، وتستقيم على الدين وتكاليفه في حدود ذاتها فحسب، فإن الأمة المسلمة قد كلفت هذا التكليف ذاته، ثم كلفت فوق ذلك أن تنشر هذا الدين في كل بقاع الأرض، خلفاء عن الرسول وصلى الله عليه وسلم وامتدادا له، وأن تجاهد حتى يكون الدين كله لله.

« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » (٨٠) .

« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله » (٨١) .

ومقتضى ذلك أن يكون « العمل » المطلوب من هذه الأثمنة بعد التصديق والإقرار أضخم بكثير ، وأخطر بكثير من كل عمل طلب من أمة سابقة فى التاريخ.

⁽۷۸) سورة الأعراف [۱۰۸]. (۸۰) سورة آل عمران [۱۰۶]. (۷۸) أخرجه الشيخان. (۸۱) سورة الأنفال [۳۹].

وإذا كان التصديق والإقرار وحدهما ، بغير عمل ، لا يفيان بالتكليف الربانى لأى أمة من الأمم العمابقة . لأن الله فرض على كل واحدة منها تكاليف ، وأرسل إليها رسولا ليطاع بإذن الله ، لا ليبلغ فحسب ، فهذه الأمة بصفة خاصة به لا يمكن أن ينى التصديق والإقرار بالتكليف الربانى الملقى على عاتقها ، وقد كلفت تكليفين فى آن واحد : أن تستقيم لله فى ذات نفسها ، ثم تنشر الهدى الربانى فى كل الأرض ..

وهل كان يتصور _ لو أن المطلوب كله هو التصديق والإقرار ولا زيادة _ أن تطهر الكعبة وحدها من أوثان الشرك ، ولا نقول مكة وحدها ، ولا الجزيرة العربية ، فضلا عن بقية العالم الإسلامي الذي امتد إليه النور بجهاد المجاهدين في سبيل الله.

وهل كان يتصور لو أن المطلوب كله هو التصديق والإقرار أن تقوم للإسلام دولة فى المدينة (٨٢) ، فضلا عن أن تشمل هذه الدولة الجزيرة العربية بأكملها ، فضلا عن أن تمتد ، فتشمل فى نصف قرن مابين المحيط غربا إلى الهند شرقاكها حدث بالفعل .

وهل كان يتصور لو أن المطلوب كله هو التصديق والإقرار ، أو لو أن المسلمين فهموا أن المطلوب كله هو التصديق والإقرار أن تُثبّت

⁽٨٢) لم تقم الدولة في المدينة إلا بعد الهجرة ، وهي ـكما أسلفنا القول ـ عمل قام به المسلمون بتكليف من الله ، عمل زائد على التصديق والإقرار .

دعائم الدولة فى المدينة ، واليهود يكيدون لها من داخلها ، ومشركو قريش يكيدون لها من خارجها ، فضلا عن أن تثبت دعائمها فى الجزيرة بأكملها ، فضلا عن أن تزال إحدى دولتى الشرك العظميين عن آخرها (فارس) وتزلزل الدولة الأخرى (الروم) عن عرشها وسلطانها ويتقلص ظلها فى الأرض .. وقضلا عن أن تكون هذه الدولة _ فيها بعد _ هى مركز الدنيا ومحورها ، فيها العلم ، وفيها الحضارة ، ولها القوة والتمكين فى الأرض ؟!

4/6 4/6 4/6

من هذا المنطلق الذي أسلفنا الحديث عنه ننتقل إلى المنطلق الثانى ، وقد اقتربنا منه ، فنسأل : هل كان مايفعله رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ وصحابته الكرام في تطبيق مقتضيات لا إله إلا الله ، تطوعا من عند أنفسهم ، غير واجب عليهم ؟

وهنا نقطة قد تختلط على الأذهان ، فيما بين التطوع والتكليف بالنسبة لحيل الصحابة _ رضوان الله عليهم _

وقد بينت في كتاب « واقعنا المعاصر » أن الذي تفرد به الجيل الفريد لم يكن هو قيامه بالتكاليف الربانية ، فذلك أمر مفروض على كل الأجيال ، ومطلوب من كل الأجيال ، إنما تفرد ذلك الجيل بالدرجة العالية العجيبة التي نفذ بها تلك التكاليف .

فقد فرض الله القتال. أما ذلك الذي خرج من بيته يريد القتال

ومعه تمرات يقتات بها فاستبطأ الطريق إلى الجنة ، فقال : لئن بقيت حتى أنتهى من هذه إنه لأمر يطول ! فألق التمرات من يده وألق بنفسه فى المعركة فاستشهد . فهذه درجة فذة فى تنفيذ التكليف الربانى ، تفرد بها وبأمثالها ذلك الجيل الفريد . أما القتال فى ذاته ، استجابة للتكليف الربانى ، فأمر مطلوب من الأجيال كافة ، لم يتفرد به ذلك الجيل .

وقد أمر الله أن يشترك المجتمع الإسلامي كله في الخير العام الذي يفيضه الله على ذلك المجتمع ، وجعل أداة ذلك الزكاة يدفعها الأغنياء من فائض أموالهم (أي مايزيد على النصاب) فتوزعها الدولة على المحتاجين إليها ، الذين بينتهم الآية الكريمة : «إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل » (٩٨٠) كم جعل أداتها الإنفاق في سبيل الله بغير نسب معينة كها هو الحال في أنصبة الزكاة ، وقال رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ : «في المال حق سوى الزكاة » وقال رسول الله _ صلى الله عليه سبيل الله أمرا تفرد به الجيل الأول ، لأنه تكليف لكل الأجيال . أما الذي خرج من كل ماله . وأما الذي جاءه الضيف وهو لا يملك إلا قوت عياله فقال لأهله: أطفئي السراج وآوى الأطفال إلى فراشهم ، ثم جعل يتظاهر هو وأهله أنهم يشاركون في الطعام حتى يأتنس الضيف ويأكل ، حتى أكل بمفرده الطعام الموجود كله ، فأنزل الله فيهم :

⁽۸۳) سورة التوبة [۲۰]. (۸٤) أخرجه ابن ماجه.

« ويؤثرون على أنفسهم ولوكان بهم خصاصة » (٥٠) ، فهذا وذلك تطوع نبيل لم يفرضه الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهو هو الذى تفرد به وبأمثاله الجيل الفريد .

وقد قال رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ : « الحلال بين والحرام بين ، وبينهما متشابهات . فمن اتتى الشبهات فقد استبرأ لدينه ، ومن حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه » (٢٦) فطلب من المؤمنين أن يتقوا الشبهات ليستبرئوا لدينهم ، وأن يقفوا عند حدود الحلال البين ، ويبتعدوا عما سوى ذلك . وهو تكليف لجميع المسلمين في جميع العصور . أما الذين قالوا : «كنا نترك تسعة أعشار الحلال مخافة أن نقع في الحرام » فهذا تطوع نبيل لم يفرضه الله ، وهو الذي تفرد به ذلك الحيل . . .

وهكذا نفرق تفريقا حاسما بين أمرين يختلطان أحيانا فى أذهان بعض الناس. بين ماقام به ذلك الجيل الفريد تكليفا من عند الله ، لا يختص بهم وحدهم ، إنما هو للأجيال كافة ، يأثمون إذا تركوه ، وبين ماتطوعوا به من الالتزام بالمندوبات كأنها فروض ، منطلقين فى ذلك من عمق إيمانهم ورسوخه ، وحساسية ضمائرهم المرهفة تجاه ما كلفهم به الله ..

فلننظر الآن فى التكاليف التى قاموا بها لأنها تكاليف ، لا المندوبات التى التزموا بها وفرضوها على أنفسهم كأنها فروض . .

⁽۵۰) سورة الحشر [۹]. (۸۲) متفق عليه.

هل الالتزام بما جاء فى كتاب الله وسنة رسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ والرجوع إلى الله ورسوله فى كل أمر من الأمور ، كان تطوعا من الجيل الأول لم يكلفوا به ؟

هل صدق الجهاد في سبيل الله كان تطوعاً لم يكلفوا به ؟

هل تحقيق معنى الأمة فى صورته الحقيقية ، بما يشتمل عليه من التكافل بين فئات المجتمع ، والأخوة الصادقة بين المؤمنين ، والتعاون على البر والتقوى ، وحرمة الأموال والدماء والأعراض وصيانتها .. هل كان هذا كله تطوعا لم يكلفوا به ؟

هلكان تحقيق العدل الربانى فى واقع الأرض تطوعا لم يكلفوا به ؟ هلكان التخلق بأخلاقيات لا إله إلا الله تطوعا لم يكلفوا به ؟ هلكان الوفاء بالمواثيق تطوعا لم يكلفوا به ؟ (٨٧)

وهل كان فى حسهم أنهم يقومون بهذا كله تطويمًا زائدا على أصل الإيمان ، وأن الإيمان متحقق فى نفوسهم وفى واقع -حياتهم بمجرد التصديق والإقرار وإن لم يقوموا بشئ من هذا كله على الإطلاق ؟

⁽۸۷) تلك أبرز سمات الأمة المسلمة التي تحدثنا عنها في كتاب « واقعنا المعاصر » مضافا . إليها الحركة العلمية الإسلامية والحركة الحضارية الإسلامية اللتان جاءتا ببطبيعتها متأخرتين في الزمن ، ولكن بذورهما الأولى وجدت في أطواء الانطلاقة العظمى التي حققها الجيل الأول .

أم كان يملأ نفوسهم كما تعلموا من كتاب الله ومن رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ أن القيام بهذه التكاليف هو مقتضى الإيمان بأنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . . ثم كانوا _ فى الأداء _ يرتفعون إلى تلك القمم السامقة تقربا إلى الله ؟ !

وهل يعقل أن يكون الواقع العملي للإسلام كله زيادات على الأصل ، غير داخلة في ذلك الأصل ؟ !

ماقيمة هذا الدين إذن؟ ما المهمة التي يؤديها في حياة الناس؟!

وهل ينزل الله الكتب، ويرسل الرسل، ويكلفهم بالصبر والمصابرة، والجهاد المرير، من أجل تلك الحصيلة السلبية التي تظل مستسرة في القلوب، كامنة في الضائر، لا تغيّر شيئا من واقع الناس، ولا تحق حقا ولا تزهق باطلا، ولا تقيم معروفا ولا تبطل منكرا؟!

وهل لهذا أخرجت تلك الأمة إلى الوجود؟!

«كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله » (٨٨) .

هل يعقل أن يكون الهدف الرئيسي من إخراج هذه الأمة أمرا زائدا ، بمعنى أن تحققه أو عدم تحققه لا يؤثر على الأصل ؟!

أم يقولون إن الارتباط بين لا إله إلا الله ومقتضياتها كان خاصا بجيل

⁽۸۸) سورة آل عمران [۱۱۰].

الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وأما من أتى بعدهم فلا عليهم من العمل إذا تحقق منهم التصديق والإقرار؟!

فهل لهذا القول من سند حقيقى من كتاب أو سنة أو منطق عاقل ؟!
هل هناك نص _ أو منطق _ يقول : إن جيلا معينا أو أشخاصا
بأعيانهم هم الذين ينبغى أن يتقيدوا بمقتضيات لا إله إلا الله ، أما من
عداهم فليس عليهم إلا أن يصدقوا بقلوبهم ، وينطقوا بألسنتهم أنه لا إله
إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فإذا نطقوا بها _ مصدقين بها _ فقد تم
المطلوب منهم كله ، ولم يعد لأحد أن يطالبهم بعد ذلك بشئ! فإن هم
«تفضلوا» من عند أنفسهم فعملوا بشيء من مقتضيات لا إله إلا الله
فلهم الفضل ، وإن لم يفعلوا فلا تثريب عليهم .. فقد حازوا الإيمان!!

حقيقة إن الجيل الأول قد قام بتحقيق مقتضيات لا إله إلا الله فى ذات نفسه وفى واقع حياته بصورة فذة لم تتكرر فى التاريخ ، بينا الأجيال التالية ظلت تتفلت تدريجيا من تلك المقتضيات خلال القرون الطويلة حتى كادت تنفلت منها جميعا , ولكن ذلك لم يكن بسبب أن الجيل الأول كان بذاته مكلفا تكاليف خاصة غير بقية الأجيال ، ولا بسبب أن الأجيال التالية كانت معفاة من التكاليف التى فرضت على الجيل الأول .

إنماكانت الظروف التي أحاطت بنشأة الجيل الأول هي التي جعلت منه ذلك الجيل المتفرد في التاريخ . فقد شهد الجاهلية ثم شهد الإسلام ،

فأحس بالنعمة الربانية وقدرها حق قدرها فحرص عليها. وكان الرسول معلى الله عليه وسلم ـ يعيش بين ظهرانيهم ، يتلقون منه تلقيا مباشرا ، ويتربون على عينه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيرتفعون إلى أقصى طاقة البشر في الارتفاع . بالإضافة إلى ماتصنعه النشأة الجديدة في النفوس من شحذ العزائم والطاقات إلى أقصى درجاتها ، بخلاف الأجيال التي تولد بعد تمام البناء ، كما أن الجيل الذي ينشئ البناء بيديه ، ويتعب في إقامته ، يكون حريصا عليه ألا يصيبه خدش يفسد جمال رونقه . . (٨٩)

هذه الظروف مجتمعة جعلت ذلك الجيل الفذ يصل في تظبيق مقتضيات لا إله إلا الله إلى ذلك المرتقي السامق الذي وصل إليه دون بقية الأجيال. أما التكاليف فهي التكاليف. هي هي كما احتواها كتاب الله وسنة رسوله _ صلى الله عليه وسلم _ وأما كون القيام بها هو مقتضي الإيمان بلا إله إلا الله ، فحقيقة لا علاقة لها بكون أي جيل من الأجيال هو الأول أو الأوسط أو الأخير! (١٠٠).

非 特 称

ونأتى الآن إلى المنطلق الأخير فنسأل: هل يمكن فى واقع النفس البشرية أن يؤمن إنسان بشيء، ثم يكون سلوكه الواقعي كله مغايرا

⁽٨٩) تعرضت للحديث عن هذه الظروف وأثرها فى تكوين الجيل الأول على صورته الفذة فى كتاب « واقعنا المعاصر» فصل « نظرة إلى الجيل الفريد » .

⁽٩٠) تحدثت عن هذه النقطة كذلك في الفصل المشار إليه من كتاب « واقعنا المعاصر » .

لمقتضيات ذلك الإيمان أو مناقضا له ؟!

هناك حالة واحدة يعرفها المشتغلون بعلاج الأمراض النفسية هي حالة «انفصام الشخصية » يكون للمريض فيها شخصيتان منفصلتان تماما إحداهما عن الأخرى _ كأنه لا صلة بينهما على الإطلاق _ إحداهما _ مثلا _ خيرة والأخرى شريرة ، يتنقل المريض بينهما في نوبات عصبية لا سلطان له عليها . وهي حالة مرضية تسقط التكليف عن صاحبها . ومع ذلك فإن هذه الحالة ذاتها تكتشف من التصرفات المصاحبة لها والدالة عليها ! أى من سلوك عمل يصاحب الحالة النفسية !

أما الحالة المفترضة ، وهي وجود إنسان في حالة طبيعية ـ أى في وعيه وإرادته ـ يؤمن في دخيلة نفسه بشئ ما ، ثم لايبدو في مجموع تصرفاته كلها أمر واحد يدل على وجود ذلك الإيمان المستسر في الضمير (في غير حالة القهر التي توجب التستر الكامل عن عيون الأعداء المتربصين) فهي حالة مستحيلة في واقع النفس البشرية ، لم يتحدث عن مثلها أحد في التاريخ!!

إنما الذي يمكن أن يوجد بالفعل هو وجود إيمان بشئ ما ، ووجود بعض التصرفات مخالفة لمقتضى ذلك الإيمان. هذه حالة طبيعية.. بل هي الحالة الغالبة على تصرفات البشر! ولكنها لا تقع اعتباطا بغير أسباب! وليست خالية من الدلالة كذلك.

أما أسبابها فهي الجنوح الموجود في النفس البشرية نحو التفلت من التكاليف استجابة لدوافع تعتمل في باطن النفس. إذ التكاليف-كما هو ظاهر _ قيد على الرغبات ، سواء في تحديد مقدارها أو تحديد مسارها . ومن ثم تجنح النفس إلى التفلت من تلك التكاليف حين تركن إلى الاستجابة للرغبات دون ضوابط. ولكن يبقى شئ _ملحوظ من الدراسات النفسية _ هو أن « الإيمان » _ وهو فطرة ، إذ من فطرة النفس البشرية أن تؤمن بشئ ما _ هو ذاته قيد على الرغبات ، يحدد مقدارها أو يحدد مسارها . ومن ثم لا تنطلق الرغبات مع وجود الإيمان بنفس القدر وفي نفس المساركما يحدث في حالة عدم وجود ذلك الإيمان. ويكون التصرف الواقعي للإنسان هو محصلة القوى والضوابط التي تعتمل داخل نفسه . فيكون أكثر استجابة لمقتضيات الإيمان أو أكثر تفلتا منها بحسب مقدار هذه القوى وتلك الضوابط معا في ذات الوقت. وتختلف أحوال الإنسان الفرد مابين لحظة ولحظة حسب اختلاف المقادير بين هذه وتلك ، ولكن لا تكون حصيلة الإيمان صفرا في أي حالة من الحالات ، بحيث يصبح وجوده وعدمه سيان ..

تلك طبيعة النفس البشرية .. ولذلك قال العلماء المستبصرون بنور الله إن الإيمان يزيد وينقص .. ينقص بالمعاصي ويزيدبالطاعات ..

والدين قيد لاشك فيه .. سواء على القدر المسموح به من الاستجابة للرغبات ، أو في تحديد مسارها .

يقول الله سبحانه وتعالى: «تلك حدود الله فلا تعتدوها» (٩١) «تلك حدود الله فلا تقربوها» (٩٢) فيحدد الحدود التي يستجيب فيها الإنسان لرغائبه التي تعتمل في كيانه، والتي تلخصها الآية الكريمة: «زين للناص حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والجيل المسومة والأنعام والحرث. ذلك متاع الحياة الدنيا» (٩٢).

ويقول سبحانه وتعالى : « ياأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين » (٩٤) .

ويقول: « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن". ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم .. » (٩٥) .

ويقول: « وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين.. » (٩٦) .

فيحدد مسار الرغبات كذلك.

والحلال والحرام كله هو القيود التي يضعها الدين في طريق الشهوات ليحدد مقدارها أو يحدد مسارها.

⁽٩١) سورة البقرة [٢٢٩]. (٩٤) سورة البقرة [١٦٨].

⁽٩٢) سورة البقرة [١٨٧]. (٩٥) سورة البقرة [٢٢١].

⁽۹۳) سورة آل عمران [۱٤]. (۹۳) سورة النساء [۲٤].

وفضلا عن ذلك فهناك تكاليف أخرى تضع قيودا من نوع آخر فى طريق الشهوات فتحدد مقدارها ومسارها ، كالصلاة والزكاة والصيام والحج ، وأخلاقيات لا إله إلا الله ، وعلى القمة من ذلك كله الجهاد في سبيل الله .

والشهوات _ أو « الدوافع » _ لم يضعها الله فى الكيان البشرى عبثا ، تعالى الله عن العبث . وكذلك القيود لم يضعها الله فى طريق الدوافع لغير غاية ..

فقد علم الله _ سبحانه وتعالى _ أن مهمة الخلافة فى الأرض التى خلق الإنسان من أجلها تحتاج إلى دوافع تدفع الإنسان إلى العمل والحركة والإنتاج من أجل تعمير الأرض ، وهو أحد الأهداف المطلوبة من الإنسان ، والمقدرة له فى مقامه فى الأرض :

« وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة » (٩٧) . « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » (٩٨) .

كما أنها من وسائل « المتاع » الذي قدره الله للإنسان في الأرض : « ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين » (٩٩) .

وهي في الوقت ذاته نقطة الابتلاء التي خلق الإنسان لها:

⁽٩٧) سورة البقرة [٣٠]. (٩٩) سورة البقرة [٣٦].

⁽۹۸) سورة هود [۲۱].

« إنا جعلنا ماعلى الأرض زينة لها لنبلوهم ايهم أحسن عملا » (١٠٠).

أما القيود والضوابط فقد علم الله كذلك أنها ضرورية للكيان البشرى ليقوم بمهمة الحلافة الواشدة المطلوبة منه. فالاستجابة الكاملة للدوافع ، التى تتعدى بها الحدود المأمونة مهلكة للإنسان ومفسدة له ، وصارفة له عن الرفعة التى قدرها الله للإنسان الصالح ، الذى خلقه الله في أحسن تقويم ، متميزا تميزا حاسما عن الحيوان ، والتى بها هُيِّى للمل الأمانة التى أبت أن تحملها الساوات والأرض والجبال وأشفقت من حملها لأنها لم تهيأ لها ، وحملها الإنسان ..

وتؤدى القيود مهمة مزدوجة في حياة الإنسان.

تحدد المقدار الذي يستجيب به الإنسان لدوافعه وشهواته ، فتحبس قدرا من الطاقة أن يتبدد كله في المجال الحسى . ثم تحدد مسار هذه الطاقة فترفعها عن المجال الحسى الخالص إلى مجال « القيم » ، التي ترسم الوجود الأعلى للإنسان ، وهي هي الأمانة التي تميز الإنسان عن الحيوان . .

وهكذا .. بين الدوافع والضوابط يتوازن كيان الإنسان ، ويحقق غاية وجوده وهو في أحسن تقويم (١٠١) .

⁽۱۰۰) سورة الكهف [۷].

⁽١٠١) اقرأ في هذا إن شنت « منهج التربية الإسلامية » الجزء الأول ، و « دراسات في

ولكنه لا ينضبط تماما فى كل حالة . ولا يستمر على توازنه فى كل حالة :

« ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما » (١٠٢). « كل بنى آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون » (١٠٣). وهنا تحدث المعصية . .

تحدث بأحد سببين ، أو بهما معا فى وقت واحد .. إما اشتداد ضغط الدوافع على الإنسان ، وإما ضعف الضوابط فى لحظة من اللحظات ، أو باجتاع السببين معا فى وقت واحد : شده الدافع ، وضعف الإرادة الضابطة التى تحدد المقدار والمسار .. وعلى قدر اشتراك العوامل المسبّة تكون النتيجة .. فحين يكون الدافع ضعيفا يمكن ضبطه بسهولة . أما حين يكون عنيفا فيتوقف الأمر على مدى قوة الإرادة . فإن كانت قوية فقد تكفى لرد الدافع تماما فلا تحدث المعصية ، أو تحدث خفيفة عابرة مما عبر عنه القرآن باللمم . أما حين تكون ضعيفة فإنها تنهار أمام الضغط ..

والإيمان بالله واليوم الآخر هو أقوى الأدوات المعينة للإنسان على مقاومة ضغط الشهوات . وبمقدار مايكون الإيمان قويا وراسخا تكون

النفس الإنسانية » فصل « الدوافع والضوابط » .

⁽١٠٢) سورة طه [١١٥]. (١٠٣) أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه والدارمي .

قدرة الإنسان على الانضباط فى داخل الحدود التى رسمها الله ، أى تكون الطاعة لأوامر الله ، والقيام بالتكاليف التى فرضها الله . وليس معنى هذا أن يخرج الإنسان من بشريته ويصبح ملكا لا يَعْصِى ! ولكن معناه أن الطاعة والانضباط والقيام بالتكاليف تصبح فى حياته هى الأصل ، وغيرها هو الشذوذ العابر الذى لا يتلبث عنده ولا ينغمس فيه ، فيشمله هذا الوصف الربانى :

« والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ونعم أجر العاملين » (١٠٤) .

أما حين يضعف الإيمان بالله واليوم الآخر_ وبمقدار مايضعف_ فإن العكس يصبح هو الأصل ، وتصبح الاستقامة على أمر الله هى الحالة العابرة التي ينتكس بعدها إلى المعصية والغيّ والفساد.

وفى جميع الأحوال لا تكون حصيلة الإيمان صفرا ، ولا يكون وجوده وعدمه سواء ، بحيث لا يعمل الإنسان عملا واحدا من أعمال الإسلام !!

⁽۱۰٤) سورة آل عمران [۱۳۵ – ۱۳۲].

والمعصية _ بإجماع العلماء _ لا تخرج الإنسان من الإسلام .. (١٠٠) .

إنما يخرجه من الإسلام استحلال المعصية _ ولو لم يقترفها _ والاستحلال عمل (١٠٦) يختلف اختلافا تاما عن الوقوع في المعصية .

فالوقوع فى المعصية هو لحظة الضعف التى تنتاب الكائن البشرى فينسى ، كما نسى آدم من قبل ، وتخور عزيمته ، فلا يكون الإيمان مذكورا فى حسه ، وإن يكن مازال فى قلبه ، ولعل هذا ما أشار إليه حديث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن .. » (١٠٧) ثم يفيق الإنسان من لحظة الضعف فيتذكر ، ويستغفر ، فيغفر الله له .

أما الاستحلال فهو الاستكبار عن عبادة الله والخضوع لأمره ، فكأنما يقول صاحبه بلسان الحال أو بلسان المقال : هذا مايقوله الله ، أما أنا فلى فى الأمر حكم آخر ، كما قال الشيطان وهو يعلن عصيانه لأمر الله _ عز وجل _ بالسجود لآدم : « أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » (١٠٨) أو قال : « لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال

⁽١٠٥) لم يشذ عن هذا إلا الخوارج، وهم فرقة خارجة عن الإسلام.

⁽١٠٦) هو عمل من أعمال القلب يحدث به الكفر.

⁽١٠٧) أخرجه الشيخان.

⁽۱۰۸) سورة ص [۷٦].

من حماً مسنون » (۱۰۹) وهذا الذي لا يغفره الله سبحانه لأنه شرك. « إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر مادون ذلك لمن يشاء » (۱۱۰).

ولكن ماحدود المعصية في المجتمع المسلم؟

هل يمكن أن تمتد فتشمل كل المجتمع ، ثم تمتد فتشمل كل عمل من أعمال الإسلام ؟!

ويبقى مجتمعا « مسلما » بعد ذلك ؟! بمجرد التصديق والإقرار ؟!

إننا إن أبحنا مبدأ « التصديق والإقرار » بوصفها هما « الإيمان » .. وجعلنا الإيمان متحققا بهما ولو لم يعمل الإنسان عملا واحدا من أعمال الإسلام ، بدعوى أن العمل ليس داخلا في مسمى الإيمان ، وقررنا بناء على ذلك _ أن هذا القدر يكني لإعطاء صفة الإسلام في الدنيا ودخول الجنة في الآخرة .. إذا أبحنا ذلك لفرد واحد فهل نملك أن نمنعه عن أي فرد ؟ وعن كل الأفراد إن أرادوا ؟ !

فكيف يكون الحال لو وجد عندنا مجتمع كله « مسلم » « مؤمن » على هذا النحو؟!

هل يتحقق فيه شئ مما أراده الله ببعث الرسل وإنزال الكتب؟

⁽١٠٩) سورة الحجر [٣٣].

⁽١١٠) سورة النساء [١١٦].

من باب التذكير نعود إلى الآية التي تحدد الهدف من بعث الرسل وإنزال الكتب:

« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط «(١١١).

فهل يقوم الناس بالقسط على هذا النحو؟!

ومن باب التذكير مرة أخرى نعود إلى الآية أو الآيات التى تحدد الهدف من إخراج هذه الأمة بالذات :

«كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله ؟ » (١١٢) .

« وكذلك جعلناكم أمّة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » (١١٣) .

« وجاهدوا فى الله حق جهاده ، هو اجتباكم وماجعل عليكم فى الدين من حرج ، ملة أبيكم إبراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل ، وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس ، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله ، هو مولاكم ، فنعم المولى ، ونعم النصير » (١١٤) .

⁽١١١) سورة الحديد [٢٥]. (١١٣) سورة البقرة [١٤٣].

⁽١١٢) سورة آل عمران [١١٠]. (١١٤) سورة الحج [٧٨].

فهل يتحقق شئ من هذه الأهداف على هذا النحو؟! أليس من مثل هذا الوهم _ أو هذا السلوك الخاطئ _ حذرنا الله _ جل وعلا _ بذكر حال بني إسرائيل لكي لا نقع فيه:

« فخلف من بعدهم خَلْفٌ ورثوا الكتاب ، يأخذون عرض هذا الأدنى ، ويقولون : سيغفر لنا ! وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ! ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ؟ ودرسوا مافيه ؟ والدار الآخرة خير للذين يتقون ، أفلا تعقلون ؟ ! » (١١٥).

أم إن هذا تكليف يقع على عاتق بني إسرائيل وحدهم بينها تعنى منه « الأمة المسلمة » ؟ !

لدرء هذا الوهم قال حذيفة _ رضى الله عنه _ : نعم الإخوة لكم بنو إسرائيل إن كان لكم كل حلوة ولهم كل مرة (١١٦) !!

لا جرم أن يصبح « المجتمع » الذي تنتشر فيه هذه الأفكار الفاسدة عن « الإيمان » وعن « مقتضيات لا إله إلا الله » هو الغثاء الذي أخبر عنه رسول الله _صلى الله عليه وسلم _ منذرا محذرا: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها . قالوا : أمن قلة نحن يومئذ

⁽١١٥) سورة الأعراف [١٦٩].

⁽۱۱٦) رواه الطبرى عن حذيفة من أكثر من طريق . انظر تفسير الطبرى ٢٥٣/٦ الطبعة الثالثة ١٣٨٨ هـ .

يارسول الله؟ قال: أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل»! (١١٧)

وتتداعي الأمم بالفعل على ذلك الغثاء، وهو قانع بالتصديق والإقرار، توهما منه أنه بذلك حائز على الإيمان!!

أما المجتمع المسلم - أى الذى يحكم بشريعة الله - فتحدث منه المعاصى ماقدر الله لها أن تحدث، ولكن يبقى فى جميع الأحوال عملان اثنان على أقل تقدير لا يكف عنهما أى إنسان ليظل يعامل فى المجتمع المسلم على أنه مسلم، وحسابه على الله، ولكى ينجو من العقاب الماحق فى الحياة الدنيا، هما الصلاة والتحاكم إلى شريعة الله، وهما العملان اللذان ظلا ثلاثة عشر قرنا من بديهيات عمل المسلم فى المجتمع الإسلامي (ولوكان فى دخيلة نفسه كافرا منافقا) رغم كل الانحراف الذي وقع فيه المسلمون خلال الأجيال، ورغم كل التفلت الذي تفلتوه من تكاليف الإسلام.. ولم يتخل الناس عنها جهارا نهارا إلا فى القرن الأخير..

* * *

إذا تبين أنه من المستحيل أن يتخلى الإنسان عن كل مقتضيات لا إله إلا الله ، ثم يظل مؤمنا بلا إله إلا الله .. مستحيل بالنسبة

⁽۱۱۷) سبق ذکره .

للأهداف التي من أجلها أرسل الله الرسل وأنزل معهم الكتاب، ومستحيل بالنسبة لواقع المجتمع المسلم الذي يحكم بشريعة الله، ومستحيل بالنسبة لواقع النفس البشرية، فإلى أي شي استند الذين يقولون: إن التصديق والإقرار هما كل متطلبات الإيمان، وإن الأعمال إن قام بها الإنسان بعد ذلك _ فهي رفعة في الدرجات، وإن لم يقم بها فلا بأس على إيمانه، الذي يتحقق كاملا بمجرد التصديق والإقرار؟!

لاشك أنها قولة المرجئة ومن لف لقهم .. وأبسط مراجعة لتاريخ الفرق تدلنا على المصدر الذي جاءت منه هذه القولة الغريبة على روح الإسلام . وإن كان الحق أن المرجئة القدامي .. على كل ما أحدثوه من انحراف في فهم الإسلام . لم يتطرقوا قط .. ولم يصلوا قط .. إلى إسقاط الصلاة أو التحاكم إلى شريعة الله كما أسقطها المرجئة المحدثون ، لأنه لم يكن يدور بخلد أحد خلال القرون الثلاثة عشر الأولى أن هناك إنسانا واحدا في الأرض الإسلامية يمكن أن يسمى مسلما في الحياة الدنيا ، ويظل على قيد الحياة ، وهو يهمل الصلاة ثلاثة أيام متوالية ، أو يتحاكم إلى غير شريعة الله ..

ولكن المرجئة القدامى مع ذلك هم الذين وضعوا البذور السامة التى التقطها المرجئة المحدثون، واستنبتوا منها إسلاما جديدا لم يتنزل به كتاب ولم يُرْسَلُ به رسول. إسلاما بلا تكاليف! أو قل: إسلام بلا إسلام!!

إلى أى شئ استند المرجئة _ القدامي أو المحدثون سواء _ فى أن كل المطلوب لإثبات الإيمان هو الإقرار اللسانى بالنسبة للحياة الدنيا ، والتصديق والإقرار بالنسبة للحياة الأخرى ؟!

أول ما استندوا إليه هو المدلول اللغوى للإيمان ، فقالوا : هو التصديق . ثم قالوا : إن عمل الصالحات يرد فى الآيات القرآنية معطوفا على الإيمان : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » والواو تقتضى المغايرة ، وإذن فالإيمان شئ وعمل الصالحات شئ آخر ، ليس من جنسه وليس داخلا فيه .

فأما الاستدلال بالمدلول اللغوى فهو مغالطة مكشوفة ا

فالمدلول الاصطلاحي للذي اتخذته ألفاظ معينة في القرآن كالإيمان ، والصلاة ، والزكاة يدخل في عموم المعنى اللغوى ، ولكنه يكتسب باستخدام الإسلام له معنى خاصا وصفة خاصة ، لا يصلح أن يحتج فيها بالمعنى اللغوى .

فالصلاة لغة هي الدعاء. ولكن هل يمكن أن نقول عن الصلاة – بمعناها الخاص في المصطلح الإسلامي – إنها مجرد الدعاء ، مجيث يغني الدعاء – في أية صورة – عن الصلاة بركوعها وسجودها ، وما تشتمل عليه من التلاوة ، ومالها من الضوابط من وجوب الطهارة قبلها ، ووجوب أدائها في أوقاتها .. الخ .. الخ ؟!

كذلك الإيمان. هو في اللغة التصديق. ولكنه عميناه

الاصطلاحي الإسلامي _ صورة معينة من التصديق ذات مقتضيات معينة ، من عمل قلبي كالحب والخشوع والإخبات والخضوع والإذعان ، ووجوب الرجوع إلى الله عند الحكم على أي أمر من الأمور ، أو موقف من المواقف ، أو تصرف من التصرفات ، بأنه حلال أو حرام أو مباح أو مكروه أو مندوب ، وعمل بالجوارح يشمل أداء الشعائر التعبدية ، والالتزام بأخلاقيات لا إله إلا الله في السلوك العملي ، والخضوع العملي لأحكام الشريعة فيما يشجر في حياة الناس في كل لحظة من لحظات حياتهم :

« إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون. الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » (١١٩).

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ، ويسلموا تسليما » (١٢٠) .

« ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم . فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . . » (١٢١) .

⁽١١٩) سورة الأنفال [٢-٤]. (١٢١) سورة النساء [٥٩].

⁽۱۲۰) سورة النساء [٦٥].

«قد أفلح المؤمنون. الذين هم فى صلاتهم خاشعون. والذين هم عن اللغو معرضون. والذين هم للزكاة فاعلون. والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون. والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون. أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس ، هم فيها خالدون » (١٢٢).

تلك كلها من مقتضيات « التصديق » بمعناه الاصطلاحي الخاص الذي يعبر عنه القرآن بالإيمان ، والتي لا يحتج فيها بالمدلول اللغوى ، كما لا يحتج به في معنى الصلاة ومعنى الزكاة وغيرها من المصطلحات الإسلامية ، التي حددت الاستعال اللغوى ، وألحقت به مقتضيات معينة لا يحملها المعنى اللغوى بالضرورة .

وأما الاحتجاج بورود عمل الصالحات فى التعبير القرآنى معطوفا على الإيمان ، والاستدلال من ذلك على أن العمل ليس داخلا فى مسمى الإيمان لأن « الواو » تقتضى المغايرة ، إذ أن الشئ لا يعطف على نفسه . . فهو لا يقل تهافتا ولا مغالطة عن الاحتجاج الأول!

يقول سبحانه وتعالى: «من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين » (١٢٣) ومعلوم أن جبريل

⁽١٢٢) سورة المؤمنون [١-١١]. (١٢٣) سورة البقرة [٩٨].

وميكال هما من الملائكة المذكورين من قبل ، ولم يمنع ذلك من عطف جبريل وميكال على الملائكة ، لأن عطف الجزء على الكل ، أو عطف الخاص على العام جائز ومعروف فى اللغة التى نزل بها القرآن لمعان بلاغية معروفة .

ويقول سبحانه وتعالى: «الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به »(١٢٤).

فالتسبيح المقدم في اللفظ ، هو من مقتضيات الإيمان ، أو من الأعمال المقترنة به ، ولم يمنع ذلك من عطف الإيمان عليه ، لأن عطف الكل المؤخر على الجزء المقدم جائز ومعروف في اللغة لمعان بلاغية .. ولا يقتضي شئ من ذلك المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه ، لا في المثال الأول ولا المثال الثاني ، بل هما مقترنان اقتران الاحتواء : احتواء أحدهما على الآخر ، أو اقتران العموم بالخصوص .

كما أن الاستدلال بالعطف الوارد فى الآيات القرآنية بين الإيمان وعمل الصالحات على استقلال كل منهما عن الآخر وعدم دخوله فى مسماه ولا فى معناه ساقط من جهة أخرى بالآيات التى ورد فيها ذكر الإيمان مقترنا بعمل الصالحات لا معطوفا عليه.

« ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى .

⁽١٧٤) سورة غافر [٧].

جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء سن تزكى » (١٢٥) فجملة الحال هنا «قد عمل الصالحات» لا تحتمل إلا أحد معنين: إما أن يكون عمل الصالحات هو مقتضى الإيمان ومضمونه ، بمعنى أنه من كان مؤمنا فحاله أنه يكون قد عمل الصالحات. وإما أن يكون عمل الصالحات مع الإيمان مقرنين فى الحالين يكون الإيمان وعمل الصالحات مقرنين فى المبدإ أو المصير أو فى كليها جميعا.

فإن قيل: إن عمل الصالحات شرط للوصول إلى «الدرجات العلى» وحدها لا مجرد دخول الجنة ، وإن دخول الجنة لا يشترط له إلا التصديق والإقرار فحسب ، فالآية الواردة في سورة النساء تدحض ذلك :

« ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » (١٢٦) .

فهنا تقدم ذكر العمل الصالح وجاء القيد ـ أو الشرط ـ في جملة الحال « وهو مؤمن » وكان المصير هو دخول الجنة لا درجاتها العليا !

كذلك قوله تعالى : « ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا » (١٢٧) .

⁽١٢٧) سورة الكهف [٢].

⁽١٢٥) سورة طه [٧٥_٧٦].

⁽١٢٦) سورة النساء [١٧٤].

فلا يخرج المعنى عن أن يكون أن عمل الصالحات هو شأن المؤمنين ، أو أن يكون عمل الصالحات شرطا مع الإيمان لنيل الأجر الحسن .

والآيات كلها ذات دلالة واضحة تدحض كل ماقاله المرجئة في شأن انفصال الإيمان عن العمل ، واعتبار الإيمان المقبول عند الله ، المستوجب لدخول الجنة هو التصديق والإقرار فحسب !

非 非 推

احتج المرجئة كذلك بالمعصية ..

فالمعصية في عمل الجوارح لا تخرج من الإيمان كما اتفق علماء الإسلام. فلابد إذن أن يكون الإيمان شيئا قائما بذاته ، غير مرتبط بالعمل ، وإلا لزالت صفة الإيمان عمن يرتكب المعصية ولم يعد مؤمنا ..

والاحتجاج بالمعصية على هذه الصورة فيه _ ككل حججهم _ مغالطة مكشوفة!

فالمعصية حقا لا تخرج من الإيمان. ولكنها بالتأكيد تؤثر فيه! وتأثير المعصية في حال الإنسان حقيقة لا تحتاج إلى تأكيد، لأنها ملحوظة مشهودة معهودة. ولكن يكفينا هذا التقرير من رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ أعلم الناس بحقيقة الإيمان، وحقيقة القلب

البشرى ، وحقيقة مايحدث من أثر المعصية فيه.

« إن العبد إذا آخطأ خطيئة نكتت فى قلبه نكتة ، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه ، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه ، وهو الران الذى ذكره الله تعالى : «كلا بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون . كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ، ثم إنهم لصالوا الجحيم » (١٢٨) .

والقلب هو محل الإيمان .. فكيف يستوى القلب الأسود مع القلب الأبيض في الإيمان ؟!

إنما يتأثر الإيمان بالطاعة والمعصية فيزيد وينقص ، ولا يتصور محال أن يكون حاله في الزيادة كحاله في النقصان.

ومع ذلك فينبغى ــ كما أشرنا من قبل ــ أن نضع حدودا للمعصية لا تتعداها مهما اتسع نطاقها ، وهى حدود لا نضعها من عند أنفسنا ، إنما هى مستنبطة من كتاب الله وسنة رسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ .

فالمعصية غير الاستحلال . والاستحلال يخرج من الإيمان ولو لم يقترف الإنسان العمل المنهى عنه .

والمعصية لا يدخل فيها ماينقض أصل الإيمان. والتشريع بغير ما أنزل الله (أي التحليل والتحريم من دون الله) من نواقض الإيمان.

⁽١٢٨) أخرجه مسلم ومالك في الموظأ .

والمعصية لا يمكن أن تشمل كل مقتضيات لا إله إلا الله في الآن الواحد ، أو في الشخص الواحد . ومن لم يعمل عملا واحدا من أعمال الإسلام في حياته كلها يستحيل أن يكون في قلبه ذرة من الإيمان !!

恭 恭 恭

واحتجوا بأنه لم يكن يطلب من الناس للدخول فى الإسلام إلا النطق بالشهادتين. فمن نطق بالشهادتين اعتبر لتوه مسلما ، وأجريت عليه الأحكام الظاهرة فى الحياة الدنيا ، وحسابه على الله فى الآخرة.

وتلك من أكبر مزالق الفهم فى شأن مقتضيات لا إله إلا الله ! لأنها فى ذاتها حقيقة ، ولكن دلالتها ليست على النحو الذى يذهبون إليه .. وإليك الدليل !

حقيقة إنه من كان يجىء إلى رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ يقول : أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله (أو ما فى معناها) كان يعتبر لتوه مسلما ، ويدخل فى عداد المجتمع المسلم ، ولو قالها نفاقا .

ولكن الاستدلال بهذا على أن نطق لا إله إلا الله باللسان ــ وحده ــ هو الذي أعطى صفة الإسلام في الحياة الدنيا ، وأنه لا يُطلُبُ من الإنسان غيره ليصبح مسلما في الحياة الدنيا وحسابه على الله في الآخرة هو استدلال مردود!

والذي يحسم في هذا الأمر هو الردة ..

فالمرتد الذي مايزال ينطق بلسانه: لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ولكنه أنكر الصلاة أو الصيام أو ولكنه أنكر الصلاة أو الصيام أو الزكاة أو الحج ، أو تحاكم مريدا راضيا إلى غير شريعة الله ، عقوبته في الحياة الدنيا هي القتل ، وعقوبته في الآخرة الخلود في النار (ما لم يتب) . .

فهل يتصور من عدل الله سبحانه ، أن يأمر بقتل إنسان فى الحياة الدنيا ، وأن يدخله النار خالدا فيها فى الآخرة على أمر لم يطلبه منه ولم يلزمه به ولم يُعْلِمُهُ به؟!

إذا أخذنا ظاهر الحال ـ الذى يستدل به المرجئة ومن لفّ لفّهم ـ فإنه لم يُطْلَبُ من ذلك الإنسان إلا أن يقول بلسانه لا إله إلا الله محمد رسول الله .

ولكن لا تستقيم عقوبة المرتد في الدنيا والآخرة وهو مايزال ينطق بلسانه لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ولا يستقيم تصور عدل الله _ سبحانه وتعالى _ في الدنيا والآخرة ، إلا أن يكون هذا النطق باللسان قد تضمن مقتضى معينا ، علمه الناطق ، وعلم أنه مُلزَمٌ به ، فلما نكل عنه _ مع أنه مايزال ينطق الألفاظ بلسانه _ حكم عليه بالقتل في الخياة الدنيا ، والخلود في النار في الآخرة .

هل يمكن أن يكون الأمر غير ذلك ؟

أعنى هل يمكن أن يكون كل المطلوب هو أن ينطق بلسانه أنه لا إله

إلا الله وأن محمدا رسول الله ، بغير مقتضىً متضمن فى هذا النطق ، وملزم للناطق به ، ثم يعاقب هذا العقاب الشديد ، وهو مايزال قائما بما طلّب منه ؟!

كلا! لا يستقيم الأمر إلا على أساس واحد. هو أنه حين طلب منه أن يقول بلسانه: لا إله إلا الله محمد رسول الله ، قد طلب منه ضمنا أن يلتزم بمقتضى الشهادتين ، وهو الالتزام بما جاء من عند الله ، والتحاكم إلى شريعة الله .

فإذا قال قائل: لوكان هذا الالتزام مطلوبا لاكتساب صفة الإسلام لنص عليه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ نصا ، كما نص على ضرورة النطق بلا إله إلا الله .. ولكنا لا نجد شواهد على ذلك ..

فنقول: صحيح أن رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ لم ينص على هذا الأمر. فلم يقل لمن جاءه يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله: وتتعهد أيضا أن تقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا، وتتعهد كذلك بالتحاكم إلى شريعة الله وعدم التحاكم إلى شرائع الجاهلية (وهذا كله هو المقتضى المرتبط بلا إله إلا الله).

" بل قال _ صلى الله عليه وسلم _ : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإن قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم

وأعراضهم ، إلا بحقها »(١٢٩).

نعم ، لم ينص ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلا على النطق ، ولم ينص على المقتضى المتضمن فى النطق إلا فى مرحلة التعليم . فقد قال لمعاذ ـ رضى الله عنه ـ وهو يبعثه إلى أهل اليمن :

« إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ماتدعوهم إليه عبادة الله _ عز وجل _ فإذاهم عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم ، فإذا فعلوا فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ... » (١٣٠) . .

فلما تم التعليم أصبح هذا الأمر « من المعلوم من الدين بالضرورة » كما يقول علماء هذا الدين . أى أصبح من المعلوم عند من ينطق بلا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله أنه مطلوب منه إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلا . وأصبح من المعلوم عنده أن الله قد أنزل أحكاما وفرضها على من يعتنق هذا الدين ، وأن هذه الأحكام هي التي يجرى العمل بها في المجتمع الإسلامي وماسواها باطل . وبناء على هذا العلم ، أصبح من نكل عن مقتضي لا إله إلا الله يعاقب هذا العقاب الشديد في الدنيا والآخرة . « وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته » (١٣١) .

⁽١٢٩) متفق عليه . (١٣٩) سورة الأنعام [١١٥] .

⁽١٣٠) أخرجه مسلم.

وهناك أمر آخر مستمد من واقع المجتمع الإسلامي له نفس القوة في شأن الالتزام بمقتضيات لا إله إلا الله . فقد كان للإسلام منذ وجد المجتمع الإسلامي كيان قائم بالفعل ، له صورة واقعة ، معلومة وذائعة ، لا مفترضة افتراضا ولا متخيلة خيالا . فعلوم سلفا عند كل من جاء يقول لا إله إلا الله أن « المسلم » يصلي صلوات معينة في اليوم والليلة ، ويصوم صياما معينا كل سنة ، ويؤدى زكاة أمواله ، ويحج الله حدد فيها للمسلمين الحلال والحرام . ومعلوم عنده سلفا أن المسلم ملتزم بهذا كله ، وأن هذا هو مقتضي كونه مسلما . وأنه إن نكل عن شئ من ذلك فهو مرتد يوقع عليه حد الردة . فلا يعقل أن يجيء لينطق بالشهادتين وهو يعتزم في دخيلة نفسه أن يعرض نفسه للقتل من قبل سلطان الشريعة القائم في الأرض بالفعل ! إنما المنطقي والمعقول ، أن يكون _ وقد جاء ينطق بالشهادتين _ قد اعتزم الالتزام بسلطان يعقل الشريعة القائم وعدم الحروج عليه .

ولا ينغى هذا بطبيعة الحال أن يكون جاهلا بكثير من الأحكام الفرعية . فكثير منها لا يعلمه إلا المتفقهون فى أمر الدين ولكن الذى لا يمكن أن يجهله هو مبدأ الالتزام بما جاء من عند الله ، وأن هذا الالتزام _ على الجملة _ هو مقتضى نطقه بلا إله إلا الله .

من أجل هذا كان يطلب ممن جاء يدخل في الإسلام أن ينطق بالشهادتين ، ولا يطلب منه أن يقر بالصلاة والصيام والزكاة والحج ،

ويقر بالالتزام بأحكام شرع الله ، لأن هذا كله صار « من المعلوم من الدين بالضرورة » بعد أن انتهت فترة التعليم فى مبدإ الإسلام . وأصبح الذي ينطق بلسانه « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ثم ينكل عن شئ من مقتضياتها يوقع عليه حد الردة فى الحياة الدنيا ، ويخلد فى النار فى الآخرة ، بالتزام واضح لا لبس فيه .

ولم يكن هذا الالتزام بمقتضيات لا إله إلا الله في المجتمع المسلم شأن كل المؤمن بهذا الدين وحده كها يتوهم بعض الناس ، بل هو شأن كل إنسان ينطق بلا إله إلا الله ولو كان كافرا منافقا ممن هم في الدرك الأسفل من النار! فإن المنافق ـ الذي قد يُعرف في لحن القول وقد يعرف من فتوره في أداء الصلاة أو غير ذلك من العلامات ـ لا يحتفظ بحياته في المجتمع المسلم ، ولا تجرى عليه أحكام الإسلام ، إلا بنطقه بلا إله إلا الله ، والتزامه بالتحاكم إلى شريعة الله ، والتزامه ـ على أقل تقدير ـ بإقامة الصلاة .

إنما يفترق المؤمن عن المنافق لا بالالتزام بأحكام الله وأداء الصلاة (على أقل تقدير) فهذا هو الحد الذي يستوى فيه الناس جميعا ليحصلوا على صفة الإسلام في المجتمع المسلم، وليحافظوا على هذه الصفة، وليحافظوا على أنفسهم من توقيع حد الردة عليهم. إنما الفارق أن المؤمن يصنع ذلك كله إيمانا وتصديقا وطاعة وقربي إلى الله بينا يفعل المنافق ذلك كله نفاقا، وحرصا على الحياة!

أى أن مظهرية الإسلام ذاتها فى المجتمع المسلم ـ أى الذى يتحاكم إلى شريعة الله ـ لا تنال إلا بنطق الشهادتين والالتزام بمقتضاهما ، وأداء الصلاة على أقل تقدير . وهى الأمور التى ظل الناس متعارفين عليها ، وملتزمين بها ـ مؤمنهم ومنافقهم سواء ـ طيلة ثلاثة عشر قرنا من تاريخ الإسلام !

雅 雅 報

يحتجون كذلك بحادثة أسامة بن زيد حين قتل رجلا قال لا إله إلا الله بعد أن علاه أسامة بالسيف ، وأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم _ غضب منه غضبا شديدا وعاتبه عتابا قاسيا ، وظل يكرر عليه : قتلته بعد أن قال لا إله إلا الله ؟! ولم يقبل منه اعتذاره بأن الرجل قالها متعوذا (أى من السيف) ، يعنى لم يكن مؤمنا بها . وقال له : هلا شققت عن قلبه فتعلم إن كان قالها .

والحجة في هذه الحادثة لا توصل إلى ما يستدلون به .

إن لا إله إلا الله ترفع السيف قطعا. أى تمنع قتل من نطق بها. ولكن هل تعطيه صفة الإسلام؟! هنا موضع اللبس في الاستدلال محادثة أسامة.

فحكم الله فى القضية أنه من قال لا إله إلا الله ولوكان متعوذا لا يجوز قتله . ولكن إذا لم يلتزم بأحكام الإسلام فهل يظل يعامل على أنه مسلم؟!

يعنى جاء وقت أول صلاة بعد قوله لا إله إلا الله فلم يَقُمُّ للصلاة ، وأبى ، فما حكمه ؟ حكمه أنه مرتد يوقع عليه حد الردة !

فنطق لا إله إلا الله قد رفع عنه السيف ، نعم ، ولكنه وضعه موضع المراقبة للتبين . فإن تبين أنه التزم بمقتضيات لا إله إلا الله _ ولو كان منافقا _ فهو مسلم فى الحياة الدنيا وحسابه على الله فى الآخرة ، وإلا احتسبت عليه قولته ، ووقع عليه حد الردة لنكوله عن مقتضيات لا إله إلا الله التى نطقها بلسانه !

وفى جميع الأحوال يكون ثبات صفة الإسلام لأى إنسان فى الحياة الدنيا موكولا بالالتزام بمقتضيات لا إله إلا الله بعد نطقه بالشهادتين ، سواء كان مؤمنا حقا أم كان من المنافقين .

ثم تحدث المعاصى فى المجتمع المسلم ، وتمتد وتمتد ، ولكنها تقف عن نقطتين أساسيتين لا تتعداهما بحال : التحاكم إلى شريعة الله ، وإقامة الصلاة .

* * *

ويحتجون بحادثة الجارية التي سألها رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ : أين الله ؟ فأشارت إلى السماء ، فسألها : من أنا ؟ قالت رسول الله . فقال لسيدها : «أعتقها فإنها مؤمنة» . ويقولون : لوكان المطلوب لإثبات الإيمان شيئا آخر وراء النطق بالشهادتين ما أعطى

رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ صفة الإيمان بمجرد النطق (أو مايدل عليه).

وتلك من أكبر القضايا التي أثارها المرجئة ـ قدماؤهم ومحدثوهم ـ ليثبتوا أن كل المطلوب في الحياة الدنيا هو النطق بالشهادتين ، وكل المطلوب للآخرة هو الإقرار والتصديق.

ومن قديم رد العلماء عليهم استدلالهم ورفضوه ..

وسواء أخذنا بقول الإمام الشاطبي _رحمه الله_ أن قضايا الأعيان لا تنقض النص ، لأن النص أقوى دلالة منها وأوثق ، أى أنها صحيحة في ذاتها ولكن لا يقاس عليها (١٣٢) ...

⁽۱۳۲) يقول الإمام الشاطبي : (الموافقات جـ ٣ ص ١٦٥ ـ ١٦٦ ، مطبعة محمد على صبيح ، القاهرة)

إذا ثبتت قاعدة عامة أو مطلقة فلا تؤثر فيها معارضة قضايا الأعيان ولا حكايات الأحوال. والدليل على ذلك أمور:

احدها: أن القاعدة مقطوع بها بالفرض ، لأنا إنما نتكلم فى الأصول الكلية القطعية ، وقضايا الأعيان مظنونة أو متوهمة ، والمظنون لا يقف للقطعي ولا يعارضه.

والثانى : أن القاعدة غير محتملة (أى لا تحتمل وجها آخر) لاستنادها إلى الأدلة القطعية ، وقضايا الأعيان محتملة ، لإمكان أن تكون على غير ظاهرها ، أو على ظاهرها وهي مقتطعة مستثناة من ذلك الأصل ، فلا يمكن والحالة هذه إبطال كلية القاعدة بما هذا شأنه .

والثالث: أن قضايا الأعيان جزئية ، والقواعد المطردة كليات ، ولا تنهض الجزئيات أن تنقض الكليات ...

أو أخذنا بقول الإمام ابن تيمية _رحمه الله_ أن نطق الشهادتين كاف لإجراء الأحكام في الحياة الدنيا_ والعتق من بينها_ ولكنه ليس دليلا على الإيمان (١٣٣)..

سواء أخذنا بهذا القول أو ذاك، فالقضية الأصلية ما تزال

⁽١٣٣) يقول الإمام ابن تيمية : (الفتاوى - كتاب الإيمان - الجزء السابع) مقتطفات من ص ٢٠٩ ــ ص ٢١٥ ، طبع مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٣٩٨ هـ قلت : وأما احتجاجهم بقوله للأمة: «أعتقها فإنها مؤمنة» فهو من حججهم المشهورة . وبه احتج ابن كلاّب ، وكان يقول : الإيمان هو التصديق والقول جميعا ، فكان قوله أقرب من قول جهم وأتباعه . وهذا لا حجة فيه ، لأن الإيمان الظاهر الذي تجرى عليه الأحكام في الدنيا لا يستلزم الإيمان في الباطن الذي يكون صاحبه من أهل السعادة في الآخرين. فإن المنافقين الذين قالوا: (آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين) هم في الظاهر مؤمنون يصلون مع الناس ويصومون ويحجون ويغزون ، والمسلمون يناكحونهم ويوارثونهم كماكان المنافقون على عهد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ـ ... والله تعالى لما أمر فى الكفارة بعتق رقبة مؤمنة ، لم يكن على الناس ألا يعتقوا إلا من يعلموا أن الإيمان في قلبه ، فإن هذا كما لو قيل لهم : اقتلوا إلا من علمتم أن الإيمان في قلبه . وهم لم يؤمروا أن ينقبوا عن قلوب الناس ولا يشقوا بطونهم ، فإذا رأوا رجلا يظهر الإيمان جاز لهم عتقه . وصاحب الجارية لما سأل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ هل هي مؤمنة؟ إنما أراد الإيمان الظاهر الذي يفرق به بين المسلم والكافر. وكذلك من عليه نذر لم يلزمه أن يعتق إلا من علم أن الإيمان في قلبه ، فإنه لا يعلم ذلك مطلقاً ، بل ولا أحد من الحلق يعلم ذلك مطلقاً ... والمقصود أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم .. إنما أخبر عن تلك الأمة بالإيمان الظاهر الذي علقت به الأحكام الظاهرة ...

واحدة. فالذى ينطق بلا إله إلا الله يفترض فيه أنه ملتزم بمقتضيات لا إله إلا الله ، ولا يفترض فيه ابتداء غير ذلك ، لأن هذا الالتزام هو من الدين بالضرورة ، وبهذا الالتزام المفترض يأخذ صفة الإسلام ، أى بالمقتضى المتضمن في النطق لا بالنطق وحده . فإن نكل عن المقتضى وإن كان مايزال مستمرا في النطق فهو مرتد عن الإسلام ، لا ينجيه من توقيع حد الردة عليه في المجتمع المسلم أن يقول : لم أكن أعلم ! ولم يحدث مرة واحدة في تاريخ الإسلام خلال الثلاثة عشر قرنا التي كانت تطبق فيها شريعة الإسلام أن أحدا من الناس قال : لم أكن أعلم أن للإسلام مقتضيات !! وإن جهل أحكام الفروع كلها واحتاج إلى السؤال عنها ليتعلمها !!

非 非 非

ويحتجون أخيرا بأن رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ قال : « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » وقال _ عليه الصلاة والسلام _ : «من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة » أو مافى هذه المعانى . وليس من الضرورى أن نقول فى شأن هذه الأحاديث إنها قيلت فى مكة قبل نزول التكاليف وإنها نسخت فى المدينة بعد نزولها كما يقول بعض العلماء .

يقول الحافظ المنذرى: « ذهبت طوائف من أساطين أهل العلم إلى أن مثل هذه الإطلاقات التي وردت فيمن قال لا إله إلا الله دخل الجنة

أو حرّم على النار أو نحو ذلك كان فى ابتداء الإسلام حين كانت الدعوة إلى مجرد الإقرار بالتوحيد ، فلما فرضت الفرائض وحدّت الحدود نسخ ذلك ، والدلائل على هذا كثيرة متظاهرة ، وإلى هذا القول ذهب الضحاك والزهرى وسفيان الثورى وغيرهم . وقالت طائفة أخرى : لا احتياج إلى ادعاء النسخ فى ذلك ، فإن كل ماهو من أركان الدين وفرائض الإسلام هو من لوازم الإقرار بالشهادتين وتتاته . فإذا أقر ثم امتنع عن شئ من الفرائض جحدا أو تهاونا على تفصيل الخلاف فيه ، حكمنا عليه بالكفر وعدم دخول الجنة » (١٣٤) .

ويقول ابن القيم: «وليس التوحيد مجرد إقرار العبد بأنه لا خالق إلا الله وأن الله رب كل شئ ومليكه كإن كان عباد الأصنام يقرون بذلك وهم مشركون. بل التوحيد يتضمن من محبة الله والخضوع له والذلة له وكال الانقياد لطاعته وإخلاص العبادة له وإرادة وجهه الأعلى بجميع الأقوال والأعمال والمنع والعطاء والحب والبغض مايحول بين صاحبه وبين الأسباب الداعية إلى المعاصى والإصرار عليها. ومن عرف هذا عرف قول النبي – صلى الله عليه وسلم –: «إن الله حرّم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله» وقوله: «لايدخل النار من قال لا إله إلا الله ي وما جاء من هذا الضرب من الأحاديث التي أشكلت على كثير من الناس حتى ظنها بعضهم منسوخة ، وظنها بعضهم قيلت قبل ورود الأوامر والنواهي واستقرار الشرع ، وحملها بعضهم قيلت قبل ورود الأوامر والنواهي واستقرار الشرع ، وحملها

⁽١٣٤) الترغيب والترهيب ٣/٠/٣ تعقيق محمد محيى الدين عبد الحميد.

بعضهم على نار المشركين والكفار ، وأوّل بعضهم الدخول بالخلود فقال : المعنى لا يدخلها خالدا ، ونحو ذلك من التأويلات المستكرهة . والشارع ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لم يجعل ذلك حاصلا لمجرد قول اللسان فقط ، فإن هذا خلاف المعلوم من دين الإسلام . فإن المنافقين يقولونها بالسنتهم وهم تحت الجاحدين لها ، في الدرك الأسفل من النار .. فلابد من قول القلب وقول اللسان . وقول القلب يتضمن من معرفتها والتصديق بها ومعرفة حقيقة ماتضمنته من النفي والإثبات ، ومعرفة حقيقة الإلهية المنفية عن غير الله ، المختصة به ، التي يستحيل ثبوتها لغيره ، وقيام هذا المعنى بالقلب علما ومعرفة ويقينا وحالا مايوجب تحريم قائلها على النار ... وتأمل قيام ماقام في قلب قاتل المائة من حقائق الإيجان التي لم تشغله عند السياق عن السير إلى القرية وحملته وهو في تلك الحال على أن جعل ينتقل بصدره ويعالج سكرات الموت ، فهذا أمر آخر وإيجان آخر ، ولا جرم أنه ألحق بالقرية الصالحة وجعل بين أهلها ... » (١٣٥)

ونقول بعد ذلك : إنه لا حرج على فضل الله . فإن شاء ـ سبحانه وتعالى ـ أن يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفى قلبه مثقال ذرة من خير . أو إن أخرج ـ بفضله ـ من النار قوما لم يفعلوا خيرا قط . . فهذا شأنه سبحانه ، وهذا فضله ، وتلك رحمته . .

⁽١٣٥) مدارج السالكين ج ١ ص ٣٣٠ ـ ٣٣٢ طبعة دار الكتاب العربي ١٣٩٢ هـ.

ولكن يبقى بعد ذلك أمر ينبغى النظر فيه ..

فهذا المصير الذي يصير إليه فئة من الناس بعد أن يذوقوا العذاب على معاصيهم وآثامهم ، وبعد أن يقضى الله في حق العباد ، فيدخل الجنة بفضله من يستحقها من العاملين بمقتضيات لا إله إلا الله ، وبعد أن يشفع الرسول صلى الله عليه وسلم لل يشفع من عباد الله .. هذا المصير الذي يصير إليه هؤلاء ، فينجون بفضل الله ورحمته من الخلود في النار بعد أن يمكثوا فيها ماشاء الله لهم أن يمكثوا .. هل ينبغي أن يكون هو غاية السعى التي يسعى الإنسان إليها ، ويحدد جهده من أول لحظة على مقاسه ؟!

نضرب مثلا للتقريب .. ولله المثل الأعلى .

تشكل لجان فى الاختبارات تسمى « لجان الرأفة » تنظر فى شأن الراسبين فى الاختبار ، فتحاول أن تستنقذ من الرسوب من تجد مسوغا لاستنقاذه . ثم تظل تراجع وتراجع حتى تنتهى فى النهاية إلى التعطف على من تجد أدنى مبرر لإخراجه من قائمة الرسوب .

فلو أن الطلاب قالوا لأنفسهم من مبدا الطريق: هناك لجان الرأفة ستراف بحالنا وتمنحنا النجاح على أدنى جهد نقوم به ، بل إنها قد تمنحه لقوم لم يبذلوا جهدا على الإطلاق.. فهل يكون لعملية التعليم كلها قيمة ؟ وهل تؤدى أى هدف من أهدافها ؟ وهل يكون للاختبار ذاته أى مهمة يؤديها ؟!

إنما تبقى هذه اللجان تقوم بعملها ، فتستنقذ فريقا من الضعفاء حقا ، الذين حاولوا ـ بصدق ـ ولكن لم يحصلوا ، فتكافئهم على صدق النية وصدق المحاولة رغم ضعف الحصيلة . ولكنها حين تجد الأقوياء القادرين ـ الذين تعرف منهم قوتهم وقدرتهم ـ قد تواكلوا ، وبددوا فى اللهو والعبث طاقتهم التى كان يمكن أن يصرفوها فى التحصيل والدرس ، استهانة منهم بالتبعة ، واستخفافا بالاختبار ، واعتادا على أن لجان الرأفة ستنجمهم مها تكن نتيجة عملهم .. فهل تقوم لجان الرأفة عندئذ بإنقاذهم ؟!

مرة أخرى نقول: لاحرج على فضل الله .. وسعت رحمته كل شيء سبحانه .. ندعوه أن يغفر لنا ذنوبنا ويكفر عنا سيئاتنا ، ويرحم ضعفنا ، ويقيل عثرتنا ، ويسدد خطانا .

ولكنا نحسب أن حديث الرسول _ صلى الله عليه وسلم _ قد قصد به ألا يبأس أحد من رحمة الله ، ولم يقصد به أن يفصّل منه المرجئة إسلاما بلا تكاليف ، ثم يزعموا أن هذا ما أراده الله بهذا الدين ! ودليلنا أن رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ لما سأله معاذ _ رضى الله عنه _ : يارسول الله أفلا أبشر الناس ؟ قال : « لا تبشرهم فيتكلوا » (١٣٦) .

ثم إنه إن سامح الله أولئك المذنبين في الآخرة بعد أن يذوقوا

⁽۱۳۳) رواه الشيخان.

العذاب على مااقترفوا من الذنوب، فلم يخلدهم فى النار، إنما شملهم برحمته الواسعة فأنقذهم من الخلود فيها وآدخلهم الجنة .. فهل يصلح أمر هذا الدين فى الحياة الدنيا حين يصبح أهله كلهم أو غالبيتهم من الساقطين الذين يتهافتون فى النار ، حتى تنقذهم رحمة ربهم من الخلود فيها ؟!

إن الواقع الذي نعيشه اليوم خير شاهد في هذه القضية . فالذل والهوان والضعف ، وغلبة الأعداء الذين لا يرقبون في المسلمين إلا ولا ذمة ، وعدوانهم المستمر على كراماتهم ودمائهم وأعراضهم وأموالهم ، هو الحال حين يكون الناس غثاء كغثاء السيل .. وهم لا يكونون كذلك إلا حين يكون إسلامهم هو إسلام التصديق والإقرار ، بلا عمل يعمل من مقتضيات التصديق والإقرار .. فهل يقبل الله من عباده أن يضيعوا دينه ، وينكلوا عن المهمة التي أخرجهم من أجلها ، ثم يكون هذا هو الأصل الذي يفصل الدين كله على مقاسه ؟!

إن المجتمع القوى الإيمان ، الراسخ القدم في العمل بمقتضيات لا الله إلا الله ، يستطيع أن يحمل في تياره ضعاف الإيمان ، والكسالى والمتباطئين والمتثاقلين ، ويمضى في طريقه يحقق أهدافه . ولكن حين يصبح كله _ أو حتى غالبيته _ من ضعاف الإيمان والكسالى والمتباطئين والمتثاقلين ، فهل يقدر على شئ ، وهل يصل إلى شئ ؟!

تستطيع الشجرة القوية أن تحمل بعض الأوراق الذابلة المصفرة ، بل بعض الأغصان المتهاوية كذلك ، ثم تؤتى ثمارها لا تضيرها تلك الوريقات ولا الأغصان . ولكن حين تطالب كل ورقة في الشجرة بحقها في أن تكون ذابلة مصفرة ، وأن يحتسب لها مع ذلك حقها في الوجود على هذه الصورة مادامت لم تسقط من الشجرة بعد ، فهل لهذه الشجرة من مصير إلا الفناء والموت ؟!

فإذا كان الله ـ من رحمته بعباده ـ يتقبل أولئك الضعفاء ، بعد أن يطهرهم من أرجاسهم بالمكوث فى نار جهنم ماشاء الله أن يمكثوا ، فهل يجوز لنا أن نقول : إن هذا هو المطلوب من المؤمنين ولا زيادة ، ومن قال إنهم مكلفون بأكثر من ذلك فهو متزيد على دين الله ؟ !

مرة ثالثة نقول: لاحرج على فضل الله، يدخل فى رحمته من يشاء. ولكن الله هو الذى أنزل هذه التكاليف وفرضها على المؤمنين. وهو الذى قال: إن دخول الجنة لا يكون بالتمنى مع القعود:

« ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب. من يعمل سوء ا يُجْزَ به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا. ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » (۱۳۷).

⁽١٣٧) سورة النساء [١٢٣ ــ ١٢٤].

ثم يتفضل الله من بعد ذلك على من يشاء من عباده بغير حدود!

华 华 华

على أن أهم مايهمنا فى شأن هذه الأحاديث هو ماوصّلها إليه المرجئة المحدثون!

لقد كان المرجئة القدامي على كلِّ ماحرفوا في مفهوم لا إله إلا الله ، قد وقفوا حكما أسلفنا حند نقطتين اثنتين ، لا يتجاوزونهما في كل مايخرجونه من « العمل » من مقتضى الإيمان : الصلاة والتحاكم إلى شريعة الله ، وإن كانوا خطريا يقولون : إن العمل كله خارج من مقتضى الإيمان ، إلا أنهم حين يتكلمون في الفقه وكثير منهم كانوا فقهاء يعرفون جيدا أن هناك أعمالا لابد أن يحافظ عليها الإنسان لكي تظل له صفة الإسلام في المجتمع المسلم ، أهمها الصلاة والتحاكم إلى شريعة الله .

أما المرجثة المحدثون فلم يقفوا عند حد..

لقد ولدوا في مجتمع لا يحكم بشريعة الله .. وفي مجتمع لا تؤدى فيه الصلاة (ولا غيرها من العبادات)، ثم تناولوا الجرعة المسمومة من الفكر الإرجائي، فهدوا فكرهم حتى شملوا به كل شيء من مقتضيات لا إله إلا الله ، فقالوا : من قال لا إله إلا الله فهو مؤمن ولو لم يعمل عملا واحدا من أعال الإسلام .. فتجاوزوا الحاجزين الأخيرين اللذين كان المرجئون القدامي قد وقفوا عندهما : حاجز

الصلاة وحاجز الشريعة . . فوصفوا المجتمعات التي لا تحكم بما أنزل الله بأنها مجتمعات إسلامية ، ووصفوا الناس _ كل الناس _ بأنهم مسلمون ، ماداموا يقولون بأفواههم لا إله إلا الله محمد رسول الله ! ونحب أولا أن نرجع إلى الحديث الذي يستندون إليه : « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » .

أسلفنا القول أننا لا نحتاج أن نقول إنه نسخ بنزول التكاليف فى المدينة ولكنا نقول فقط إنه خصص بأحاديث أخرى من قول الرسول _ صلى الله عليه وسلم _ فاشترط فيه البراءة من الشرك .

يقول _ عليه الصلاة والسلام _ : « مامن عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة » (١٣٨) .

وقال _ عليه الصلاة والسلام _ : « من مات لايشرك بالله شيئا دخل الجنة » (١٣٩) .

وبالمقابلة والجمع بين الحديثين يتحدد لنا فى شأن لا إله إلا الله أن البراءة من الشرك هى شرط قبولها عند الله فى الآخرة . وقد حدد الله ذلك تحديدا قاطعا فى كتابه المنزل :

« إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر مادون ذلك لمن يشاء » (١٤٠٠) .

⁽۱۳۸) أخرجه مسلم. (۱۲۰) سورة النساء [۱۱٦]. (۱۳۹) أخرجه مسلم.

والشرك أنواع .. يتحدث الخطباء والوعاظ عن بعضها ـ الذى لا يغضب ذوى السلطان ـ ويهملون الحديث عن بعضها الآخر!

فالتوجه لغير الله بشئ من ألوان العبادة كالدعاء أو الاستعانة أو الاستغانة أو الاستغاثة أو النذر أو الذبح . . شرك لا شك فيه . وما أكثر ما يتكلم الخطباء في هذا اللون من الشرك!

والظن بأن مع الله من يرزق أو يضر أو ينفع .. شرك لا شك فيه .. وما أكثر ما يتكلم فيه الخطباء!

والتشريع (أى التحليل والتحريم) بغير ما أنزل الله ، والرضى بذلك التشريع ، شرك لاشك فيه . ولكن الناس فى قرنهم الأخير هذا قد جَهِلُوا _ أو جُهُلُوا _ هذه الحقيقة الخطيرة ، فلم يعودوا يفرقون بين المعصية والشرك ، وصاروا ينظرون إلى هذا اللون من الشرك على أنه معصية مغفورة . إن لم ينظروا إليه على أنه «ضرورة» مباحة لا إثم فيها . بل إن لم يكن فى حسهم _ من وراء ذلك _ أنها تقدم وتحضر وانعتاق من الأغلال!

116 316 316

كيف حدث ذلك ؟!

لقد جاء الغزو الصليبي بادئ ذي بدء فنحّى الشريعة الإسلامية من كل بلد دنستها قدماه . ثم قيل للناس : لا بأس عليكم ! ما دمتم

تصلون وتصومون فأنتم مسلمون وإن لم تتحاكموا إلى شريعة الله! ثم سلط الغزو الصليبي (واليهودى فى أطوائه) على الناس ما يصرفهم حتى عن الصلاة والصوم. ثم قيل للناس: لا بأس عليكم! مادمتم تقولون لا إله إلا الله فأنتم مسلمون!

وهكذا بقى الإسلام معلقا بذلك الخيط الرفيع ، وهو نطق لا إله إلا الله باللسان ، بغير مقتضى فى حياة الناس على الإطلاق . ثم جاء المرجئة المحدثون بما تناولوا من سموم الفكر الإرجائى فقالوا : لا بأس على الناس ! فالإيمان هو التصديق والإقرار . ومن قال لا إله إلا الله فهو مؤمن ، ولو لم يعمل عملا واحدا من أعمال الإسلام !

* * *

وما بنا أن نكرركل ما قلناه من قبل . .

ولكنا نحتاج أن نتذكر قضية ذات أهمية بالغة .. إن لا إله إلا الله تظل مقبولة عند الله طالما هي بريئة من الشرك بصرف النظر مؤقتا عن قضية «العمل» وما دار حولها من ضلالات المرجئة القدامي فإن أصابها الشرك فقد نُقِضَتْ نقضا ، ولم تعد مقبولة أي قبول عند الله ..

ومن مصائبنا التى ابتلينا بها فى قرننا الأخير هذا أننا نحدّث الناس عن نواقص الوضوء وندرسها للطلاب فى معاهدنا الدينية مثات المرات وفى مئات الصفحات . ولا نحدثهم عن نواقض لا إله إلا الله ! فإن

حدثناهم فعن شرك الاعتقاد وشرك العبادة وحدهما دون شرك الاتباع ، على أساس خاطئ من أساسه ، هو أن شرك الاتباع هو من «كفر العمل » الذي لا يخرج من الملة !!

دخل عدى بن حاتم على رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ وهو يتلو «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون » (١٤١) فقال عدى : يا رسول الله ما عبدوهم ! فقال رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ : ألم يحلوا لهم الحرام ويحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم ؟ قال : بلى ! قال : فذلك عبادتهم إياهم (١٤٢) !

هكذا يقول الله سبحانه وتعالى ، وهكذا يقول رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم هم يقولون هذا من كفر العمل ، وكفر العمل لا يخرج من الملة!!

非 非 柒

مرّ بنا القول أن قضية التشريع هي من قضايا العقيدة الرئيسية ، وأن السور المكية تحدثت عنها حتى قبل نزول الأحكام التفصيلية التي تحكم حياة المجتمع الإسلامي . فقال تعالى للناس في مكة يدعوهم للإسلام :

⁽١٤١) سورة التوبة [٣١]. (١٤٢) أخرجه الترمذي.

«اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء» (١٤٣) «أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله» (١٤٤) «وما اختلفتم فيه من شئ فحكمه إلى الله» (١٤٥) وقال للمؤمنين في مكة :

«ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ، وإنه لفسق ، وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ، وإن أطعتموهم إنكم لمشركون » (١٤٦)

ثم لما نزلت الأحكام التفصيلية في المدينة ، وصار للإسلام صورة تطبيقية عملية ، ملتزمة بأحكام الله بالإضافة إلى العبادات ، الحلال فيها هو ما أحل الله ، والحرام هو ما حرم الله ، نشأت قضية جديدة في المدينة هي قضية المنافقين الذين يتظاهرون بقبول الإسلام ولكن نفوسهم غير مذعنة لأحكام الله ، يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت (وكل حكم غير حكم الله طاغوت) ويريدون أن يكون الحلال والحرام حسب أهوائهم أو أعرافهم لاحسب ما أنزل الله .

وهنا نزل حكم الله فيهم حاسما قاطعا:

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا

⁽۱٤٥) سورة الشورى [۱۰].

⁽١٤٦) سورة الأنعام [١٢١].

⁽١٤٣) سورة الأعراف [٣].

⁽۱٤٤) سورة الشورى [۲۱].

في أنفسهم حرجا مما قضيت ، ويسلموا تسلما» (١٤٧).

«ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ، ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ، وما أولئك بالمؤمنين . وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون» (١٤٨) .

فتبين من ذلك أن محك صدق الإيمان _ بعد اكتمال الدين _ أصبح هو التحاكم إلى شريعة الله بعد سلامة الاعتقاد وأداء العبادات . وأن سلامة الاعتقاد وحدها لم تعد تكنى . ولم يعد يكنى كذلك سلامة الاعتقاد وأداء العبادات ، لأن لا إله إلا الله صارت ذات مقتضيات أكثر مماكان لها من المقتضيات في مكة . والإيمان بلا إله إلا الله يقتضى الالتزام بكل مالها من المقتضيات (مع وقوع المعصية التي لا تنقض أصل الالتزام) . فحين كان كل مقتضي لا إله إلا الله في مبدإ الدعوة في مكة هو الإيمان بوحدانية الله _ سبحانه وتعالى _ والإيمان بأنه أرسل رسوله _ صلى الله عليه وسلم _ ليبلغ عنه ، كان الإيمان بذلك هو كل مالمالوب من أي إنسان يدخل في دين الله . ولما فرضت بعض العبادات صلى الله عليه وسلم _ في المينان بوحدانية الله وإرساله لرسوله _ صلى الله عليه وسلم _ وأداء تلك العبادات ، فلما تمت العبادات في المدينة وانزلت الأحكام صار المقتضي المطلوب هو الإيمان بالله ورسوله (وما وأنزلت الأحكام صار المقتضي المطلوب هو الإيمان بالله ورسوله (وما حول ذلك من تفاصيل حددها الوحي) والقيام بالعبادات المفروضة ،

⁽١٤٧) سورة النساء [٦٥]. (١٤٨) سورة النور [٧٧ ـ ٤٨].

والالتزام بشرع الله . ولم تعد واحدة من هؤلاء تغنى عن أختها أو تجزئ عنها.

ولكن المنافقين لم يكونوا يجادلون في قضية التوحيد ، ولم يكونوا يجادلون كذلك في أمر العبادات (وإن أدوها في فتور وكسل) ولكنهم كانوا يَزْوَرُّون ويعرضون عن الأحكام التي تضبط تصرفات المؤمن في حياته الدنيا ، فيميلون عنها إلى حكم الطاغوت (وهوكل حكم غير حكم الله كما أسلفنا). لذلك ركزت الآيات القرآنية في المدينة _ بمناسبة الحديث عن المنافقين _ على قضية الحكم بما أنزل الله ، لأنها هي القضية التي كانت مثارة يومئذ (١٤٩) ، ونزل قول الله الحاسم :

«ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» (١٥٠٠) « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » (١٥١) «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون» (١٥٢)

«أفحكم الجاهلية يبغون؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » (۱۵۲)

⁽١٤٩) وهي المثارة اليوم كذلك ! (١٥٢) سورة المائدة [٤٧]. (١٥٣) سورة الماثدة [٥٠].

⁽١٥٠) سورة المائدة [١٤٠].

⁽١٥١) سورة المائدة [٥٤٦.

من أعجب العجب أن يقول لك قائل : إن الله قد أنزل فيهم هذا الحكم لأنهم كانوا منافقين ! فقال عنهم : إنهم لا يؤمنون حتى يحتكموا إلى شريعة الله !! أما لوكانوا مؤمنين فلم يكن الله ليشترط عليهم هذا الشرط !!!

عجباً! وكيف أصبح المؤمنون مؤمنين؟!

ولماذا صار المنافقون منافقين؟!

هل كان المؤمنون مؤمنين إلا بأنهم تحاكموا إلى شريعة الله مع سلامة الاعتقاد وأداء العبادات ؟!

وهل كان في وسعهم أن يكونوا مؤمنين بغير ذلك؟!

«إنماكان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا . وأولئك هم المفلحون (١٥٤)

« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » (١٥٥)

إنما أصبح المؤمنون مؤمنين لأنهم التزموا ... منذ قالوا لا إله إلا الله محمد رسول الله .. أن يقروا ويذعنوا لما جاء من عند الله . فلما دعاهم أن يحتكموا إلى شريعته قالوا : سمعنا وأطعنا ، فاستمرت لهم صفة الإيمان لأنهم ظلوا عاملين بمقتضى لا إله إلا الله .

⁽١٥٤) سورة التور [٥١]. (١٥٤) سورة الأحزاب [٣٦].

ولم يكن وجوب التحاكم إلى شريعة الله مفروضا على المنافقين وحدهم لأنهم منافقون!! بل هو مفروض على كل من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله. فإن التزم بذلك مع التسليم النفسى والرضى فأولئك هم المؤمنون. أما إن أذعن إذعانا ظاهرا وهو فى دخيلة نفسه غير راض ولا مُسَلّم فأولئك هم الذين قال الله عنهم إنهم منافقون وهم مع ذلك لم يكونوا ممتنعين امتناعا ظاهرا لأنهم حينئذ يصبحون مرتدين لا منافقين، ويكون جزاؤهم فى المجتمع المسلم هو القتل).

张 张 张

وخلاصة الأمرأن قضية التشريع ترتبط ارتباطا مباشرا وثيقا بلا إله إلا الله . وأن هذا الارتباط لا يمكن أن ينفصم فى أى حال من الأحوال .

إنما قال الفقهاء فى قوله تعالى: «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» إنه لا يكفر إلا إذا كان مستحلا وإنه إن لم يكن مستحلا فهو كفر دون كفر.. كفر لا يخرج من الملة.

فالقاضى الذى يحكم بغير ما أنزل الله فى القضية المعروضة عليه لأنه ارتشى من أحد الخصمين لا يكفر بذلك وإن كان آثما يتعرض لسخط الله وغضبه.

والمتأول الذي اجتهد فأخطأ فحكم في الأمر المعروض عليه بغير

ما أنزل الله لا إثم عليه ، بل له أجر اجتهاده مادام قد أخلص النية فيه .

إلى آخر تلك الحالات التي عددها الفقهاء..

نعم.. ولكن ذلك كله لا ينصرف إلى التشريع بغير ما أنول الله. فالحكم فى قضية معروضة بغير ما أنول الله، بدافع من الدوافع المذكورة فى كتب الفقه، بغير استحلال لذلك الحكم، هذا شى، والتشريع بغير ما أنول الله شى آخر مختلف بالمرة. لأنه فى الحالة الأولى لا ينقض اعترافه وإقراره بأن شرع الله هو المرجع الذى يرجع إليه فى الحكم وإن خالف فى التنفيذ. أما فى الحالة الثانية فهو يضع من عند الحكم وإن خالف فى التنفيذ. أما فى الحالة الثانية فهو يضع من عند نفسه بغير سلطان من الله شرعا آخر مخالفا لشرع الله، ولكن نفذوا هذا الشرع الذى وضعته لأنه مماثل لشرع الله، أو لأنه أفضل من شرع الله، أو لأنه أنسب من شرع الله!

وهذا الأمر لم يختلف الفقهاء في تاريخ الإسلام كله على أنه كفر مخرج من الملة .

وأمرآخر لم يختلف الفقهاء فى تاريخ الإسلام كله على أنه كفر مخرج من الملة ، هو الرضى عن علم وإرادة بشرع غير شرع الله ، ولا يدخل فى ذلك الإكراه بطبيعة الحال لأن الإكراه ينتنى فيه الرضى ، ولذلك قال تعالى :

«من كفر بالله من بعد إيمانه _ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان _ ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم » (١٥٦)

فالتشريع بغير ما أنزل الله ، والرضى بتشريع مخالف لما أنزل الله ، كلاهما في حكم الله له نقض للا إله إلا الله ، لذلك نزل فيه الحكم القاطع الحاسم : «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» (١٥٧)

يقول الإمام ابن كثير فى تفسير قوله تعالى : «أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون» :

«ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المشتمل على كل خير، الناهى عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كاكان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بأهوائهم وآرائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكيزخان الذي وضع لهم الياسق، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها، وفيها كثير من الأحكام أخذها بمجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعا متبعا يقدمونه على الحكم بكتاب الله

⁽١٥٦) سورة النحل [١٠٦]. (١٥٧) سورة المائدة [٤٤].

وسنة رسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ، فلا يحكم سواه فى قليل ولاكثير» (١٥٨)

华 华 特

هذا الارتباط الوثيق بين لا إله إلا الله وتحكيم شريعة الله ، ظل ثلاثة عشر قرنا متوالية بديهية في حس المسلمين ، لا يتصورون الإسلام من غيرها ، ولا يتصورون في «مسلم» أنه يكون مسلما من غيرها . وكان حكم الشريعة القائم بالفعل في الأرض يعطى القضية ثقل الأمر الواقع ، فلا يفكر الناس في غيره ، ولا يفكرون في أن غيره يمكن أن يقع !

وكان الفارق _ فى حس المسلمين _ بين الإسلام والكفر ، وبين المسلمين والكفار أمران رئيسيان ، فضلا عن أمور كثيرة أخرى ، هما الصلاة وشريعة الله . فالمسلمون يصلون ، ويتحاكمون إلى شريعة الله ، والكفار لا يصلون ، ولا يتحاكمون إلى شريعة الله . ولكن الأمر تغير كثيرا فى حس المسلمين بعد الاحتلال الصليبي لبلادهم وتنحية شريعة الله عن الحكم ، ثم تسليط كل العوامل التي تخرج المسلمين من الإسلام .

[.] ۱۵۸) انظر تفسیر ابن کثیر ج ۲ ص ۹۸.

فأما الجيل الأول فقد كان يرى الحقيقة «الشرعية» واضحة . . فتنحية الشريعة ـ من حيث المبدأ ـ كفر . والذين يقومون بذلك ـ من حيث الواقع ـ هم الكفار الصليبيون المغتصبون لأرض الإسلام . ولكن الأمر اختلط كثيراً على الأجيال التالية . .

وفى غير هذا المكان تحدثت عن عملية التغريب ، وعن الغزو الفكرى ، وعن مناهج التعليم ، وعن وسائل الإعلام ، وعن الإفساد الذى تم فى عالم الفكر والأدب ، وفى عالم السياسة ، وفى قضية المرأة ، وفى مجال الأخلاق . لإخراج المسلمين من الإسلام (١٥٩) .

ثم جاء حكام يحملون أسماء إسلامية ، ويحكمون بغير ما أنزل الله ، ينوبون عن الاحتلال الصليبي في تنفيذ كل أهدافه ، ويقال للناس إنهم مسلمون ، وإن «الضرورة» تقتضى أن يحكموا بغير ما أنزل الله (١٦٠) .

ثم يزداد الناس بعدا عن الإسلام بفعل كل العوامل المسلطة عليهم في فيقال لهم صراحة إن الرق والتحضر والتقدم والتحرر والانطلاق يقتضي تنحية شريعة الله عن الحكم، واستيراد النظم والمبادئ والدساتير والقوانين من أوربا المتحضرة من غربها أولا ثم من

⁽١٥٩) انظر فصل «أثار الانحراف» من كتاب «واقعنا المعاصر».

⁽١٦٠) انظر في كتاب «واقعنا المعاصر» فتوى الشيخ رشيد رضا بهذا المعنى وردنا عليها .

شرقها بعد ذلك _ وإن الشريعة التي نزلت قبل أربعة عشر قرنا لا يمكن _ ولا يجوز _ أن تحكم حياة الناس اليوم . وإن «التطور» لابد أن يأخذ طريقه ، وإن الدين هو «الأغلال» التي تعوّق الناس عن الانطلاق ، وإن مصيرنا _ رضينا أم أبينا _ هو مصير أوربا ، التي لم تتقدم إلا بعد أن نبذت الدين ، وإن «الرجعية» لا يمكن _ حسب قوانين التطور _ أن تثبت في مكانها ، فضلا عن أن تقف عجلة التطور عن الانطلاق !

ويقال للناس فى أثناء ذلك كله إنهم «مسلمون» . . ماداموا يقولون لا إله إلا الله !!

张 张 张

هذا هو واقع «المسلم المعاصر»!

لقد أفرغت لا إله إلا الله من محتواها كله ، ومقتضاها كله ، وأصبحت كلمة تطلق في الهواء ، ويتعلق بها ذلك «الغثاء» الذي تحدث عن رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ فيجرفه السيل ، لا يملك نفسه منه . لأنه بلا جذور!

إن جذور هذه الأمة التي تمكّن لها في الأرض هي «لا إله إلا الله عمد رسول الله». فإن أفرغت هذه الجذور من محتواها الحقيق، وظلت القشرة خاوية من المحتوى الحيّ، فهل يمكن أن تمسك بشيّ، وهل يمكن أن تقاوم الدوامة الضارية التي يصنعها السيل؟ وهل تكون هي

ذات الجذور التي أنبت من قبل «خير أمة أخرجت للناس»؟! لقد عملت عوامل كثيرة خلال التاريخ الإسلامي الطويل لإفراغ لا إله إلا الله من سحتواها الحقيقي.

فالتفلت من التكاليف ، وعدم كفاية التذكير ، والترف المتلف ، والسلبية الصوفية ، والاستبداد السياسي ، والفكر الإرجائى ، كل واحد من هؤلاء قد فعل فعله فى إفراغ لا إله إلا الله من محتواها الحى على المدى الطويل (١٦١) .

التفلت من التكاليت طبع في البشر، تمده ثقلة الأرض.. ثقلة الشهوات.. وعلاجه هو التذكير:

«وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين» (١٦٢)

فحين لا يكون التذكير كافيا في الدرجة أو في النوع فإن التفلت من التكاليف يظل مستمرا .. ثم يزداد .

والنرف الذى أصاب المسلمين حين مكّنوا فى الأرض ، أرخى قبضتهم من حبل الله المتين .. فتفلتوا من التكاليف بحكم الرغبة فى المتاع الأرضى ، فكثرت البدع والمعاصى ، وكلها خروج على مقتضيات لا إله إلا الله .

⁽١٩٦١) تكلمت عن هذه العوامل بشئ من التوسع في فصل «خط الانحراف» من كتاب «واقعنا المعاصر».

⁽١٦٢) سورة الذاريات [٥٥].

وجاء الفكر الصوفى ردّ فعل للترف ، فخلص المتطهرون بأنفسهم من الدنس المستشرى فى المجتمع المترف ، ولكنهم ــ من جانب آخر ــ انعزلوا عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فأفرغوا لا إله إلا الله من جانب مهم من محتواها الحى ..

وأسهم الاستبداد السياسي في إفراغ لا إله إلا الله من محتواها في الجانب ذاته ، حين أصبح الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يغضب المستبدين من ذوى السلطان ، فيفتكون «بالمعارضين» الذين يعترضون على انحرافاتهم وتجاوزاتهم ، فينحسر الناس إلى ذوات أنفسهم ويتحول «الدين» إلى ممارسة فردية ، تركز على الجانب العبادى وحده ، وينحسر عن صورته الجاعية ، أى عن جانبه السياسي بصفة خاصة .. وينفصل ما بين «الدين» و «السياسة». وتصبح السياسة لا علاقة لها بلا إله إلا الله!

ثم يجىء الفكر الإرجائى فيغطى هذا الانحساركله. ويقول للناس: إن الإيمان هو التصديق والإقرار!

非 非 共

وحين جاء الغزو الصليبي كانت لا إله إلا الله قد وصلت في نفوس المسلمين إلى حدها الأدنى الذي يحفظ المسلمين في داخل إطار الإسلام، مع وقوعهم في المعاصى والآثام، أي في حدود إقامة الصلاة وتحكيم شريعة الله .. وكان انحسارها في نفوس المسلمين إلى

ذلك الحد هو الذي جاء بالصليبين ومكّن لهم في أرض الإسلام ، فما كان لهم أن يغامروا بالجيء ، وماكان لهم أن يتمكنوا في الأرض ، لو أن المسلمين كانوا على ذكر بمقتضيات لا إله إلا الله ، عاملين بتلك المقتضيات في عالم الواقع . فإن من بين تلك المقتضيات _ الكثيرة _ اعداد العدة لأعداء الله ، والإنفاق في ذلك السبيل :

«وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الحيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شئ في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » (١٦٣) .

ومن مقتضياتها ــ الكثيرة ــ طلب العلم الذى يؤدى إلى النمكين فى الأرض . . فلا تمكين بغير علم :

«طلب العلم فريضة» (١٩٤١)

ومن مقتضياتها التخلق بأخلاقيات لا إله إلا الله من الصدق والأمانة والإخلاص وإتقان العمل واحترام حقوق الغير والتعاون على البر والتقوى وعدم التعاون على الإثم والعدوان .. الخ .. وهى من أكبر أدوات التمكين في الأرض ، كما أن فقدانها من أكبر عوامل البوار ..

«ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم» (١٦٥)

⁽١٦٣) سورة الأنفال [٦٠]. (١٦٥) سورة الأنفال [٢٦].

⁽١٦٤) أخرجه ابن ماجه.

«واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا» (١٦٠٦)

«يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن . ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب . بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان . ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون .. يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن . إن بعض الظن إثم . ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضا . الحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه . واتقوا الله إن الله تواب رحيم » (١٦٧) .

ومن مقتضياتها .. ومن مقتضياتها ..

وكان الفراغ من تلك المقتضيات هو الذى أصاب المسلمين «بالتخلف العقيدى» الذى نشأ عنه التخلف العلمى والحضارى والمادى والاقتصادى والحربى والسياسى .. الذى أغرى الصليبين بالمجىء ، ثم مكن لهم فى أرض الإسلام (١٦٨) .

* * *

ولكن الحد الأدنى الذى كان يحفظ المسلمين داخل إطار الإسلام مع كل هذه المعاصى والآثام ما يكن ليرضى الصليبية

⁽١٦٦) سورة آل عمران [١٠٣]. (١٦٧) سورة الحجرات [١١ ـ ١٢].

⁽١٦٨) انظر فصل «آثار الانحراف» من كتاب «واقعنا المعاصر».

الحاقدة وفى أطوائها اليهودية الشريرة ، ولم يكن ليطمئنهما على مصير مخططاتهما تجاه الإسلام:

« ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » (١٦٩) .

«ود كثير من أهل الكتاب لويردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق» (١٧٠).

نعم.. فوجود المسلمين في داخل إطار الإسلام، في هذا الحد الأدنى منه، مع كل البعد الذي ابتعدوه عن حقيقته الشاملة الهائلة، لا يُؤْمَن معه أن يعودوا إلى تلك الحقيقة مرة أخرى، إذا بعث الله لهذه الأمة من يجدد لها أمر دينها، كما تتجدد الشجرة الذابلة حين تُتَعهد بالرعاية والسقى، ما دامت الجذور ما تزال في حيز الحياة:

«ألم تركيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها..» (١٧١)

قال جلادستون رئيس الوزارة البريطانية وقت دخول الإنجليز مصر مشيرا إلى المصحف: «طالما كان هذا الكتاب في أيدى المصريين فلن يقر لنا قرار في تلك البلاد».

⁽١٦٩) سورة البقرة [٢١٧].

⁽١٧٠) سورة البقرة [١٠٩].

⁽۱۷۱) سورة إبراهيم [۲۲ــ ۲۰].

وقال توماس بين ـ المستشرق الأمريكي ـ في مقدمة كتابه «السيف المقدس» ، بعد أن لخص تاريخ المسلمين وانتصاراتهم في آسيا وأفريقيا وأوربا: «والآن تغير الحال ، وصار المسلمون في قبضة أيدينا ، ولكن ماحدث مرة يمكن أن يحدث مرة أخرى . وإن الشعلة التي أشعلها محمد (صلى الله عليه وسلم) في قلوب أتباعه ، لهي شعلة غير قابلة للانطفاء . . »

من أجل هذا عمل الصليبيون (واليهود فى أطوائهم) لإخراج المسلمين نهائيا من الإسلام لكى يأمنوا، ويطمئنوا، ويستريحوا، وإن كانوا ساروا على مخططهم المعروف: «بطئ ولكنه أكيد المفعول » كانوا ساروا على مخططهم المعروف: «بطئ ولكنه أول «معتمد بريطانى» في مصر:

«إن مهمة الرجل الأبيض الذي وضعته العناية الإلهية (!) على رأس هذه البلاد هي تثبيت دعائم الحضارة المسيحية إلى أقصى حد مكن ، بحيث تصبح هي أساس العلاقات بين الناس (١٧٢) ، وإن كان من الواجب منعا من إثارة الشكوك ألا يعمل على تنصير المسلمين ، وأن يرعى من منصبه الرسمي المظاهر الزائفة للدين الإسلامي ، كالاحتفالات الدينية وما شابه ذلك»!

وتم لهم ـ في غفلة المسلمين ـ كل ما أرادوه ، فبدأوا بتنحية

⁽۱۷۲) أي بدلا من الإسلام.

الشريعة الإسلامية عن الحكم ، وانتهوا بتنحية المسلمين عن الصلاة ، وانسحب «المسلمون» بذلك من كل ماكان قد بقي لهم من الإسلام ، على المخطط البطيء . . الأكيد المفعول .

ولم يجد الفكر الإرجائي صعوبة كبيرة في تغطية الانسحاب.. فسمى المجتمعات الجاهلية _ التي لا تحكم بما أنزل الله _ مجتمعات إسلامية ، وأطلق صفة الإسلام على كل من يقول بلسانه: لا إله إلا الله! إذ الإسلام هو مجرد التصديق وعلامته الظاهرة هي مجرد الإقرار!

格 旅 旅

حين نصل في حديثنا إلى هذه النقطة ، يتصور قوم أننا مقدمون لا محالة على إصدار الحكم على الأجيال الحاضرة من الناس بالكفر ، لأنهم لا يتحاكمون إلى شريعة الله ، فيستشعر القوم في أنفسهم «الخطر» من هذه القضية كلها ، فيسارعون إلى معارضتها من حيث المبدإ ، خشية أن يجرهم إقرار المبدإ إلى إصدار الحكم!

وقد أكدنا في غير هذا المكان أن قضيتنا ليست هي إصدار الحكم على الناس (١٧٣) ! وأننا نهدف إلى قضية أخرى ، أبعد كثيراً ، وأخطر

⁽١٧٣) انظر «قضية الحكم على الناس» فى فصل «الصحوة الإسلامية» من كتاب «واقعنا المعاصر». وقد فصلت الحديث هناك عن الأسباب التى تدعونى إلى عدم الحوض فى هذه القضية فى الوقت الحاضر، وتركيز الجهد كله فى عملية البيان والتعليم دون التعرض لإصدار الأحكام على الناس.

_ فى نظرنا _ كثيراً من محاولة إصدار حكم على هذا الجيل من الناس!

إن حكمنا على الناس الذين يعيشون اليوم في الأرض الإسلامية بالإسلام أو الكفر ليس هو الذي سيدخلهم الجنة أو النار! فالله _ سبحانه وتعالى _ هو المتصرف في شأنهم وشأن الكون كله «يدخل من يشاء في رحمته ، والظالمين أعد لهم عذابا أليما » (١٧٤) . ولسنا الآن دولة حتى توقع حد الردة على المرتدين من أولئك البشر . إنما نحن دعوة ، نحاول أن نقوم بالأمانة الملقاة على عاتقنا تجاه هذا الدين . والمهمة التي نسعى إليها ، ونحاول جاهدين أن نصل إلى شئ منها ، هي مهمة «البيان» للناس . فنحاول أن نبين لهم ما غاب عنهم _ في غربة الإسلام الثانية (١٧٥) _ من حقائق هذا الدين .

والذين يظنون أننا حين نطلق على المجتمعات التي تعيش اليوم فى الأرض الإسلامية (١٧٦) أنها «مجتمعات جاهلية» نقصد بذلك أن أهلها ليسوا مسلمين ، أو أن الأصل فيهم هو الكفر إلا إذا تبين منهم غير

⁽١٧٤) سورة الإنسان [٣١].

⁽١٧٥) قال عليه الصلاة والسلام: «بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريباكما بدأ ، فطوبي للغرباء » رواه مسلم .

⁽١٧٦) نطلق لفظ «الأرض الإسلامية» على كل أرض كان الإسلام يحكمها ذات يوم ثم تراجع الحكم فيها عن شريعة الله وحكمتها شرائع الجاهلية. وحكم الفقهاء فيها أن أهلها مطالبون بردها إلى الحكم الإسلامي لا يسقط هذا الواجب عنهم أبد الدهر.

ذلك .. هؤلاء نقول لهم هنا _ كها قلنا فى غير هذا المكان _ إن حكم المجتمع لا ينصرف إلى الأفراد _ أى الأعيان _ إنما هو شبيه بالحكم على الدار بأنها دار كفر أو دار إسلام . والفقهاء مجمعون على أن وصف الدار بأنها دار كفر أو دار إسلام لا يتعلق بعقائد القاطنين فيها إنما يتعلق بغلبة الأحكام فيها ، فالأرض التى تحكمها شريعة الله هى دار إسلام مها تكن عقائد أهلها . والأرض التى تحكمها شريعة غير شريعة الله هى دار كفر مها تكن عقائد أهلها .

وقد كانت مصر دار إسلام حين فتحها المسلمون مع أن غالبية أهلهاكانوا على غيردين الإسلام، وظلواكذلك فترة من الوقت. وكانت الهند دار إسلام حين فتحها المسلمون مع أن غالبية أهلها كانوا وما زالوا على غير دين الإسلام. إنما اعتبرت دار إسلام لكون أحكام الشريعة هي الحاكمة فيها بصرف النظر عن عقائد أهلها.

وكذلك كانت الدويلات التي أقامها الصليبيون في الشام _ واستمر بعضها مائتي عام _ داركفر مع أن أهلها ظلوا مسلمين، لأن الصليبيين كانوا يحكمون فيها بغير ما أنزل الله .

فالمجتمع المسلم هو المجتمع الذي تحكمه شريعة الله ، وتحكمه تصورات الإسلام ومفاهيمه وآدابه وأنماط سلوكه ، بصرف النظر عن عقائد أهله . والمجتمع الجاهلي هو المجتمع الذي لا تحكمه شريعة الله ، ولا تصورات الإسلام ومفاهيمه وآدابه وأنماط سلوكه ، بصرف النظر

عن عقائد أهله ، وعن حكم الله عليهم فى الآخرة بالدخول إلى الجنة أو الدخول إلى البنار .

والناس الذين يعيشون اليوم في الأرض الإسلامية هم خليط لا يجمعه حكم واحد. فنهم مسلمون بلا شبهة _ بحسب الظاهر من أحوالهم ، وحسابهم على الله في الآخرة ــ لأنهم يقولون لا إله إلا الله ، ويؤدون العبادات ، وينكرون حكم الجاهلية ، ويرغبون في تحكم شريعة الله ، ويتحاكمون إليها فيما يقدرون عليه من أمورهم ، ومنهم كفار بلا شبهة _ بحسب الظاهر من أحوالهم ، وحسابهم على الله في الآخرة _ لأنهم _ حتى إن قالوا لا إله إلا الله (١٧٧) _ ينكرون أن تكون شريعة الله واجبة التحكيم ، ويقولون في ذلك مقالات شتى ، فمنهم من يقول: ما للدين والسياسة ؟! ومنهم من يقول: كيف تحكم الشريعة التي نزلت قبل أربعة عشر قرنا حياة الناس المتطورة اليوم؟ لابد من أنظمة متطورة تحكم الحياة المتطورة . فلنأخذ الديمقراطية أو فلنأخذ الاشتراكية بديلا من الإسلام! ومنهم من يقول: إن الدين قد استنفد أغراضه ولم يعد له مكان في الحياة اليوم! ومنهم من يقول: إن الدين رجعية وتأخر ينبغي نبذه والانسلاخ منه من أجل أن نضبح تقدميين! ومنهم من يقول: إن الدين علاقة بين العبد والرب ، محلها

⁽١٧٧) بعضهم لا يكتنى بقول لأ الله إلا الله ، بل يزعم أنه هو الذى تتحقق فيه حقيقة الإسلام ! «ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ! ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ، وما أولئك بالمؤمنين» [سورة النور : ٤٧].

القلب ولا علاقة له بواقع الحياة !

ومنهم كتلة متميعة غير واضحة السمات ، يختلط فيها الحابل بالنابل، ولكن مظهرها العام بعيد عن مقتضيات الإسلام، وهي التي يختلف الناس في حكمهم عليها ، وهي كذلك التي نقول إننا لا نهدف إلى إصدار حكم عليها . إنما نهدف إلى أن نبين للناس جميعا حقيقة لا إله إلا الله ، لأننا نعتقد أن هذا البيان _ فضلا عن كونه أمانة لله _ فإنه هو الذي يمكن أن يقنع الناس بتغيير واقع حياتهم ، فيغير الله لهم حين يغيرون ما بأنفسهم ويستقيمون على أمر الله _ فيخرجهم من الذل والهوان والضياع الذي يعيشونه اليوم في كل الأرض ، ويرد لهم العزة والتمكين كما وعد الله عباده المؤمنين :

«وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليمدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدونني لا يشركون بى شيئا » (۱۷۸)

هناً أمر الناس _ أعيان الناس _ أما «المجتمع» فله _كها بيّناً _ حكم آخر..

إن «المجتمع» ليس هو مجموع الأفراد فحسب. إنما هو كذلك «النظام» الذي يربط أولئك الأفراد ، ويتعاملون من خلاله بعضهم

⁽۱۷۸) سورة النور [۵۵].

مع بعض ، وعلى أساسه يقيمون علاقاتهم وينشئون ارتباطاتهم .

فهل يمكن على هذه القاعدة أن نقول _ : إن هذه المجتمعات القائمة اليوم مجتمعات إسلامية ؟ ! هل النظام الذي يحكمهم هو الإسلام : شريعته ومنهجه وتوجيهاته ؟ هل الذي يحدد علاقاتهم وينشئ ارتباطاتهم هو الإسلام ؟ هل الذي يشكل تصوراتهم ويرسم مناهجهم التعليمية وبرامجهم الإعلامية وأنماطهم السلوكية هو الإسلام ؟

لقد قال رسول الله عليه الله عليه وسلم لرجل من أجلة الصحابة وضوان الله عليهم : أنت أمرؤ فيك جاهلية، لكلمة واحدة خرجت من فمه فى لحظة غضب، فقال لرجل أسود: يا ابن السوداء!! فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : عيرته بأمه؟! أنت أمرؤ فيك جاهلية! (١٧٩)

فكيف يمكن أن يسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ عتمعاتنا ؟!

إن الذين يسمون هذه المجتمعات مجتمعات إسلامية ، ويطلقون على كل من قال لا إله إلا الله أنه مسلم ، مها يكن واقع حياته ، ومها يكن هذا الواقع مناقضا لمقتضيات لا إله إلا الله ، من باب التورع والتقوى . . إن هؤلاء _ على كل تقواهم _ يرتكبون في حق الدعوة

⁽۱۷۹) متفق عليه .

خطيئة ضخمة دون أن يدروا ولإيقصدوا.

فإذا كانت هذه المجتمعات إسلامية ، وإذا كان هؤلاء الناس كلهم مسلمين ، قما الذي يدفع الناس إلى اعتناق الإسلام أو البقاء فيه ؟!

إن الواقع الذي تعيشه هذه المجتمعات. بكل مايشتمل عليه من سوء _ لهو أشد مايصد الناس عن الإسلام! فإذا أضفينا عليه صفة الإسلام، وقلنا: إن الإسلام يتغاضى عن كل ذلك السوء، ويظل يضنى صفته على الناس مها فعلوا، ماداموا ينطقون بألسنتهم: لا إله إلا الله ، فما الذي يمنع الشباب _ والشباب المتفلت من التكاليف بصفة خاصة _ مالذي يمنعه من الشيوعية والاشتراكية والديمقراطية (١٨٠) والفوضوية والعدمية والعبثية وغيرها من المذاهب الهدامة والأفكار الهدامة؟

إذا كنا نطلق صفة الإسلام على كل هذا القدر من السوء والانحراف الذى يقوم اليوم فى الأرض الإسلامية من باب التورع والتقوى ، فلنتق الله فى الشباب الذين نصدهم عن الإسلام ، حين نصف هذا السوء كله بأنه داخل فى إطار الإسلام !!

⁽۱۸۰) يحتج كثير من الناس المخدوعين بالديمقراطية على وضعها بين المذاهب الهدامة! وقد بينت حقيقتها في كتاب «مذاهب فكرية معاصرة» وكيف أنها مسرحية جميلة تخفى في أطوائها سيطرة الرأسمالية على المجتمع، وسيطرة اليهود على مقدرات الناس. وأن الفساد الذي تحتوى عليه أكبر بكثير من الخير الجزئي الذي تحققه!

إذا اتضحت لنا هذه الأمور ..

إذا اتضح لنا أن إطلاق صفة الجاهلية على هذه المجتمعات لاينصرف إلى أعيان الناس ..

وأن الذى نسعى إليه من وراء هذا البحث ليس إطلاق الحكم على أعيان الناس ، إنما بيان ماجهله الناس فى غربة الإسلام الثانية من حقيقة الإيمان المتعلقة بلا إله إلا الله ، ودعوة الناس – من ثم – إلى تصحيح أوضاعهم بمقتضى هذه الحقيقة

إذا اتضح لنا هذا نعود_ مطمئنين_ إلى وصل ما انقطع من الحديث عن مقتضيات لا إله إلا الله.

华 华 张

لقد تحدثنا فيا مضى عن مقتضيات لا إله إلا الله كما فهمها الجيل الأول ـ رضوان الله عليهم ـ من كتاب الله ومن تعليم رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبينا بوضوح ـ فيا أحسب ـ أن كل ما احتج به المرجثة ـ القدامي أو المحدثون ـ من أن كل المطلوب من الناس لكى يكونوا مؤمنين هو التصديق والإقرار دون العمل بمقتضى لا إله إلا الله يوخاصة التحاكم إلى شريعة الله ليس له سند من كتاب الله ولا من سنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولامن واقع الجيل الذي فهم حقيقة الإسلام أصدق فهم وطبقها أصح تطبيق . . وأن التحاكم إلى شريعة الله ـ على أقل تقدير ـ هو الحد الأدنى الذي يحفظ للناس صفة الله ـ على أقل تقدير ـ هو الحد الأدنى الذي يحفظ للناس صفة

الإسلام فى الأرض ، وحسابهم على الله فى الآخرة .. وأن عدم التحاكم إلى شريعة الله عن رضى وعلم وإرادة ــ ينقض لا إله إلا الله من أساسها ، ويخرج الناس من الإسلام .:

والآن نتحدث عن الواقع الذي يعيشه «المسلم المعاصر!»..

نتحدث عنه من زاويتين اثنتين على الأقل: الزاوية الأولى هى تحديد الحد الأدنى الذى يحفظ للناس إسلامهم فى الواقع المعاصر الذى لاتحكم فيه شريعة الله. والزاوية الثانية هى طريق الحلاص للناس اليوم مما هم فيه من أوضاع لم يسبق لها مثيل ـ فى سوئها ـ فى تاريخ الإسلام كله.

ونعود إلى التذكير بحقيقة نرجو ألا تكون قد نسيت فى أطواء الحديث ..

هذه الحقيقة هي أن الناس كانوا يدخلون الإسلام ، ويعتبرون مسلمين في الحياة الدنيا ، وحسابهم على الله في الآخرة ، في أثناء قيام المجتمع المسلم ـ أي الذي يتحاكم إلى شريعة الله ـ بمجرد أن ينطقوا بالسنتهم لا إله إلا الله محمد رسول الله . ولكن هذا ليس معناه أن مجرد النطق ـ دون أي مقتضى ـ هو الذي يعطيهم هذه الصفة ، إنما هو النطق المتضمن مقتضى معينا ، معلوما من الدين بالضرورة ، هو الإقرار بحاكمية الشريعة الربانية ، وأنها هي وحدها ـ دون سواها ـ التي يرجع إليها التي يجب تحكيمها ، وهي وحدها ـ دون سواها ـ التي يرجع إليها التي يرجع إليها

الناس في كل مايتنازعون فيه من أمر، تحقيقا لقوله تعالى:
« وما اختلفتم فيه من شئ فحكمه إلى الله » (١٨١)

« فإن تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » (١٨٢)

وأن الذي ينكل عن هذا المقتضى ـ المعلوم من الدين بالضرورة ، والذي له فى المجتمع المسلم ثقل الأمر الواقع ـ يطبق عليه حد الردة مع أنه مازال ينطق بفمه لا إله إلا الله محمد رسول الله ، مما يقطع بأن نطق اللسان وحده ـ دون المقتضى المتضمن فى داخله ـ ليس هو الذي يعطى صفة الإسلام .

والآن نعود إلى الواقع المعاصر ، حيث لاتحكم شريعة الله . وإنما تحكم بدلا منها شرائع الجاهلية ، سواء اسمها الديمقراطية الليبرالية أو اسمها الاشتراكية أو اسمها الشيوعية أو أى اسم من الأسماء التي ما أنزل الله بها من سلطان

كيف يتحقق مقتضى لا إله إلا الله في حده الأدنى الذي يعطى الناس صفة الإسلام؟!

ولسنا نتحدث هنا عن مظهرية الإسلام! وإن كنا سنلم بها فى أثناء الحديث . .

⁽۱۸۱) سورة الشورى [۱۰]. (۱۸۲) سورة النساء [۵۹].

إن مهمة الدعاة ليست أن يعطوا الناس شهادات مزورة بالإسلام! وليست أن يدلوهم كيف يحافظون على مظهرية الإسلام فى الحياة الدنيا ولو كانوا مرفوضين عند ربهم! إنما مهمتهم أن يبينوا للناس كيف يكونون مؤمنين حقا ، مقبولين عند الله فى اليوم الآخر ، « يوم لاينفع مال ولابنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم » (١٨٣)

وحتى مظهرية الإسلام فى الحياة الدنيا لها شروط غير قول لا إله إلا الله ، كما سيأتى بيانه عما قليل.. (١٨٤)

إن الحد الأدنى الذى يعطى صفة الإسلام عند الله حين لاتكون شريعة الله قائمة فى الأرض ، قد بينها الحديث الصحيح بصورة حاسمة لاتحتمل التأويل. يقول رسول الله عليه وسلم -:

«ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب ، يأخذون بسنته ويقتدون بأمره . ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف ، يقولون مالا يفعلون ، ويفعلون مالا يؤمرون . فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جأهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم

⁽١٨٣) سورة الشعراء [٨٨ - ٨٩].

⁽١٨٤) ناقشت هذه القضية في كتاب « واقعنا المعاصر » بمثل ما ناقشتها به هنا . وكان الأصل أن يصدر كتاب المفاهيم أولا . فلما تأخر ــ بقدر من الله ــ وسبقه كتاب « واقعنا المعاصر » احتجت فيه إلى بيان بعض القضايا الواردة أصلا في كتاب المفاهيم .

بقلبه فهو مؤمن. وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » (١٨٥) ويقول ـــ صلى الله عليه وسلم ــ:

« إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون . فهن كره فقد برئ ، ومن أنكر فقد سلم ، ولكن من رضى وتابع » (١٨٦) .

فالحديث الأول يثبت الإيمان ـ بدرجات مختلفة ـ لكل من جاهد حكم الجاهلية بيده ، أو بلسانه ، أو بقلبه ، وينفيه نفيا حاسما عما وراء ذلك . والحديث الثانى ينفى الإيمان كذلك عن كل من رضى عن حكم الجاهلية وتابعه .

ومن المعلوم جيداعند كل من يتدبركتاب الله وسنة رسوله _ صلى الله عليه وسلم _ أنه إذا ذكر لفظ الإيمان والإسلام معا فى نص واحد فالمقصود بالإيمان عمل القلب وبالإسلام عمل الجوارح . أما إذا ذكر أحدهما فهو شامل لكليهما سواء فى الإثبات أو النفى . أى أن النفى الحاسم المذكور فى الحديث ينفى الإسلام والإيمان معا فى ذات الوقت ، لاكما يقول المتمحكون إنه ينفى الإيمان ولكنه لاينفى الإسلام ، مخالفين بذلك ما أجمع عليه علماء هذا الدين!

أما مظهرية الإسلام في الحياة الدنيا فشرطها ـ إلى جانب قول لا إله إلا الله محمد رسول الله ـ عدم التحاكم إلى الطاغوت عن رضي

⁽١٨٥) أخرجه مسلم. (١٨٦) أخرجه مسلم.

ومتابعة ، لأن ذلك التحاكم ينقض لا إله إلا الله نقضا ، ولا يبتى لها واقعا يعتد به حتى فى إثبات مظهرية الإسلام.

ولسنا نقول هذا لنصدر به حكما على أحد من الناس. فليس فى وسعنا ولا هو من شأننا أن نشق صدور الناس لنعلم هل هم يتابعون حكم الطاغوت عن رضى وإرادة ، وتسليم بأحقيته فى الحكم بدلا من شريعة الله ، أم هم مكرهون كارهون ، يرغبون فى تحكيم شريعة الله ولكنهم لايستطيعون . إلا من أظهر بلسانه أو بواقعه انتماءه إلى فكر جاهلى يدعو إلى تحكيم شريعة غير شريعة الله أو ظهر من حاله أن أمر الدين لايهمه ، وأنه يستوى عنده أن تحكم شريعة الله أو شريعة الله أو شريعة الله أو شريعة الطاغوت .

إنما نقول ذلك ليعرف الناس أين هم في ميزان الله . .

« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » (۱۸۷)

وميزان الله ، المبينة قواعده في كتاب الله المنزل، يقول : إن الحكم نوعان لاثالث لهما ، إما حكم الله وإما حكم الجاهلية :

«أفحكم الجاهلية يبغون؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون؟» (١٨٨)

⁽١٨٧) سورة الحديد [٢٥]. (١٨٨) سورة المائدة [٠٠].

فهناك إذن مظلة جاهلية تظلل الناس في واقعهم المعاصر.. هي الحكم بغير ما أنزل الله. والناس جميعا واقفون تحت هذه المظلة ، تشملهم بظلها الكئيب الناشز عن أمر الله ، ولكنهم في ميزان الله فريقان مختلفان : فمن رضى بالمظلة الجاهلية فهو منها ، ومن أنكرها وكرهها وجاهدها فهو المقبول عند الله ، بحسب درجته من المجاهدة ، ودرجته من الإنكار.

هذا هو الميزان الربانى الذى لايملك أحد تغييره بحسب هواه . « وماكان لمؤمن ولامؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » (١٨٩)

ولكن هذا القدر من المعرفة بميزان الله لايكنى حتى نعرف معنى المجاهدة بالقلب ، وهى الحد الأدنى من العمل الذي يحفظ الناس في إطار الإيمان حين تكون شريعة الله غير قائمة في الأرض ، والذي ليس وراءه من الإيمان حبة خردل ، فإن كثيرا من الناس بتأثير الفكر الإرجائي مارت تحسب أنه يكنى في المجاهدة بالقلب أو الإنكار بالقلب أن يقول الإنسان بلسانه : اللهم إن هذا منكر لايرضيك! أو أن يعتقد في قرارة قلبه أن هذا منكر لايرضي الله ، ثم يكون سلوكه مع هذا المنكر بعد ذلك هو نفس سلوك الراضي به ، المقبل عليه!

⁽١٨٩) سورة الأحزاب [٣٦].

ذلك أن الفكر الإرجائى كما فعل بالإيمان ، فجعله مجرد التصديق والإقرار ، وجرّده من العمل ، فكذلك فعل بالإنكار بالقلب فجعله أمرا مستسرا فى داخل القلب ليس له واقع سلوكى يعرف. به .

يقول الإمام الغزالى _ مع أنه رجل صوفى _ فى بيان حقيقة الإنكار بالقلب :

« وعن عكرمة عن ابن عباس – رضى الله عنها – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « لاتقفن عند رجل يقتل مظلوما فإن اللعنة تنزل على من حضره ولم يدفع عنه . قال : وقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « لاينبغى لامرئ شهد مقاما فيه حق إلا تكلم به ، فإنه لن يقدم أجله ولن يحرمه رزقا هو له »

« وهذا الحديث يدل على أنه لا يجوز دخول دور الظلمة والفسقة ، ولاحضور المواضع التى يشاهد المنكر فيها ولا يقدر على تغييره ، فإنه قال اللعنة تنزل على من حضر. ولا يجوز له مشاهدة المنكر من غير حاجة اعتذاراً بأنه عاجز » (١٩٠)

ومن أجل هذا المعنى الستحقت المجاهدة بالقلب أن تسمى « مجاهدة » _ أى أن تدخل فى باب الجهاد _ واستحقت أن تكون « إيمانا » ولو فى الحد الأدنى منه ، واستحقت أن تكون حاجزا بين

⁽١٩٠) إحياء علوم الدين المجلد الثالث الجزء السابع ص ٩ ، دار الفكر العربي .

الإنسان وبين غضب الله. أما الإنكار بالقلب على طريقة المرجئة ، فهو كالإيمان على طريقة المرجئة ، لايستحق أن يلتفت إليه ، ولايسمن ولا يغنى من جوع!

* * *

والآن نأتى إلى النقطة الأخيرة فى هذا الفصل ، وهى طريق الخلاص ..

حين نقول للناس إن طريق الخلاص هو تصحيح المفاهيم الإسلامية _ وبصفة خاصة مفهوم لا إله إلا الله _ يفتح كثير من الناس أفواههم من العجب . . وينكر كثيرون !

فعند بعض القوم أن طريق الخلاص هو محاربة الفقر والجهل والمرض. هو البناء الاقتصادى المتين. هو إيجاد الطعام لكل جائع ، والعمل لكل عامل. والتعليم لكل متعلم..

وعند بعضهم هو إزالة التخلف الحضاري والمادي والعلمي والتكنولوجي ..

وعند بعضهم هو إصلاح الأخلاق المنهارة: الرشوة المتفشية والكذب والنفاق. والغش والإهمال. والجبن والتقاعس، وموت الضمير وعدم المبالاة..

وعند بعضهم هوجمع الكلمة وإزالة الفرقة وتوحيد الصف وإزالة

البغضاء وتغليب المصلحة العامة ..

وعند بعضهم .. وعند بعضهم .. وعند بعضهم ..

ونحن نقول: نعم لهذا كله ! كله إصلاح! وكله مطلوب! ولكن كيف السبيل؟!

لقد جربنا خلال قرن كامل من الزمان أن نصلح هذا كله. وفتحنا مدارس وفتحنا معاهد وفتحنا جامعات. وأنشأنا طرقا وأنشأنا مصانع. وملأنا الطرق بالسيارات، وملأنا البيوت بالثلاجات والسخانات والتليفزيونات.

وصنعنا من ذلك كله قدرا غير قليل ..

ثم ...؟!

زادت مشاكلنا كلها حدة. وزادت أزماتنا كلها تعقيدا. وزدنا ضعفا وهوانا على الناس. ولم تعد «الأمم» وحدها هي التي تتداعى علينا كما يتداعى الأكلة إلى قصعتهم.. وإنما صار شذاذ الآفاق، الذين كتب الله عليهم الذلة والمسكنة أول المتداعين إلى القصعة، وأول الناهشين في الأموال والأعراض والدماء..

ونحن نقول: إن طريق الخلاص هو تصحيح المفاهيم الإسلامية بدءا بمفهوم لا إله إلا الله ، وإن فغر الناس أفواههم من العجب .. وإن أنكر المنكرون .. إن الذين يظنون أن لا إله إلا الله هي الكلمة المنطوقة باللسان ، سيفتحون أفواههم عجبا وإنكارا ولاشك . لأنهم يرون الكلمة منطوقة كل يوم بمثات الملايين ، ويرون السوء مع ذلك لايتزحزح من مكانه ، بل يرونه يمتد ويتسع ويشتد ، ويتضاعف حجمه بمرور الأيام ..

والذين يظنون أن المطلوب من لا إله إلا الله هو التصديق والإقرار، سيفتحون أفواههم عجبا وإنكارا دون شك . لأنهم يرون التصديق قائما _حسب رؤيتهم ويرون الإقرار، ثم لا يجدون مشكلا واحدا قد انحل، ولا أزمة واحدة قد آذنت بالانفراج.

والذين يرون عموما أن « العقيدة » من « المسلمات » ، وأن التسليم حاصل بالفعل ، يسعون جاهدين إلى شئ آخر غير العقيدة ، لأنهم يرونها _ حسب رؤيتهم _ قائمة ، ومع ذلك لاتغير شيئا من الواقع ، ولايبدو أنها قادرة على تغيير شئ في المستقبل القريب أو المستقبل البعيد .

وهؤلاء وهؤلاء وهؤلاء هم ضحايا الفكر الإرجائي الذي أفرغ لا إله إلا الله من مضمونها الحيّ ، وحولها كلمة تنطق باللسان ، لا مدلول لها ، ولا وزن لها في واقع الحياة .

ونحن حين ننكر ذلك الفكر الإرجائي ، وندعو إلى تصحيحه وتقويمه ، لا نصنع ذلك لمجرد الجدل الذهني ، ولكن لأننا نرى آثاره

السامة في حياة الأمة ، ومقدار بعده ـ في الوقت ذاته ـ عن روح الإسلام .

ونحب أن نسأل ، لنتعرف على الطريق : هل الأمراض التي يعانيها المسلمون اليوم : التخلف العلمي والحضاري والفكري والأخلاق والاقتصادي والسياسي والمادي .. الخ ..الخ .. هل هي أمراض «إسلامية » ؟ بمعني أنها نشأت من اعتناق الإسلام ، وممارسة الإسلام ، والمحافظة على الإسلام ؟!

ولكى نجيب إجابة علمية واقعية لاتصدر عن الهوى ولاتحركها العصبية ، نسأل: هل المجتمع الأول الذى اعتنق الإسلام ومارسه وخافظ عليه كان متصفا بشىء من هذا كله ؟ أم كان النقيض الكامل لهذه الصورة التى نراها فى واقعنا المعاصر؟!

ثم نسأل لنصل إلى النتيجة : أى الجيلين كان يحقق لا إله إلا الله بكل مقتضياتها ؟ وأيهما أخرج لا إله إلا الله من محتواها ، وحولها إلى كلمة تنطق باللسان ؟

فإذا عرفنا الإجابة عرفنا السر في كل الأمراض التي أصابت العالم الإسلامي في تاريخه الحديث..

حقيقة إنه ليست لا إله إلا الله وحدها هي التي فسد مفهومها في حس الأجيال المتأخرة ، إنما هي المفاهيم الإسلامية كلها بلا استثناء . وحقيقة إن الواقع المعاصر هو حصيلة الفساد في المفاهيم كلها في وقت

واحد ، كما سيتبين من قراءة «مفهوم العبادة » و «مفهوم القضاء والقدر » و «مفهوم الدنيا والآخرة » و «مفهوم الحضارة وعارة الأرض » . .

ولكن لا إله إلا الله هي ركن الإسلام الأول والأكبركما أسلفنا القول ، ولذلك كان تأثيرها هو الأكبر والأخطر ، سواء في حالة تطبيقها الصحيح أو في حالة الانحراف عن حقيقتها . ومن أجل ذلك كانت العناية الشديدة التي أولاها الإسلام لهذه القضية خلال ثلاثة عشر عاما في مكة ، ثم في العهد المدنى كله ..

ولابد أن نستعيد في ذاكرتنا مقتضيات لا إله إلا الله كما وعاها الجيل الأول ، من تعليم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم :

مقتضاها الأول هو توحيد الربوبية والألوهية ، وتوحيد الأسماء والصفات (أى توحيد الاعتقاد)

ومقتضاها الثانى هو توجيه العبادة لله وحده بلاشريك (أى توحيد العبادة)

ومقتضاها الثالث هو تحكيم شريعة الله وحدها دون غيرها من الشرائع (أى توحيد الحاكمية) (١٩١)

⁽۱۹۱) قولنا الأول والثانى والثالث ليس ترتيب أهمية . إنما هو من ضرورة الكلام . وإلا فهى كلها على مستوى واحد من حيث كونها متعلقة بالعقيدة _ أى بأصل الإيمان _ وكون الخروج عليها شركا مخرجا من الإسلام .

ومقتضاها الرابع هو القيام بالتكاليف التى فرضها الله على المؤمنين عير ماسبق ومن بينها طلب العلم ، وعارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى ، وإعداد العدة لأعداء الله ، ونشر الدعوة فى الأرض ، وعلى رأسها جميعا الجهاد فى سبيل الله .

ومقتضاها الخامس هو التخلق بأخلاقيات لا إله إلا الله ، الواردة تفصيلا في الكتاب والسنة . (١٩٢)

هل هذا تفسير مفتعل لمقتضيات لا إله إلا الله أقحمناه من عندنا إقحاما بغير دليل؟!

قال لى أحد العاملين فى حقل الدعوة ذات مرة ـ وكنت ألمح الإخلاص فى تساؤله ـ لقد أخبرنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن الإسلام بنى على خمس: شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا ، فن أين جئت أنت باشتراط التحاكم إلى شريعة الله ، وعلى أى شئ بنيت كونها من مقتضيات لا إله إلا الله ، والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يطلب إلا النطق بها فحسب ؟! وقلت له على الفور: أما اشتراط التحاكم إلى شريعة الله فنصوص عليه فى كتاب الله: « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فها شيجر عليه في كتاب الله: « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فها شيجر

⁽١٩٢) كذلك قولنا الرابع والخامس ليس ترتيب أهمية فكلاهما لازم لتحقيق « الإيمان الحق » : « أولئك هم المؤمنون حقا » .

بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » (١٩٢٠) وأما إدخال هذا الأمر فى مقتضيات لا إله إلا الله فهو أمر بديهى فى هذا الدين . فمادمنا أقررنا أن الإيمان لا يتحقق إلا بالتحاكم إلى شريعة الله فأين يدخل التحاكم فى أركان الإسلام : هل يدخل فى الصلاة ؟ هل يدخل فى الزكاة ؟ هل يدخل فى الحج ؟

فإذا لم يدخل فى واحد من هذه الأركان كلها ، فهل بقى إلا أن يدخل فى الركن الأول ، ركن لا إله إلا الله ، الذى يعنى الالتزام بكل ماجاء من عند الله ، فيدخل فيه شرط التحاكم إلى شريعة الله ، كما تدخل فيه كل التكاليف التى فرضها الله ؟

إن الإسلام كله في الحقيقة هو مقتضى لا إله إلا الله. لأن مقتضى الإقرار بأن الله واحد لاشريك له في ملكه ، ولا في خلقه ولافى تدبيره ، ولا في هيمنته ، ولا في رزقه ، ولافي قدرته سبحانه ، هو عبادته وحده بلا شريك ، أي طاعته فيما أمر به ، ومجموع ما أمر به هو الإسلام »!

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أبرز عبادات معينة فجعلها أركانا قائمة بذاتها ، فإن مابق من التكاليف التي أمر بها الله لابد بداهة أن يدخل في الركن الأول الشامل ، الذي يشمل الإسلام كله ، وكل ما يحتويه الإسلام!

⁽١٩٣) سورة النساء [٦٥].

فإذا لم يكن الأمر كذلك ، فليقل لنا المرجئة ـ القدامى أو المحدثون ـ فى أى أركان الإسلام تدخل تلك التكاليف ؟! وإن لم تكن تدخل فى أى ركن من أركانه فأين موقعها من الإسلام ، وهى تكاليف مفروضة ، وبعضها ـ كتحكيم شريعة الله ـ داخل فى أصل الاعتقاد ؟!

إن معنى الإقرار بالشهادة ـكا أسلفنا مرارا ــ هو الالتزام بما جاء من عند الله . ومن ثم يدخل فيهاكل التكاليف الربانية بلا استثناء .

ولسنا هنا فى مجال تصنيف المخالفات التى تقع من البشر فى تحقيق مقتضيات لا إله إلا الله ، وأيها يقع فى دائرة اللمم وأيها يقع فى دائرة الكبائر ، وأيها يقع فى دائرة الشرك ، لأننا فى مجال بيان الأثر اللذى يحدثه فى حياة البشر قيامهم بمقتضيات لا إله إلا الله _ كلها _ على وجهها الصحيح ، والأثر العكسى الذى يحدث من إفراغ لا إله إلا الله من مضمونها ، وجعلها كلمة تنطق باللسان بغير مقتضى واقعى ، سواء كان ذلك شركا أو معصية فحسب .

ولكن هذا لا يمنعنا من إشارة عابرة إلى أن أى انحراف فى توحيد الاعتقاد (أى توحيد الألوهية والربوبية والأسماء والصفات) هو شرك ، وأى انحراف فى توحيد العبادة (أى توجيه كل ألوان العبادة لله وحده بلاشريك) هو شرك ، وأى انحراف فى توحيد الحاكمية (أى التحاكم إلى شريعة الله وحدها دون غيرها من الشرائع) هو كذلك

شرك . وكلها ـ الثلاثة ـ على ذات المستوى من الدخول في أصل العقيدة ، والشرك في أيها هو الشرك الأكبر المخرج من الملة :

« وقال الذين أشركوا لوشاء الله ماعبدنا من دونه من شئ نحن ولا آباؤنا ، ولا حرمنا من دونه من شئ » (۱۹۶)

فهذه تشمل شرك العبادة وشرك الحاكمية.

« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عا يشركون » (١٩٥) .

وهذه تشمّل شرك الحاكمية وشرك الاعتقاد.. وكلها سواء.

非 非 非

حين كانت الأجيال الأولى من المسلمين تدرك مفهوم لا إله إلا الله على حقيقته ، وتحققه في واقع حياتها ، كانت «خير أمة أخرجت للناس» وكانت هي الأمة الممكنة في الأرض ، وكانت هي أمة العلم والحضارة ، وأمة القيم والأخلاق ، وحدثت على يديها تلك المعجزات التي يعرفها التاريخ في شتى المجالات ..

وِحين انحسر مفهوم لا إله إلا الله في نفوس الأجيال المتأخرة من

⁽١٩٤) سورة النحل [٣٥]. (١٩٥) سورة التوبة [٣١].

هذه الأمة ـ مع غيره من المفاهيم ـ وحين لم يعد له واقع فى حياتها . تحقق فيها نذير رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها . قالوا : أمن قلة نحن يومئذ يارسول الله ؟ قال : إنكم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل » (١٩٦٠)

وصارت هذه الأمة ألعوبة فى يد أعدائها، يجرونها إلى الهلاك بكل مهلكة من القول والعمل، ويفتنونها عن دينها، « والفتنة أكبر من القتل» (١٩٧٠) ويزيدونها غيا كلما اتبعتهم على طريق الغيّ!

واليوم تبحث الأمة عن طريق الخلاص ..

وحين نقول للناس: إن طريق الخلاص يبدأ بتصحيح مفاهيم الإسلام كلها بدءا بمفهوم لا إله إلا الله ، يظن بعض الناس ــ بسذاجة حقيقية أو سذاجة مفتعلة ــ أننا نضع تصحيح المفاهيم بديلا من توفير الخبز للجائعين ، أو توفير العلم للمتعلمين ، أو إقامة المصانع أو تسليح الجيوش !

وهذا أمر لايتصوره عاقل!

ولم يكن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يصحح اعتقاد الناس في مكة ، ويدل المؤمنين على المفهوم الحقيقي للا إله إلا الله ، لم يكن

⁽١٩٦) أخرجه أحمد وأبو داود . (١٩٧) سورة البقرة [٢١٧].

يقول لهم : لا تأكلوا حتى تصححوا اعتقادكم ، ولاتبيعوا ولاتشتروا ، ولاتبحثوا لأنفسكم عن مصدر رزق حتى تفهموا جيدا معنى لا إله إلا الله !

هذا أمر لايتصوره عاقل!

ولكنه كان يربيهم _ وهم يأكلون ويشربون ، ويبيعون ويشترون ، ويمشون فى مناكب الأرض _ كان يربيهم على المقتضيات الحقيقية للا إله إلا الله ، بحسب تنزلها من عند الله ، حتى يستقيم سعيهم كله ، ويصبحوا فى النهاية «خير أمة أخرجت للناس »

وحين نقول اليوم: إنه لابد من تصحيح مفاهيم الإسلام بدءا بمفهوم لا إله إلا الله نقصد هذا الذي صنعه رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ أو أول مرة . ولانقصد تعطيل البحث عن الخبز ، أو تسليح الجيوش ، أو إنشاء المصانع ، أو فتح المدارس حتى يتم تصحيح مفهوم لا إله إلا الله !

نشكو اليوم ـ ونحن نحاول « الإصلاح » ـ من فقدان روح « الإحساس بالواجب » عند الناس . فلا أحد يتحرك أو يعمل انطلاقا من إحساسه بأن عليه واجبا يجب أن يؤديه . إنما يعمل ـ إذا عمل ـ لتحقيق مصلحة شخصية ، لا يبالى أن تجىء من طريق حلال أو حرام . فلا يعمل الموظف الصغير إلا أن يرتشى ، ولا يعمل الموظف

« الكبير ! » إلا أن ينهب من المال الحرام .. فكيف الطريق إلى إصلاح ذلك ؟

ونشكو من الارتجالية والفوضى فى أعالنا كلها مما يضيع علينا أموالا كثيرة وأوقاتا عزيزة وفرصا نادرة ، ويؤدى إلى بوار كثير من مشروعاتنا .. فكيف الطريق إلى الإصلاح ؟

ونشكو من النفاق والكذب والغش والخديعة وقلة الأمانة عند الناس . فكيف الطريق إلى الإصلاح ؟

ونشكو من الكسل والتواكل وانعدام الجدية فى أخذ الأمور.. فكيف الطريق إلى الإصلاح؟

ونشكو من فقدان الروح العلمية فى تناول مشكلاتنا ، لأننا نفتقد النظرة الموضوعية ـ التى لاتتدخل فيها الأهواء ـ ونكره التخطيط والتنظيم .. فكيف الطريق إلى الإصلاح ؟

ونشكو من فقدان « الروح الجهاعية » ، وغلبة الروح الفردية الأنانية الضيقة البغيضة . . فكيف الطريق إلى الإصلاح ؟

ونشكو من خيانة « زعائنا » ، وعالتهم لأعدائنا ، وتسخيرهم أوطانهم لمصلحة أعدائهم لقاء شهوة الحكم والسلطان .. فكيف الطريق إلى الإصلاح ؟

ونشكو.. ونشكو.. ونشكو.. ومر مايزيد على قرن من الزمان

ونحن نوهم أنفسنا _ خادعين أو مخدوعين _ أننا نسعى إلى الإصلاح ، ونبحث عن طريق الحلاص . .

والحصاد المر هو نهاية الطريق!

##

يحسب الذين يفكرون في فتح المدارس ، وإقامة المصانع ، وتقوية الجيوش ، وتوفير الخبز بلا قاعدة من عقيدة ، أنهم هم القوم « العمليون » « الواقعيون » « الواقعيون » الآخذون بالوسائل الصحيحة ، المتنزهون عن « الغيبيات » ، البعيدون عن الخيالات ، الواصلون – لامحالة – إلى « الحلول العملية » التي تنقذ الناس من مشكلاتهم ..

ونحن لانقول لأحد لاتفتحوا المدارس ، ولا تقيموا المصانع ، ولا توفروا الخبز ، ولاتقووا الجيوش . ولكنا نقول لهم بمل أفواهنا : إن صنعتم هذا كله بغير عقيدة صحيحة ، فالنتيجة هي ماترونه بأنفسكم من أحوال أمتكم بعد جهد مايزيد على قرن كامل من الزمان !

نفتح المدارس . فماذا ندرس فيها لأبنائنا ؟!

ننشئ وسائل الإعلام «الحديثة» فماذا نبث فيها لشعوبنا؟! ننشئ المصانع فكيف يعمل مديروها وموظفوها وعالها؟! وأين يذهب إنتاجها؟! ونسلح الجيوش . . فكيف يصنع قادتها وزعاؤها ؟!

حدثنى اللواء عبد المنعم حسنى ، حاكم غزة فى زمن النكسة ، وقد جمعنى به معتقل واحد لعدة شهور (١٩٨) ، عن استجواب اليهود له يوم وقع أسيرا فى أيديهم بسبب دخول سيارته إلى الأرض اليهودية _خطأ _ صبيحة النكسة .

قال إن أول سؤال وجهوه إليه _ بعد أن أعلموه بخبر الحرب والهزيمة ولم يكن يعلم بأيهما ! _ كان هو السؤال الآتى: أمازال يوجد إخوان مسلمون في الجيش المصرى؟!

قال لهم : بكل تأكيد لا ! ولكن لماذا تسألون؟!

قالوا: إننا لانستطيع أن ننسى ماحدث فى عام ١٩٥٦ ، حين قام اثنان من ضباط الإخوان المسلمين بتعطيل الزحف اليهودى ست ساعات كاملة عند ممر «مِثلاً » حتى قتلا على مدفعيهما!

وهكذا لايفزع اليهود من المدفع فى ذاته ، فعندهم ــ دائما ــ ماهو أفتك منه !

ولكنهم يفزعون من عقيدة الرجل الذي يقاتل وراء المدفع ...

⁽١٩٨) كان اليهود قد اعتقلوه صبيحة النكسة ثم أفرجوا عنه ، ثم اعتقله جمال عبد الناصر لأسباب لا يعرفها هو! وظل فى معتقل «القناطر» عدة أشهر حتى مات جمال عبد الناصر فأفرجوا عنه!

يفزعون من لا إله إلا الله .. لأنها أفتك من كل ما يملكون من سلاح فتاك !

والروس فى أفغانستان لايفزعون من السلاح .. فليس لدى المجاهدين الأفغان سلاح يذكر أمام الطائرات الفتاكة والدبابات المدمرة والقنابل الحارقة والغازات السامة وكل وسائل الإبادة الوحشية التي يستخدمها الروس . ولكنهم يفزعون من لا إله إلا الله ، لأنها هى التي حفظت عزيمة المجاهد الأفغاني سبع سنوات متوالية أمام هجومهم الوحشي ، بصرف النظر عن النتيجة النهائية التي يمكن أن تسفر عنها المعركة في هذا الجانب أو ذاك .

ومرة أخرى لانقول أعطوا الجندى لا إله إلا الله ولاتعطوه المدفع ، كما قد يفسر كلامنا صاحب سذاجة حقيقية أو سذاجة مصطنعة ! إنما نقول : إن المدفع وحده لايكسب المعركة ، مالم يكن الرجل الذي يقاتل وراءه صاحب عقيدة ... فلنشتر المدفع نعم ، ولكن فَلْنَقِمْ إلى جواره رجلا يؤمن حقا بلا إله إلا الله .. عندئذ لاتستطيع الذئاب أن تنهش الوطن الإسلامي وهي آمنة كما تصنع اليوم ! ولهذا السبب ذاته يحرص الأعداء _ وعملاؤهم في الداخل _ أن يخرجوا من الجيوش كل من يؤمن إيمانا حقيقيا بلا إله إلا الله ، لأنهم يعرفون جيدا حقيقة هذا الدين ، ويعرفون ماذا يمكن أن تصنع لا إله إلا الله حين يعود لها في القوب مقتضاها الحقيقي الذي كان لها يوم أنزلت من عند الله !

« الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم .. » (١٩٩١)

带 浩 张

ونعود إلى «مشاكلنا»..!

يقول «الواقعيون» «العمليون» «العلميون»: دعونا بالله من حديث العقيدة! تعالوا ننظر إلى الواقع! تعالوا إلى ملايين الأفواه المفتوحة والمعدات الجائعة .. ابحثوا معنا عن «حلول عملية» للمشاكل الاقتصادية التي يعانيها العالم الإسلامي في تخلفه المزرى وفقره المدقع وكثرة سكانه وقلة موارده ..

ونقول: نعم! ابحثوا! مازلتم تبحثون منذ قرن كامل أو يزيد.. فبأى شئ خرجتم؟!

إننا نحن _ الخياليين ، الغيبيين ، الحالمين ، المثاليين (٢٠٠٠) _ نقول : إن الأرض الإسلامية _ ببترولها ، بمعادنها ، بحاصلاتها الزراعية ، بمواردها المائية ، بمساحتها الشاسعة المتصلة ، بقوتها البشرية _ هي _ بفضل الله _ أغنى بقعة في الأرض ! ولكن أهلها هم أفقر أهل الأرض اليوم وأكثرهم مشاكل ..

⁽١٩٩) سورة البقرة [١٤٦].

⁽۲۰۰) كلمة المثالية فى مصطلحهم كلمة ذم لا مدح! بل هى فى عرفهم من أشد مايذم به إنسان! لأنها تعنى _ عندهم _ الشخص الذى يشغل نفسه بالأحلام غير القابلة للتحقيق، ويترك مشاكل « الجاهير » دون حل حقيق!

هلكان المسلمون فقراء يومكانوا مسلمين حقا ، يحققون فى واقع حياتهم مقتضيات لا إله إلا اللهكلها ، ومن بينها عارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى ، وطلب العلم ، وإعداد القوة للأعداء؟!

أم كان المسلمون هم أكثر أهل الأرض ثراء وأكثرهم تقدما وأكثرهم تمكنا في الأرض؟

ثم لما تخلفوا عقيديا (٢٠١)، فتخلفوا علميا واقتصاديا وحربيا وسياسيا وفكريا وأخلاقيا .. (٢٠٢) غلبت عليهم أوربا الصليبية فعدت على أرضهم ، وسرقت خيراتهم ، وأذلتهم واستعبدتهم ، وامتصت دماءهم ، فتضخمت أوربا على حسابهم ، وزادوا هم هزالا حتى صاروا إلى حالتهم التي صاروا إليها اليوم .

واليوم يسعون إلى تخليص أنفسهم مما حل بهم ، رافضين الرجوع إلى المنهج الربانى ، باحثين عن الاشتراكية مرة ، وعن التصنيع مرة ، وعن الاقتراض من الدول « الكبرى » مرة . . ثم تزداد المشاكل تعقدا في كل مرة . وتهبط عملات البلاد إلى الحضيض ، وتثقل الديون

⁽۲۰۱) راجع الحديث عن « التخلف العقيدى » في فصل « آثار الانحراف » من كتاب « واقعنا المعاصر » .

⁽۲۰۲) وراجع كذلك بيان الصلة بين التخلف العقيدى والتخلف العلمى والحضارى والاقتصادى والحربي والسياسي .. الخ . في نفس الفصل .

الميزانيات ، وينحط الإنتاج ، ويزداد الجوع .. وتفسد معه الأخلاق ، أو تزداد فسادا إلى فساد !

ولن نقول للناس: هلموا استردوا سيادتكم على أرضكم ومواردكم، واطردوا الغاصبين الذين استعبدوكم وسرقوكم وامتصوا دماءكم، فهذا هو السبيل لاستعادة ماكان لكم ذات يوم من قوة وتمكن..

فع أن هذا صحيح فى ذاته .. ولن يعود المسلمون إلى ماكانوا عليه من قوة وثراء وتمكن إلا حين يستردون سيادتهم على أرضهم ومواردهم ، ويمنعون عمليات السطو الضخمة التي مارسها العدو على كيانهم الاقتصادى كله ومازال يمارسها حتى اللحظة ..

مع أن هذا صحيح فى ذاته ، إلا أن بيننا وبين تحقيق ذلك جهادا طويلا قد يمتد إلى أجيال . , والأفواه الجائعة لن تصبر أياما معدودة فضلا عن أن تصبر مدى أجيال !

ولسنا نقول للقوم «العمليين » «الواقعيين » «العلميين »: كفوا عن التصنيع ، أو كفوا عن البحث عن موارد لميزانياتكم المرهقة المدينة المفلسة ..

ولكنا نقول لهم: إن أى جهد يبذل فى هذا السبيل دون رد الناس إلى المفهوم الصحيح للعقيدة ، وتربيتهم على المفهوم الصحيح ، سيظل كالإناء المملوء بالثقوب ، كلما حاولنا ملثه عاد إلى الفراغ! إن التصنيع ــ كما يقولون فى لغتهم ــ جهد « حضارى » وليس مجرد جهد آلى تقوم به الآلة ..

أما نعن فنقول: إن عارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى هى أحد مقتضيات لا إله إلا الله الكثيرة المتنوعة الشاملة . وحين يقوم التصنيع على منهج لا إله إلا الله فلن يسرق العال الوقت كما يسرقونه اليوم ف ظل « الاشتراكية ! » معتمدين على التقرب إلى ذوى السلطان بالملق والنفاق والتجسس على إخوانهم ! ولن يسرق كبار الموظفين إنتاج المصنع ويبيعوه فى السوق السوداء ليحصلوا على الثروة الحرام من أيسر سبيل ! ولن يغمض الحكام عيونهم عن كبار اللصوص لأنهم شركاؤهم فى الغنائم كلها فى نهاية المطاف!

وعندئذ فقط يؤدى التصنيع دوره الحقيقى فى دفع الفقر وزيادة الدخل ورفع قيمة العملة المحلية وتوفير وسائل القوة للبلاد فضلا عن « البركة » التى تصيب حياة الناس حين يرفعون من حياتهم لعنة الربا ، فيرفع الله عنهم المحن ، ويفتح عليهم بركات من السماء والأرض . .

* * *

يشكو « المصلحون » كما قلنا من روح الفوضى والارتجال وفقدان الروح العلمية والعملية في تناول المشكلات ..

وهذا كله صحيح .. ولكن ما سببه ؟

ألم يحاول أولئك «المصلحون» خلال قرن كامل من الزمان أن يصلحوا كل هذه العيوب ؟

فلماذا خابوا؟!

إن المنطقة التى انتشر فيها الإسلام بقدر من الله ، يقع معظمها _ كما أوضحنا فى كتاب « واقعنا المعاصر » _ فى المنطقة الحارة والمنطقة المعتدلة الحارة (إلا ماندر منها) ، وهذه البيئة _ بطبيعتها _ بيئة فوضوية تكره النظام ، عفوية تكره التخطيط ، قصيرة النفس تشتعل فوضوية ثم تنطفئ حاستها بعد قليل قبل أن تكمل إنجاز ماتحمست له! ومن هناك التقطها الإسلام ، فأنشأ منها «خير أمة أخرجت للناس » .

وما أحب أن أكرر هنا ماقلته هناك..

ولكن هذه الأمة تعلمت من دينها الانضباط والنظام وطول النفس والروح العملية والنظرة الموضوعية فى خط مضاد تماما لأثر البيئة الفوضوية الارتجالية المبعثرة.. وكان ذلك أثرا من آثار العمل بمقتضيات لا إله إلا الله الكثيرة المتنوعة الشاملة. فلم انحسر تأثير الإسلام ، حين أفرغت لا إله إلا الله من مضمونها الحقيق ، وأصبح كل المطلوب منها هو التصديق والإقرار ، عاد أثر البيئة هو المسيطر على الناس ، وعاد الناس إلى فوضويتهم ، وعفويتهم ، وتبعثرهم ، وقصر نفسهم ..

ويشكو «المصلحون» من ذلك ، ولهم الحق..

ولكن كيف السبيل إلى إصلاح هذا الأثر الطاغى للبيئة فى نفوس الناس ، فى غيبة العنصر الواحد الذى يمكن أن يتغلب على أثر البيئة ، وهو العقيدة بمفهومها الحقيق ، كما أنزلها الله أول مرة ، وكما أدت أول مرة مهمتها كاملة فى حياة الأمة (٢٠٣) ؟!

هل من سبيل ؟!

非 非 非

حين نقول للناس: إن طريق الخلاص يبدأ بتصحيح مفاهيم الإسلام كلها بدءا بمفهوم لا إله إلا الله .. فنحن نعنى مانقول على وجه التحديد ..

إننا ندرك جيدا أن لنا مشكلات سياسية واقتصادية واجتاعية وفكرية وأخلاقية ضخمة إلى حد يدعو كثيرا من الناس إلى اليأس من الإصلاح.

ولكنا ندرك كذلك أن أى محاولة للإصلاح لا تضع فى حسابها عودة الناس إلى حقيقة الإسلام ، هى محاولة فاشلة من أول الطريق .. وتجربة قرن كامل كافية للإثبات ..

⁽٢٠٣) راجع إن شئت فصل «الصحوة الإسلامية» في كتاب «واقعنا المعاصر».

إن الذين يطمعون في الإصلاح على الطريقة الغربية _ الرأسمالية أو الشيوعية _ بدعوى أن أوربا _ بقسميها _ تملك كل أسباب القوة والتمكين التي نحن محرومون منها ، فعلينا أن نتبع طريقهم لنصل إلى ذات النتائج التي وصلوا إليها من القوة والتمكين .. هؤلاء يغفلون عن مجرى السنن الربانية في حياة البشر ، لأنهم محجوبون عن نور الله ، فيفكرون وهم محجوبون .

إن الذى يجرى فى أوربا الكافرة الجاحدة هو تحقيق لسنتين اثنتين على الأقل من سنن الله:

« فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شئ .. » (٢٠٤) .

« من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها . وهم فيها لا يبخسون » (٢٠٥) .

فقد كفرت أوربا ، وفى الوقت ذاته رغبت فى الحياة الدنيا وزينتها ، وبذلت فى سبيل ذلك جهدها ، فكن الله لها فى الأرض حسب هاتين السنتين مجتمعتين .

ولكن يغفل «المصلحون» ذوو العقول المترجمة، عن أمرين معاً هما كذلك من سنن الله .

الأمر الأول أن الله لا يمكّن للمسلمين بالطريقة ذاتها التي يمكّن بها

⁽٢٠٤) سورة الأنعام [٤٤]. (٢٠٥) سورة هود [٥٠].

للكفار! إنما يمكّن لهم فقط حين يستقيمون على طريقه .

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدونني لا يشركون بى شيئا » (٢٠٦) .

أما حين يبعدون عن طريقه فلا يمكّن لهم حتى يعودوا مرة أخرى إلى الطريق.

والأمر الثانى أن هذا التمكين ـ على الكفر ـ لا يستمر إلى الأبد .. إنما هو مرحلة زمنية محدودة يقدرها الله ـ سبحانه وتعالى ـ ثم تكتمل السنة بالتدمير على الكافرين :

« فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شئ ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين » (٢٠٧) .

وقد بدأ اليوم يظهر للغرب ذاته أن حضارته آخذة في الانهيار، مها بدا أن ذلك بعيد الحدوث!

« فهل ينظرون إلا سنة الأولين ؟ فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن

⁽٢٠٦) سورة النور [٥٥].

⁽٢٠٧) سورة الأنعام [٤٤_٥٤].

تجد لسنة الله تحويلا » (۲۰۸) .

وذلك كله فضلا عن حقيقة ضخمة تغفل عنها أوربا الكافرة _ لأنها كافرة _ أما الذين يقولون إنهم مسلمون فلا ينبغى لهم أن يغفلوا عنها ، وإلا أصبحوا _ مثل «إخوانهم » _ كافرين !

إن الذى تستمتع به أورباً على أنه محدود الأمد ، وخالٍ من البركة التى يخص بها الله المؤمنين وحدهم ـ هو متاع الحياة الدنيا وحدها ، وليس لهم فى الآخرة إلا النار :

« من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعالهم فيها ، وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار ، وحبط ماصنعوا فيها ، وباطل ما كانوا يعملون » (٢٠٩) .

« والذين كفروا يتمتعون ، ويأكلون كمّا تأكل الأنعام ، والنار مثوى لهم » . (٢١٠)

أما المسلمون فإنهم لا يسعون لهذا! إنما وعدهم الله الاستخلاف والتمكين والتأمين في الأرض _ وهو أقصى مايطمع فيه الذين يريدون الحياة الدنيا _ ووعدهم كذلك أن يفتح عليهم في الحياة الدنيا بركات من السماء والأرض ، محجوبة عن الكفار مها كثرت عندهم

⁽٢٠٨) سورة فاطر [٤٣]. (٢١٠) سورة القتال [٢١٦].

⁽۲۰۹) سورة هود [۱۹ - ۱۹].

الخيرات ، مع طمأنينة القلب التي يفتقدها الكفار لأن طريقها هو ذكر الله وهم لا يذكرونه . . ووعدهم فوق ذلك كله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ورضوان من الله أكبر :

« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » (٢١١) .

«الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب » (٢١٢).

« وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ومساكن طيبة في جنات عدن . ورضوان من الله أكبر . ذلك هو الفوز العظيم » (٢١٣) .

فنذا الذى يشتبدل النار بالجنة ، ويزعم بعد ذلك أنه من المسلمين ؟!

排 排 排

طريق الخلاص هو تصحيح المفاهيم الإسلامية كلها بدءا بمفهوم لا إله إلا الله ..

⁽٢١١) سورة الأعراف [٩٦]. (٢١٣) سورة التوبة [٧٧].

⁽٢١٢) سورة الرعد [٢٨].

ولسنا نزعم للناس أن هناك عصا سحرية ستمتد إليهم فتحل لهم مشكلاتهم بمجرد أن يصححوا فى نفوسهم مفاهيم الإسلام ، ويعودوا . إلى ممارسته فى عالم الواقع . .

بل نحن نندرهم حربا ضروسا يشنها العالم كله عليهم ، كما يشن الكفر حربه على المسلمين اليوم فى أفغانستان . فضلا عن الجهد «الموضوعي » الذي يجب أن يبذلوه لإيجاد الحلول العملية لمشكلاتهم ، مستمدة من شريعة الله ، ومنهجه الذي ينبغي أن يحكم الحياة ، سواء في إزالة التخلف الاقتصادي أو العلمي أو الحضاري أو التكنولوجي أو الحربي أو الفكري أو السياسي . . الخ . . الخ . . الخ . . الخ . .

وهنا قد يقول قائل: إذا كنا سنبذل الجهد فى الحالتين ، فلماذا نتعب أنفسنا فوق الحد . لماذا لا نأخذ الحلول الجاهزة من أوربا عربها أو شرقها على مزاج كل منا ونوفر على أنفسنا عداء العالم كله لنا ، والجهد الذى سنبذله فى مواجهة ذلك العداء؟!

والجواب على هذا التساؤل هو تجربة قرن كامل!

قرن كامل لم تحل فيه المشاكل الأساسية بل زادت تعقدا وحدّة ، فضلا عن المزيد من الهوان والذل والضياع والتيه ..

وإنها لجماقة مرة أن يستزيد الإنسان من السم ، ويتوهم فى كل مرّة أنه مقبل على الشفاء!

أما طريق الإسلام فهو طريق شاق نعم .. مجهد نعم .. محفوف بالمخاطر نعم .. ولكنه طريق الأحرار ..

أما طريق العبيد.. فهو طريق العبيد!

* * *

ولا إله إلا الله التي ندعو إليها ليست هي التي دعا إليها المرجئة القدامي أو المحدثون!

إن التي دعا إليها المرجئة _ القدامي والمحدثون _ وهي « التصديق والإقرار » ، لا تغير شيئا من الواقع المر الذي يعيشه الناس اليوم ، فضلا عن كونها هي التي تصد الشباب « المثقف » عن الإسلام ، وتبعده عن الطريق الأوحد الذي يتحقق فيه الخير الحقيق . . خير الدنيا والآخرة على السواء ، لأننا حين نقول لذلك الشباب المفتون بالغرب إن المجتمعات القائمة اليوم إسلامية ، وإن هذا الغثاء الذي يعيش اليوم هو « المسلمون » . . فكيف نتوقع منه أن يتجه إلى الإسلام لحل مشكلة واحدة من مشكلاته ؟ ! وكيف نطمع في أن يقيم وجهه (٢١٤) ، ويقيم رقبته الملوية نحو الغرب ؟ !

إنما لا إله إلا الله التي ندعو إليها هي التي أنزلها الله في كتابه المنزل،

⁽٢١٤) يقول تعالى: "فأقم وجهك للدين حنيفا " [سورة الروم: ٣٠].

وعلمها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأصحابه ، ومارسها السلف الصالح رضوان الله عليهم .

إنها لا إله إلا الله ذات المقتضيات ..

توحيد الاعتقاد. توحيد العبادة. توحيد الحاكمية. التخلق بأخلاق لا إله إلا الله. القيام بالتكاليف الربانية التي تشمل طلب العلم، وعارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى، وإعداد العدة لأعداء الله، ونشر الدعوة في الأرض، والجهاد في سبيل الله.

وحين تبرأ لا إله إلا الله فى قلوب الناس مما أصابها من الفكر الإرجائى ، خاصة فكر المرجئة المحدثين الذى أفرغها من كل مقتضياتها على الإطلاق ..

حين يصبح مقتضاها فى حياة الناطقين بها أن يعبدوا الله وحده بلا شريك ، وأن يقيموا حياتهم على شريعة الله ومنهجه ، وأن يجاهدوا فى الله حق جهاده . .

يومئذ ستتغير حياتهم كلها . وينفضون عنهم الهوان والذل . والضياع والتيه ، والفقر والجهل والمرض ، ويمكن الله لهم مرة أخرى في الأرض كما وعد الله سبحانه . لا بعصا سحرية ، ولكن بالجهد والعرق والدماء والدموع . ولكنه لن يكون كالجهد الذي يبذلونه اليوم في التيه ، والعرق الذي يبذلونه في الذل ، والدماء التي يبذلونها ضريبة

لذلك الذل ، والدموع التي يسكبونها حسرة على الضياع ..
إنما ستكون كلها في سبيل الله .. فيبارك الله بها في الحياة الدنيا ..
ويجزى عليها في الآخرة بالجنة والرضوان .

مفهوم العبادة

من أخطر الانحرافات التي وقعت فيها الأجيال المتأخرة من المسلمين ــ بعد انحرافهم في قهم لا إله إلا الله ــ انحرافهم في تصور مفهوم العبادة .

وحين يعقد الإنسان مقارنة بين المفهوم الشامل الواسع العميق الذى كانت الأجيال الأولى من المسلمين تفهمه من أمر العبادة ، والمفهوم الهزيل الضئيل الذى تفهمه الأجيال المعاصرة ، لايستغرب كيف هوت هذه الأمة من عليائها لتصبح فى هذا الحضيض الذى تعيشه اليوم ، وكيف هبطت من مقام القيادة والريادة للبشرية كلها ، لتصبح ذلك الغثاء الذى تتداعى عليه الأمم تنهشه من كل جانب ، كما تنهش الفريسة الذتاب . ويعلم الإنسان فى الوقت ذاته الطريق الذى ينبغى أن تسلكه الصحوة الإسلامية وهى تجاهد لرفع هذا الغثاء من حضيضه الذى يعيش فيه ، ليعود كما أراده الله أن يكون : « خير أمة أخرجت للناس » (۱)

كان المفهوم الصحيح للعبادة في حسن الأجيال الأولى أن عبادة الله

⁽١) سورة آل عمران [١١٠]

هي غاية الوجود الإنساني كله ، كما فهموا من قوله تعالى : « وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » (٢) .

إن هذه الآية الكريمة كانت تمثل في حسهم معنى هائلا جدا ، وعميقا جدا ، وشاملا لكل حياة الإنسان . فالقرآن نازل بلغتهم ، وهم يفهمون إيجاءات تلك اللغة ، ويدركون أسرار بلاغتها . فيدركون من معنى الآية أن غاية الوجود الإنساني كله محصورة في العبادة لاتتعداها إلى شئ غيرها على الإطلاق . فالنفي والاستثناء هما أقوى صور الحصر والقصر في اللسان العربي . ومعناهما النفي البات من جهة والحصر الكامل من الجهة الأخرى : ننى أى غاية للوجود البشرى غير عبادة الله ، وحصر غاية هذا الوجود كله في عبادة الله ! (٣)

⁽٢) سؤرة الذاريات ٢٥٦٦

⁽٣) يثير بعض الناس جدلا ذهنيا لا طائل وراءه ، مفاده أن الإنسان خلق للابتلاء لا للعبادة ، استنادا إلى قوله تعالى: «إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه» [سورة الإنسان: ٢] وقوله تعالى: «خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً» [سورة الملك : ٢] وقوله تعالى: «إنا جعلنا ماعلى الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً» [سورة المكهف: ٧] والقرآن لايناقض بعضه بعضا إنما يفسر بعضه بعضا ويفصله . قلا تناقض بين هذه الآيات جميعا ، إذ أن الابتلاء الذي يتعرض له الإنسان في حياته الدنيا هو جعل ما على الأرض زينة لها ثم اختبار الإنسان في موقفه من هذه الزينة : هل يلتزم فيها بعبادة الله، أي يقف في استمتاعه بها عند ماأحل الله ، أم يعبد الشيطان فيتجاوز حدود الله ؟ ومن ثم تصبح عبادة الله هي المطلب ، وهي غاية الوجود الإنساني ولاشئ سواها .

وكانوا إلى جانب ذلك يحسون إحساسا صادقا بعظمة الله _ جل جلاله _ فيحسون تبعا لذلك بما ينبغى للعبد _ فى مقام عبوديته _ تجاه الله _ فى مقام ألوهيته _ من إخلاص العبودية له . وإخلاص العبادة . . سواء .

ومن ثم لم ينحصر مفهوم العبادة فى حسهم فى نطاق الشعائر التعبدية وحدها ، كما انحصر فى حس الأجيال المتأخرة التى جاءت بفهم للإسلام غريب عن الإسلام .

إن شعائر التعبد لا يمكن بداهة أن تكون هي كل « العبادة » المطلوبة من الإنسان. فما دامت غاية الوجود الإنساني كما تنص الآية الكريمة محصورة في عبادة الله ، فأنّى يستطيع الإنسان أن يوفي العبادة المطلوبة بالشعائر التعبدية فحسب ؟!

كم تستغرق الشعائر من اليوم والليلة ؟ وكم تستغرق من عمر الإنسان ؟

وبقية العمر؟ وبقية الطاقة؟ وبقية الوقت؟ أين تنفق وأين تذهب؟ تنفق. في العبادة أم في غير العبادة ؟ وإن كانت في غير العبادة فكيف تتحقق غاية الوجود الإنساني التي حصرتها الآية حصرا كاملا في عبادة الله ؟ وكيف يجوز للإنسان ــ من عند نفسه ــ أن يجعل لوجوده ــ أو لجزء من وجوده ــ غاية لم يأذن بها الله ؟

إن الإنسان لايستطيع ـ مها حلول ـ أن يقضى واجب العبادة المفروض عليه نحو الله من خلال الشعائر التعبدية وحدها ، من صلاة وصيام وزكاة وحج . .

ليس الإنسان مَلَكاً .. ولن يكون .

والملائكة _ وحدهم فيا نعلم _ هم ذلك الخلق النورانى الشفيف الذى يسبح الليل والنهار لايفتر: « ومن عنده لايستكبرون عن عبادته ولايستحسرون . يسبحون الليل والنهار لايفترون » (1) وهم _ وحدهم _ الذين لا يعصون الله فى أمر من الأمور : « لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون » ($^{(0)}$).

أما الإنسان ، ذلك الكائن المخلوق من قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله ، المشتمل _ إلى جانب روحه الشفيفة _ على جسد يكدح وينزع ، ويأكل ويشرب ، ويتعب وينام ، وعقل يفكر فى تدبير مطالب الحياة الحسية والمعنوية ، ويسرح بخواطره فى شتى المجالات ، فإنه لايستطيع أن يعبد الله على طريقة الملائكة التى تسبح الليل والنهار لاتفتر ، ولاتنشغل عن التسبيح ..

ولو شاء الله أن يكلف الإنسان العبادة على طريقة الملائكة لمنحه طاقة الملائكة في التسبيح الدائم بغير فتور ، ولركبه منذ البدء تركيبا

⁽٤) سورة الأنبياء [١٩ ـ ٢٠]

⁽٥) سورة التحريم [٦]

آخر ، لايفتر ولايكل ولايمل ، لأن الله من رحمته لايكلف نفسا إلا وسعها ، ويجعل العبادة المفروضة على كل كائن من خلقه متناسبة مع طبيعة ذلك الكائن ، ومع حدود طاقاته ..

والكون كله _ بما فيه من كائنات _ عابد لربه بأمر ربه (٦) .. وكل على طريقته الخاصة كما هيأه الله :

« وإن من شئ إلا يسبح بحمده ، ولكن لاتفقهون تسبيحهم » (٧) .

« ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض ، والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ، وكثير من الناس ..» (^)

« ثم استوى إلى السماء وهي دخان ففال لها وللأرض ائتياطوعا أو كرها ، قالتا : أتينا طائعين » (٩) .

ولكن الله _ سبحانه وتعالى _ قد شاء أن يخلق الإنسان على نمط متفرد بين جميع الكائنات . .

« ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ، الذي أحسن كل شي خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة

⁽٦) فيما عدا العصاة من الجن والإنس. (٨) سورة الحج [١٨]

⁽٧) سورة الإسراء [٤٤](٩) سورة فصلت [١١]

من ماء مهين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلا ماتشكرون » (١٠) .

فعد مواهبه ، وعلمه من العلم مايناسب المهمة التي خلقه من أجلها :

« وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة » (١١) . « وعلم آدم الأسماء كلها » (١٢)

وسخر له من الأدوات مايعينه على هذا الأمر:

« وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعا منه » (١٣) وهيأه من خلال ذلك كله لحمل الأمانة التي أشفقت من خملها السماوات والأرض:

« إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الإنسان .. » (١٤)

وهو فى ذلك كله _ ومن ذلك كله _ فى كبد دائم وفى كدح : « لقد خلقنا الإنسان فى كبد » (١٥)

⁽١٠) سورة السجدة [٦- ٩] (١٤) سورة الأحزاب [٧٧]

⁽١١) سورة البقرة ٢٠٠] (١٥) سورة البلد [٤]

⁽۱۲) سورة البقرة [۳۱]

⁽١٣) سورة الجاثية [١٣]

« يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه »(١٦)

ثم إن الله فرض عليه عبادة تناسب تكوينه وتناسب مهمته: تناسب طاقاته المتنوعة ، والكبد الذي يعانيه ، والكدح الذي يلازمه ، وتناسب في الوقت ذاته مواهبه التي اختص بها بين الكائنات ، ومحالات نشاطه الواسعة ، والأمانة التي يحملها .. عبادة لا تعنته في شئ ، ولا تكلفه مالايطيق ، وتتسع في الوقت ذاته حتى تشمل وجوده كله وعمره كله من لحظة التكليف إلى لحظة الموت ، لا تند عنها لحظة واحدة من لحظات الوعى ، ولا لحجة ولا خاطر ولا لون من ألوان النشاط :

«قل: إن صلاتی ونسکی و عیای و ماتی لله رب العالمین $V^{(1)}$ له ...» (۱۷)

تلك هى العبادة التى كلف بها الإنسان، تشمل الصلاة والنسك _ أى الشعائر التعبدية _ وتشمل معها كل الحياة . وكذلك فهم الجيل الأول _ رضوان الله عليهم _ معنى العبادة . .

لم يحصروها قط فى داخل الشعائر التعبدية ، بحيث تصبح اللحظات التى يقومون فيها بأداء الشعائر التعبدية هى وحدها لحظات العبادة ، وتكون بقية حياتهم « خارج العبادة »!

⁽١٦) سورة الانشقاق [٦]

⁽١٧) سورة الأنعام [١٦٢ ــ ١٦٣]

إنما كان فى حسهم أن حياتهم كلها عبادة ، وأن الشعائر إنما هى لحظات مركزة ، يتزود الإنسان فيها بالطاقة الروحية التى تعينه على أداء بقية العبادة المطلوبة منه ، ولذلك كانوا يحتفلون بها احتفالا خاصا ، كما يحتفل المسافر بالزاد الذى يعينه على الطريق ، وباللحظة التى يحصل فيها على الزاد .

کانوا کا وصفهم ربهم: «یذکرون الله قیاما وقعودا وعلی جنوبهم » (۱۸)

أى فى جميع أحوالهم ..

وكما قلنا فى أكثر من موضع فى أكثر من كتاب ، لم يكن ذكرهم مجرد الذكر باللسان ، ولا مجرد الذكر بالقلب ، إنماكان إلى جانب هذا وذاك عملا يؤدى بروح العبادة لله .

فأما الذكر على طريقة الطقطقة بالمسابح فلم يؤثر عنهم ـ رضوان الله عليهم ـ .

وأما الذكر على طريقة الخلوة التعبدية التي يغيب فيها الإنسان عن الواقع المحسوس، وينقطع عن الدنيا من أجل أن يخلو إلى ربه، فينقطع بذلك عن العمل في واقع الأرض.. فهذا أيضا لم يؤثر عن ذلك الجيل الفريد..

⁽۱۸) سورة آل عمران [۱۹۱]

ولما هم بذلك قوم من المسلمين نهاهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما رواه الشيخان :

« ذهب ثلاثة رهط إلى بيت من بيوت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما أخبروا عليه وسلم ـ فلما أخبروا كأنهم تقالوها . فقالوا : أين نحن من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد غفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر؟ قال أحدهم : أما أنا فأصوم الدهر ولا أفطر ، وقال الآخر : أما أنا فأقوم الليل ولا أنام . وقال الثالث : أما أنا فلا أتزوج النساء . فلما سمع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إنى لأخشاكم لله وأعبدكم له ولكنى أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

إنماكانوا يقومون بالعبادة وهم يمارسون الحياة فى شتى مجالاتها ، وكانت عبادتهم الكبرى هى العمل فى شتى مجالات الحياة كانوا يذكرون الله فيسألون أنفسهم : هل هم فى الموضع الذى يرضى الله عنه أم فيما يسخط الله ؟ فإن كانوا فى موضع الرضى حمدوا الله ، وإن كانوا على غير ذلك استغفروا الله وتابوا إليه :

« والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم _ ومن يغفر الذنوب إلا الله _ ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها

الأنهار خالدين فيها. ونعم أجر العاملين » (١٩)

وكانوا يذكرون الله فيسألون أنفسهم: ماذا يريد الله منا في هذه اللحظة؟ أى: ما التكليف المفروض علينا في هذه اللحظة؟ فإذا كان التكليف: «فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة» (٢٠) كان ذكر الله مؤديا إلى القيام بالجهاد في سبيل الله.

وإذا كان التكليف: « وعاشروهن بالمعروف » (٢١) كان ذكر الله مؤديا إلى القيام بهذا الواجب الذي أمر به الله تجاه الزوجات.

وإذا كان التكليف: «قوا أنفسكم وأهليكم نارا» (٢٢) كان ذكر الله مؤديا إلى القيام بتربية الأهل والأولاد على النهج الربانى الذى يضبط سلوكهم بالضوابط الربانية، ويوجه مشاعرهم وأعالهم إلى مايرضى الله.

وإذا كان التكليف: «فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور» (٢٣) كان مقتضى ذكر الله هو المشى في مناكب الأرض وابتغاء رزق الله في حدود الحلال الذي أحله الله ، لأنه إليه النشور ، فيحاسب الناس على ما اجترحوا في الحياة الدنيا .

وإذا كان التكليف: «طلب العلم فريضة » (٢٤) كان مقتضى

| | [7] | التحريم | سورة | (۲۲) |) سورة آل عمران [١٣٥ ــ ١٣٦] | 14) |
|--|-----|---------|------|---------------|------------------------------|-----|
|--|-----|---------|------|---------------|------------------------------|-----|

⁽۲۰) سورة النساء [۷۶] (۲۳) سورة الملك [۱۰]

⁽۲۱) سؤرة النساء [۱۹] (۲۲) أخرجه ابن ماجه

ذكر الله هو السعى إلى طلب العلم من أجل عارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى ، سواء كان العلم هو العلم الشرعى الذى يعرف به الإنسان الحلال والحرام ، والمباح والمندوب المكروه ، أو العلم بما فى الكون من طاقات ، لتحقيق التسخير الربانى الذى سخر الله به مافى السماوات والأرض للإنسان : « وسخر لكم مافى السماوات ومافى الأرض جميعا منه » (٢٠) وهو تسخير لايتم إلا بجهد علمى يبذله الإنسان فى التعرف على خواص المادة ومدخرات الطاقة فى الكون ، وجهد بدنى يبذله فى تحويل الخامات والطاقات إلى عمران يحقق وجهد بدنى يبذله فى تحويل الخامات والطاقات إلى عمران يحقق حاجات الناس فى الأرض ، كما يحقق لهم فوق ذلك الجال والزينة حاجات الناس فى الأرض ، كما يحقق لهم فوق ذلك الجال والزينة التي أباحها الله .

وقد مرت بنا فى الفصل السابق تلك الآيات التى وصفهم فيها ربهم ، والدلالة الواضحة لتلك الآيات :

«إن فى خلق الساوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق الساوات والأرض ، ربنا ماخلقت هذا باطلا! سبحانك! فقنا عذاب النار. ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته ، وماللظالمين من أنصار. ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا. ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفر عنا سيئاتنا ،

⁽٢٠) يسورة الجاثية [١٣]

وتوفنا مع الأبرار. ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك ولاتخزنا يوم القيامة. إنك لاتخلف الميعاد. فاستجاب لهم ربهم: أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض. فالذين هاجروا، وأخرجوا من ديارهم، وأوذوا في سبيلي، وقاتلوا وقتلوا، لأكفرن عنهم سيئاتهم، ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار، ثوابا من عند الله. والله عنده حسن الثواب» (٢٦)

ودلالتها _كما أشرنا من قبل _ أن الله سبحانه قد استجاب للتفكر والتدبر والدعاء والضراعة حين تحول هذا كله إلى عمل في واقع الحياة .

ومن مثل هذه التوجيهات المبثوثة فى كتاب الله، ومن تعليم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهم المؤمنون من الجيل الأول والأجيال التالية له، أن العبادة المطلوبة لاتنحصر فى الشعائر التعبدية، وأنها أوسع من ذلك وأشمل..

وفهموا أن الصلاة والنسك _ أى الشعائر _ إنما هى المنطلق الذى . ينطلق منه الإنسان ليقوم ببقية العبادة ، التى تشمل الحياة كلها ، بل الموت كذلك !

والموت في حد ذاته لايمكن أن يكون عبادة بطبيعة الحال لأنه

⁽۲۹) سورة آل عمران [۱۹۰_ ۱۹۹]

لاخيار للإنسان فيه . ولكن المقصود في قوله تعالى : « ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لاشريك له » هو أن يموت الإنسان غير مشرك بالله ، وذلك هو الحد الأدنى الذي يكون به الإنسان في موته عابداً لله . أما الحد الأعلى فهو أن يكون موته استشهادا في سبيل الله . . وتلك قمة العبادة . .

وبهذا النهج وحده .. أى بأداء تلك العبادة الشاملة المتكاملة ، التي تشمل الحياة والموت ، تتحقق غاية الوجود الإنساني ، ويكون الإنسان قد قام ــ قدر جهده ــ بالعبادة المطلوبة تجاه الله ..

ولقد يبدو هذا المعنى غريبا فى حس «المسلم المعاصر»، أو معتسفا، بعد إذ تعودنا منذ أجيال أن ننظر إلى الشعائر التعبدية على أنها هى كل العبادة المطلوبة من المسلم، وأنه إذا أداها فقد أدى كل ماعليه من العبادة، ولم يعد لأحد أن يطالبه بالمزيد!

ولكن مرجعنا فى تحديد المفاهيم الإسلامية ينبغى أن يكون هو الكتاب والسنة ، والصورة التطبيقية الصحيحة للكتاب والسنة كما مارسها الجيل الأول ـ رضوان الله عليهم ـ الذين شهد لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنهم خير القرون قاطبة :

« خيركم قرنى ، ثم الذى يليه » (۲۷)

⁽۲۷) أخرجه الشيخان

هذا هو المرجع . وليس ماطراً على المسلمين خلال مسيرتهم التاريخية الطويلة من قصور أو انحراف ..

ووقوع القصور أو الانحراف خلال تلك المسيرة الطويلة أمر قد لايستغرب من البشر من أبناء آدم :

« ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما » (٢٨) ولكن العجب _ فى الغربة التى يعيشها الإسلام اليوم _ أن تتبدل بالصورة الصحيحة صورة خاطئة ، ثم نصر على أنها هى الصورة الصحيحة ! . . فإذا جاء أحد يعرض علينا الصورة الصحيحة كما هى فى الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح ، اتهمناه بالغلو ، وامتنعنا عن التصحيح !

华 称 称

جاء فى الكتاب المنزل ـ كما بينا من قبل ــ أن الله قد خلق الجن والإنس لغير شئ إلا ليعبدوه :

« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » (٢٩)

ثم إن الله _ سبحانه وتعالى _ فرض على الناس تكاليف :

« واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا ، وبذى

⁽۲۸) سورة طه [۱۱۵]

⁽۲۹) سورة الذاريات ۲۹۱)

القربي واليتامي والمساكين، والجار ذي القربي، والجار الجنب، والصاحب بالجنب، وابن السبيل، وماملكت أيمانكم » (٣٠)

« إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها (٣١) ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل. إن الله نعا يعظكم به. إن الله كان سميعا بصيرا. يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم. فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر. ذلك خير وأحسن تأويلا » (٣٢).

« فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة . ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظما » (٣٣) .

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبؤن به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لاتعلمونهم، الله يعلمهم. وماتنفقوا من شئ في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لاتظلمون » (٣٤)

« وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » (٣٥) .

⁽۳۰) سورة النساء [۳۳]

⁽٣١) وفى مقدمة الأمانات كلها الإقرار بالعبودية لله الواحد، ويشمل هذا الإقرار الاعتقاد الجازم بوحدانية الله، وأداء الشعائر التعبدية له وحده بلاشريك. وتحكيم شريعته فى كل أمر من الأمور.

⁽٣٢) سورة النساء [٥٨ - ٥٩] سورة الأنفال [٣٠٠]

⁽٣٣) سورة النساء [٧٤]

« هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من (٣٦)

« وأقيموا الوزن بالقسط ولاتخسروا الميزان » (٣٧) .

وعشرات غيرها من التكاليف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والروحية والاعتقادية والأخلاقية ..

كما فرض رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ تكاليف :

« طلب العلم فريضة ...» (٣٨)

« إن الله كتب الإحسان على كل شئ. فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته ، (٣٩)

«اجتنبوا السبع الموبقات. قيل: يارسول الله وماهن؟ قال: الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » (١٠٠)

⁽٣٦) سورة الملك [١٥]

⁽٣٧) سورة الرحمن [٩]

⁽٣٨) أخرجه ابن ماجه

⁽٣٩) أخرجه مسلم وأبو داود والنسالي وابن ماجه

⁽٤٠) أخرجه مسلم

« إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه ، وإذا شرب فليشرب بيمينه ، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله » (٤١)

« ياغلام : سَمِّ الله ، وكل بيمينك ، وكل مما يليك » (٤٢)

«أمرنا رسول الله بسبع ونهانا عن سبع . أمرنا بعيادة المريض ، واتباع الجنائز ، وتشميت العاطس ، وإبرار القسم أو المقسم ، ونصر المظلوم ، وإجابة الداعى ، وإفشاء السلام ، ونهانا عن خواتيم أو تختم بالذهب ، وعن شرب بالفضة وعن المياثر ، وعن القسى ، وعن لبس الحرير والإستبرق والديباج » (٤٣)

«ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب ، يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون مالا يفعلون ، ويفعلون مالا يؤمرون . فن جاهدهم بيده فهو مؤمن . ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن . ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن . وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خودل » (٤٤) .

وعشرات غيرها من التكاليف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والروحية والاعتقادية والأخلاقية ..

| _ | | , |
|-----------------|------------|---|
| (٤٣) أخرجه مسلم | أخرجه مسلم | (|
| (٤٤) أخرجه مسلم | أخرجه مسلم | |

فما موضع ذلك كله من العبادة التي بيّن الله ــ سبحانه وتعالى ــ أنها هي وحدها الغاية من خلق الجن والإنس ؟

هل تقع تلك التكاليف كلها فى داخل العبادة أم فى خارجها ؟ وإذاكانت فى خارجها فكيف يستقيم المعنى فى الآية الكريمة التى تحصر التكليف كله فى العبادة وحدها ، ولاشئ سواها ؟

لابد إذن _ بداهة _ ألا تنحصر العبادة فى الشعائر التعبدية وحدهاكما ظنت الأجيال المتأخرة من المسلمين، وأن يكون معنى العبادة هو المعنى الشامل الواسع الذى تحمله الآيتان الكريمتان:

« قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين » (١٠٠) . .

وواضح أن الخطاب في الآيتين موجه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنه موجه للأمة كلها من ورائه ، وأن الخصوصية لرسول الله صلى الله عليه وسلم هي في كوفه أول المسلمين ، وليست في التكليف ذاته ، الذي هو تكليف لكل مسلم يشهد أنه لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .

وكذلك فهمت الأجيال الأول معنى العبادة كما فرضها الله .. كان إحساس المسلم فى تلك الأجيال بواجبه فى الجهاد فى سبيل (٤٥) سورة الأنعام [١٦٧ – ١٦٣]

الله كإحساسه بواجبه فى الصلاة. هنا يعبد الله وهناك يعبد الله. ولاتغنى إحدى العبادتين عن الأخرى ، لأن كلا منها _ بمفردها _ لاتحقق المعنى الكامل للعبادة التى يريدها الله.

وكان إحساسه بضرورة الزواج لكى يحصن نفسه من الفاحشة ، ولكى يتخذ السبيل إلى تكثير الأمة المسلمة التى تجاهد لاقتلاع الشرك من الأرض ، ونشر التوحيد وإقامة شريعة الله فى ربوعها ، هو إحساس العبادة . ولايتناقض فى حسه معنى العبادة مع الإحساس بمتعة الجسد مادامت فى حلال أباحه الله . ولما قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم — : « وفى بضع أحدكم صدقة » دهشوا بادئ الأمر ، وقالوا : يارسول الله إن أحدنا ليأتى زوجه شهوة منه ثم يكون له عليها أجر؟! فبين لهم الرسول المعلم — صلى الله عليه وسلم — : قال : «أرأيت لو وضعها فى حرام أكان عليه فيها وزر؟ فإذ وضعها فى حلال فله عليها أجر » أبرأيت لو وضعها فى حرام أكان عليه فيها وزر؟ فإذ وضعها فى حلال فله عليها أجر » أبرأيت لو وضعها فى حرام أكان عليه فيها وزر و فإذ وضعها فى حلال فله عليها أجر » (٢٤٠) ومن ثم لم يعودوا بعد ذلك يدهشون . وعلموا أن نشاط الجسد الطبيعى هو فى الإسلام عبادة مادام يبتغى فيه وجه الله ، ويلتزم فيه بأوامر الله .

كذلك كان إحساس المسلم بسعيه فى طلب الرزق ، وطلبه للعلم ، وعارته للأرض ، وكل نشاط جسده وعقله وروحه . . كلها عبادة .

⁽٤٦) أخرجه مسلم

عبادة على الحقيقة لا على المجاز. عبادة يقوم بها بذات الإخلاص الذي يؤدى به الصلاة.

ومن ثم حققت تلك الأمة ماحققته من منجزات فى كل اتجاه ، وما حققته من معجزات ..

وماكانت تلك الأمة لتقدر على دك حصون الشرك واقتلاعها بمثل هذه السهولة ، وبمثل هذه السرعة التي لامثيل لها في التاريخ.

وماكانت لتقدر على إبراز تلك المثل الرفيعة التى أبرزتها فى عالم الواقع ، من إقامة العدل الربانى فى الأرض ، ونظافة التعامل ، والوفاء بالمواثيق ، وشجاعة النفس ، والبطولة الفذة فى ميدان القتال وميدان السلم سواء . .

وماكانت لتقدر على إنشاء حركتها العلمية الضخمه ، ولاحركتها الحضارية الفائقة . .

ماكانت لتقدر على ذلك كله ، ولا على شيء منه ، لولا هذا الإحساس العميق لديها بأنها فى ذلك كله تقوم بالعبادة التى خلق الله الإنسان من أجلها ، وتقوم به بذات الحس التى تؤدى به الصلاة ..

* * *

على أى صورة إذن ينبغى أن يعبد المسلم ربه ليحقق غاية وجوده التى خلقه الله من أجلها ، وحصر فيها غاية وجوده ؟

يعبده بادئ ذي بدء بتوحيده جل وعلا ..

أى بالإقرار بأنه لا إله إلا هو_ سبحانه_ المتفرد بالربوبية والألوهية ، المتفرد في أسمائه وصفاته وأفعاله :

 $^{(4)}$ $^{(4)}$ $^{(4)}$ $^{(4)}$ $^{(4)}$ $^{(4)}$ $^{(4)}$

« واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا » (٤٨)

وهذه العبادة الأولى - كما أسلفنا فى الفصل السابق - لهامقتضياتها التى لاتتم إلا بها ، وليست مجرد كلمة تنطق باللسان وينتهى الأمر و «تسدد الخانة» ، كما زعم الفكر الإرجائى للناس بغير سند من كتاب الله ولا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

ومقتضياتها _ كما مر بنا من قبل _ هى الإسلام كله! مع الحتلاف فى درجة «الإلزام».. فمن مقتضياتها مايتعلق بأصل الإيمان _ كالاعتقاد بوحدانية الله بلا شريك ، والتوجه بالشعائر التعبدية إليه وحده بلاشريك ، وتحكيم شريعته وحدها بلا شريك _ فهذا لايكون العبد مؤمنا إلا به ، ومنها مايتعلق بكمال الإيمان _ وهو أخلاقيات لا إله إلا الله ، وبقية التكاليف التي فرضها الله _ فلا يكون العبد كامل الإيمان إلا به ، وبقية التكاليف التي فرضها الله _ فلا يكون العبد كامل الإيمان إلا به .

⁽٤٧) سورة محمد [١٩]

⁽٤٨) سورة النساء [٣٦]

⁽٤٩) راجع الفصل السابق.

ثم تأتى الشعائر التعبدية فى موضعها بعد الإقرار بلا إله إلا الله ، الذى يعنى _ كما أسلفنا القول _ الإقرار بكل ماجاء من عند الله والالتزام به ..

وقد احتفى الإسلام حفاوة ظاهرة بالشعائر التعبدية لحكمة ظاهرة، فهى التى تربط القلب ربطا دائما ومتجددا بالله، وهى كما بينا عطات التزود التى يتزود فيها الإنسان بالزاد الذى يعينه على بقية الطريق.

وقد أحس المسلمون حدائما بالأهمية الخاصة التي أولاها الإسلام لهذه الشعائر، فاحتفلوا بها وركزوا عليها. ولكن الأجيال المتأخرة وقعت بشأن هذا التركيز في مجموعة من أخطاء التصور وأخطاء السوك.

وكان الخطأ الأول ـ والأخطر ـ هو حصر العبادة المطلوبة كلها في الشعائر التعبدية .

وقد ترتب على هذا التصور الخاطئ إخراج لا إله إلا الله بكل مقتضياتها الاعتقادية والسلوكية من دائرة العبادة ، فأصبحت العبادة تبدأ في حس الناس بالصلاة ، ولا تبدأ بلا إله إلا الله !

ولقد كان مبدأ التفرقة في أول الأمر قضية «اصطلاح». فلا إله إلا الله «عقيدة»، والشعائر «عبادات» ومع خطورة هذه التفرقة الاصطلاحية في ذاتها _ كخطورة التفرقة الاصطلاحية بين «العبادات» و «المعاملات» – (٥٠) فإن الخطر كان معدود الأثر فى بادئ الأمر حين كانت «العقيدة» تؤخذ بمعناها الحقيق الذى نزلت به من عند الله ، وفهمه السلف الصالح ، وهو توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات ، ومايقتضيه ذلك فى حياة الإنسان اعتقادا وفكرا وسلوكا . فأما حين عمل الفكر الإرجائى على اختزال عقيدة التوحيد ، وإفراغها من مضمونها الحي كله ، وحصرها في مجرد التصديق للنجاة في الآخرة ، والإقرار اللفظي للنجاة في الدنيا . فقد تقلص جانب ضخم من «العبادة» الحقيقية التي افترضها الله على العباد ، وأصبح الباقي منها – حتى لو التي خلق الله الحقيق للعبادة وقال عنها المعنى الحقيق للعبادة التي خلق الله الحلق من أجلها ، وقال عنها سبحانه :

« وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » (٥١)

و« المعاملات » لمقتضيات « علمية » تخصصية ، ولكن كان في حسهم أن « الدين » يشملها كلها ، ولا يقتصر على أي منها ، وأن أي واحدة منها بي بمفردها به الدين » يشملها كلها ، ولا يقتصر على أي منها ، وأن أي واحدة منها بي بمفردها لا تمثل الدين سواء في شموله وتكامله ، أو في كونه مفروضا على الناس للالتزام والتنفيذ . . ولكن حين حدث التخلخل خلال المسيرة التاريخية أثرت هذه التفرقة الاصطلاحية تأثيرا سيئا في مفاهيم الناس ، حين اقتصر مفهوم « العبادة » على أداء الشعائر التعبدية فحسب ، وخرجت منها العقيدة والمعاملات .

⁽١٥) سورة الذاريات [٥٦]

وقد يبدو لأول وهلة أن الأمر ليس بهذه الخطورة! وأن المسلمين وإن اصطلحوا على أن مفهوم العبادة هو أداء الشعائر لا يكونوا في دخيلة أنفسهم قد أغفلوا ركن الإسلام الأول وهو الإقرار بالشهادتين!

ولكن الحقيقة الواقعة في حياة «المسلم المعاصر» تؤكد خطورة الأمر..

فحين يوجد إدراك صحيح للعبادة ، وأنها تبدأ بالإقرار بالعبودية لله وحده دون شريك ، قبل الصلاة والصيام والزكاة والحج ، لا يمكن أن توجد الظاهرة القائمة اليوم في حياة «المسلم المعاصر» وهي وجود ملايين من البشر يعتقدون أن الإنسان إذا أدى الشعائر التعبدية فهو مؤمن كامل الإيمان ، ولو تحاكم راضيا إلى شريعة غير شريعة الله ، وأن قضية التحاكم منفصلة تماما عن العبادة كما هي منفصلة تماما عن الإيمان .. لأن رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ قال : هذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان » (٢٥) ! فذكر في الحديث اعتياد المساجد ولم يذكر التحاكم إلى شريعة الله !!

وأقوال رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ الثابتة حق كلها .. ولكن الأجتزاء بجديث معين من أحاديث الإيمان منقطعا عن بقية

⁽۵۲) أخرجه الترمذي وابن ماجه وأحمد والدارمي . قال الألباني : إن سنده ضعيف وكل طرقه كذلك . انظر كتابه « ضعيف الجامع الصغير » ١٨٤/١ .

الأحاديث التي تحدد حقيقة الإيمان أو تحدد نواقضه ، لايمكن أن يؤدى إلى إدراك صحيح . وإلا فهل يعقل بداهة أن يطلب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الشهادة لرجل بالإيمان (إن صح الحديث) لمجرد أنه يعتاد المساجد ، إذا كان الرجل واقعا في شرك صريح ينقض لا إله إلا الله من أساسها ، وينقض أصل الإيمان ؟! أليس الإقرار بلا إله إلا الله — ومن مقتضياتها التحاكم إلى شريعة السه – شرطا لازما للإيمان قبل اعتياد المساجد وإقامة الصلاة وإن لم يذكر ذلك في الحديث الآنف الذكر ، لأنه من المعلوم من الدين بالضرورة ، الذي بينته أحاديث أخرى للرسول – صلى الله عليه وسلم – كما بينته الآيات المحكمات من كتاب الله ؟

ولقد كان المرتدون الذين قاتلهم أبو بكر رضى الله عنه يقيمون الصلاة ويعتادون المساجد ، ومع ذلك لم يشهد لهم أحد بالإيمان! بل قوتلوا وحوربوا لأنهم أعرضوا عن حكم واحد من أحكام الله ، مع إقرارهم _ وتنفيذهم _ لبقية الأحكام . فكيف بمن يعرضون عن حكم الله كله ، ويُقْبِلُون راضين على حكم غير حكم الله ؟!

والناس اليوم قد يجهلون أن التحاكم إلى غير شريعة الله عن رضا وإرادة هو ارتداد عن الإسلام ينقض أصل الإيمان. ومانريد أن ندخل في قضية الحكم على هذا الجيل من الناس ، وهل هم

معذورون بجهلهم أم غير معذورين ، فتلك قضية لا نخوض فيها أصلا للأسباب التي بيناها في غير هذا الكتاب (٥٣).

ولكنا الآن في معرض البيان ..

إن إخراج لا إله إلا الله ومقتضياتها من دائرة العبادة ، وتوهم أن العبادة تبدأ بالشعائر ، وتنحصر فى الشعائر ، قد أحدث اختلالات ضخمة فى حياة المسلم المعاصر لايستقيم معها إسلام . ولابد من تصحيحها فى التصور وفى السلوك معا لتصحيح حياة المسلمين ، وإخراج الناس من الوهدة التى سقطوا فيها ، وأصبحوا بسبب سقوطهم هذا _ غثاء كغثاء السيل .

张 珠 张

وكان من بين ماخرج من مفهوم العبادة حين انحصرت في الشعائر التعبدية «العمل » بجميع أنواعه ، بدءا بالعمل السياسي المتمثل في رقابة الأمة على الحاكم ، وتقديم النصح له ، وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ليستقيم على أمر الله وشريعته ، ويطبق العدل الرباني كها أمره الله ، فيتمتع المجتمع بنعمة الإسلام التي من الله بها على عباده :

« اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام دينا » (١٥٠)

⁽۵۳) اقرأ إن شئت « قضية الحكم على الناس » ص ٤٣٩ ــ ٤٥٤ من كتاب « واقعنا المعاصر » . (٥٤) سورة المائدة [٣]

يقول تعالى جل شأنه :

" يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم . فإن تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر. ذلك خير وأحسن تأويلا » (٥٥)

ويقول صلى الله عليه وسلم :

« مامن نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب ، يأخذون بسنته ويقتدون بأمره . ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون مالا يفعلون ، ويفعلون مالا يؤمرون . فن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن . وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » (٥٦)

فتحدد الآية الكريمة مصدر السلطة في المجتمع المسلم: الله ورسوله, وتأمر بطاعة الله وطاعة الرسول طاعة مطلقة في كل أمر أو نهى جاء في كتاب الله أو في سنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . ثم تأمر الآية بطاعة أولى الأمر لاقائمة بذاتها ، ولا مطلقة كطاعة الله ورسوله ، ولكن معطوفة على طاعة الله والرسول ، أي فيما أمروا به غير مخالف لما جاء من عند الله والرسول ، إذ أنه لاطاعة لمخلوق في غير مخالف لما جاء من عند الله والرسول ، إذ أنه لاطاعة لمخلوق في

⁽٥٥) سورة النساء ١٩٥٦

⁽٥٦) أخرجه مسلم

معصية الخالق : « إنما الطاعة في المعروف » (٥٠)

ثم تبين الآية المرجع الذي يرجع إليه المسلمون في أي نزاع يعرض لهم : الله والرسول . ولا أحد غير هذا المرجع . كما تربط الآية هذا الأمر ، وهو الرجوع إلى الله والرسول في أي نزاع يعرض ، بالإيمان بالله واليوم الآخر ، أي بالعقيدة مباشرة. وهكذا تصبح القضية السياسية الكبرى وهي تحديد مصدر السلطة ، والمرجع الذي يرجع اليه في حالة النزاع ، قضية عقيدية مرتبطة بالأصل الذي تقوم عليه العقيدة كلها ، وهو : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

أما الحديث الذي أوردناه فيحدد سلوك الأمة حين تقع مخالفة لحكم الله ، فيقرر أن تلك المخالفة تستوجب المجاهدة باليد أو باللسان أو بالقلب لرد الأمور إلى الأصل الذي تردّ إليه الأمور كلها ، وهو ماجاء من عند الله ومن عند رسوله _ صلى الله عليه وسلم _ . ويربط هذا السلوك ربطا مباشرا بقضية الإيمان ، وذلك بنني الإيمان نفيا باتا عمن يرى المخالفة ولايقوم بمجاهدتها بدرجة من الدرجات الثلاث وأدناها الكراهية بالقلب ، إذ يقول _ عليه الصلاة والسلام _ : وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » .

وهكذا يصبح «العمل السياسي» جزءًا من العقيدة وجزءًا من العبادة ، لاخارج هذه الدائرة ولاتلك . وهكذا فهمت الأمة وهي

⁽۷۵) أخرجه الشيخان

تراجع عمر رضى الله عنه فيقول له واحد من رعبته: لاسمع لك الكيوم علينا ولاطاعة حتى تبين لنا من أين لك هذا البرد الذى ائتزت به! وتقول له امرأة من رعبته حين أمر بعدم المغالاة فى المهور: لقد حجرت واسعا! الله يقول: « وآتيتم إحداهن قنطارا » وأنت تضيق على الناس ؟! فيقول: أخطأ عمر وأصابت امرأة!

ولكن الاستبداد السياسي الذي بدأه الأمويون في حياة الأمة الإسلامية منذ وقت مبكر، مضافا إليه التفلت التدريجي من التكاليف، والصوفية التي أنشأتها ظروف معينة في حياة الأمة، والفكر الإرجائي الذي حصر الإيمان ـ الذي يدخل به الناس الجنة في التصديق والإقرار.. كل هذه العوامل مجتمعة حصرت العبادة في التصديق والإقرار.. كل هذه العوامل مجتمعة حصرت العبادة في حس الناس في الشعائر التعبدية فحسب، وأصبح الإسلام في حس الناس أقرب إلى أن يكون ممارسة فردية يقوم بها كل إنسان بمفرده، حين بعد الناس عن ممارسة «العمل السياسي» الإسلامي، وهو أبرز ماتقوم به الجاعة المسلمة من الأمور، وهو الذي استحقت من أجله وصف الله لها بأنها خير أمة أخرجت للناس.

«كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله » (٥٠)

وحين خرج العمل السياسي من دائرة العبادة تخلخلت أول

⁽۵۸) سورة آل عمران [۱۱۰]

عروة من عرى الإسلام ـ عروة الحكم ـ وإن كانت لم تنقض تماما في مبدأ الأمر ، فقد بقي الناس في المجتمع الإسلامي يتحاكمون إلى شريعة الله ، لايرون غيرها شريعة واجبة الطاعة ولا واجبة التنفيذ . ولكن صحب تحكيم شريعة الله جور من الحكام ومظالم تجعل التطبيق غيركامل كما أوجبه الله ونفذه السلف الصالح . . ومرت قرون من هذا التحكيم المصحوب بالجور والظلم حتى نقضت تلك العروة تماما في العصر الحديث حين نحيت شريعة الله عن الحكم أصلا واستبدلت بها شرائع البشر ، فكانت أول عرى الإسلام نقضا كما قال الصادق الصدوق ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لتنقضن عرى هذا الدين عروة عروة ، فأولها نقضا الحكم ، وآخرها نقضا الصلاة » (٥٩)

ومع وجود العوامل التي أشرنا أليها ، والتي أخرجت العمل السياسي من دائرة العبادة ، لم يكن من المتوقع أن يقف الانحسار في مفهوم العقيدة ومفهوم العبادة عند هذا الحد . إنما كان المتوقع أن يسرى الانحسار تدريجيا إلى بقية أنواع العمل ، فأخرجت تدريجيا من دائرة الإيمان ودائرة العبادة ، لا بمعنى أن الناس لم يعودوا يعملون ، فالإنسان لا يمكن أن يكف عن العمل في الحياة الدنيا ، وقد خلقه الله للكدح الدائم فيها :

« يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فلاقيه » (١٠)

(٩٥) أخرجه أحمد (٦٠) سورة الانشقاق [٦]

إنما بمعنى أن العمل في الحياة الدنيا انفصل في حس الناس عن دائرة الإيمان حين انحصرت هذه في التصديق والإقرار ، وعن دائرة العبادة حين انحصرت هذه في الشعائر.. فصار للعمل ركيزة أخرى غير العبادة، لتكن هي الكسب، أو هي الاقتناء والملك، أو هي الغلبة والسيطرة، أو هي المتاع الجسي أو المتاع المعنوي.. أو أي دافع من الدوافع « الذاتية » التي تدفع الإنسان للإنتاج والعمل غير مرتبطة بالإيمان بالله أو التعبد إليه .. وصنار في حس الإنسان أنه حين « يعبد » ينقطع عن العمل ، وحين « يعمل » ينقطع عن العبادة ، وصارت له ساعتان منفصلتان تماما لايربط بينها رابط: ساعة العمل وساعة العبادة ، فضلا عن ساعة ثالثة خارج العمل والعبادة جميعا ، هي ساعة اللهو أو الترويح ـ بريئا أو غير برىء! ـ فصارت كل واحدة من هذه الدوائر الثلاث منفصلة عن الأخرى ، «مقفلة » على مافيها ، ولم يعد الإنسان يصل إلى أي واحدة منها إلا بالخروج من الدائرتين الأخريين!

** ** **

لم يكن الجيل الأول الذى رباه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يفهم الأمر على هذا النحو الشائه الذى انحرفت إليه الأجيال المتأخرة . إنما كان ـ كما قدمنا ـ يفهم الحياة كلها على أنها عبادة . تشمل الصلاة والنسك وتشمل العمل كله . وتشمل لحظة الترويح

كذلك. فلا شئ في حياة الإنسان كلها خارج من دائرة العبادة التي تنحصر فيها غاية الوجود الإنساني على هذه الأرض. وإنما هي ساعة بعد ساعة في أنواع مختلفة من العبادة. كلها عبادة وإن اختلفت أنواعها ومجالاتها ونطاقاتها.

الصلاة والنسك عبادة.

والكدح عبادة ، سواء كان كدحا سياسيا أو اجتماعيا أو اقتصاديا أو فكريا أو علميا .. الخ .

والترويح عن القلوب لكي لاتكل ولاتمل عبادة.

فأما الصلاة والنسك فأمر العبادة فيها واضح لا يحتاج إلى بيان .

وأما الكدح فقد كان الأمر فيه واضحا تماما للجيل الذى رباه رسول الله عليه وسلم على عينه . الذين كانوا يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، على النحو الذى أشرنا إليه من قبل .

كان الكدح _ وهو العمل في واقع الحياة _ هو العبادة الدائمة التي يقوم بها المسلم ، والتي يتزود _ من أجل القيام بها _ بذلك الزاد الروحي العميق الذي تمنحه إياه الشعائر التعبدية ، حين يقوم بها على صورتها الحقة ، من الخلوص إلى الله ، والتجرد إليه ، والخشوع والخشية والإخبات .

وكانت العبادة في ذلك الكدح تتمثل في أمرين رئيسيين:

التوجه به إلى الله ، والالتزام فيه بما أنزل الله ، ومن ثم يتحول لتوه إلى عبادة يتقرب بها إلى الله ، ويستحق عليها الثواب من عند الله .

وأما الترويح فقد كانوا يرون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يداعب أزواجه ويدخل السرور على أهله ، ويتبسط مع أصحابه رضوان الله عليهم ويصحبهم إلى جلسة فى بستان أو ، رياضة إلى خارج المدينة ، وتقام بين يديه مباريات فى الفروسية . . وكان يدعوهم ويوجههم إلى مايجلو الكلل والملل عن قلوبهم فى غير مأثم ولا استغراق يطغى على الواجبات ، فكانوا يستشعرون أن الترويح على هذه الصورة حين تسمح به ظروفهم المكتظة بالأعباء منشط للعبادة ومعين عليها ، ومن ثم فهو داخل فى إطارها . .

وهكذا يقضون الحياة كلها في عبادة .. عبادة تشمل نشاط الروح كله ، ونشاط العقل كله ، ونشاط الجسد كله ، مادام هذا كله متوجّها به إلى الله ، وملتزَماً فيه بما أنزل الله .. وهي في الوقت ذاته عبادة لاتعنت الإنسان ولا تكلفه مالا طاقة له به ، لأنها تأخذ نشاطه الطبيعي . الذي يمكن أن يصدر عنه بحكم تكوينه ذاته ، فتحوله إلى عبادة بتلك اللمسة البسيطة العميقة في ذات الوقت ، التي توجهه إلى الله ، وتبتغي به مرضاة الله .

وهذا هو المفهوم الصحيح للعبادة كما أنزله الله .. المفهوم الشامل الواسع العميق :

«قل: إن صلاتى ونسكى ، ومحياى ومماتى ، لله رب العالمين لأشريك له .. » (٦١)

* * *

وحين كان الأمر على هذا الفهم الذى فهمه الجيل الأول من كتاب الله ومن تعليم رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم تكن هناك دوائر مغلقة في حياة المسلم ينتقل من واحدة إلى الأخرى ساعة بعد ساعة .. ولم تكن « العبادة » مجرد ساعة من الساعات ، يخرج المسلم منها إلى غيرها .. إنما كانت هناك دائرة واسعة شاملة ، ينتقل الإنسان في مختلف جوانبها من نشاط إلى نشاط ، وهو في جميع الأحوال قائم أو متحرك في داخلها يعبد الله :

« يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ..» (٦٢)

ولم يكن ذلك تطوعا منهم يتفردون به ، ويعنى غيرهم منه .. إنما كان هو الفهم الصحيح للعبادة ، والمارسة الصحيحة لها ، ثم يتفاضلون فيا بينهم لافى هذا الجوهر المشترك ، وهو شمول العبادة لكل ألوان نشاطهم ، إنما يتفاضلون فى القدر الذى يجتهد كل منهم فى تحقيقه فى شتى مجالات العبادة ، بمقدار مايوفقهم الله .

وكانت الشعائر تلتى منهم حفاوة بالغة كما قلنا ، لاباعتبارها هي

⁽٦١) سورة الأنعام [٦٦٧_ ١٦٣]

⁽٦٢) سورة آل عمران [١٩١]

بجال العبادة الأوسعد فيصبّوا فيها كل وجداناتهم ، وكل مشاعرهم ، وكل حضورهم الروحى ، وكل خشوعهم وإخباتهم لله . . إنما لأنها في حسهم – كما هي في الحقيقة – محطات التزود ، التي يتزود فيها الإنسان بالزاد لبقية الطريق . . أو النبع الذي يجدد الطاقة للقيام ببقية العبادة المفروضة على الإنسان . . وكلما نفد الزاد أو كاد يكون المسافر قد أتى إلى المحطة التالية يتزود فيها للمشوار الجديد . .

الصلاة زاد يومى يتكرر خمس مرات فى اليوم والليلة . والصيام زاد سنوى مركز مجمّع يستغرق شهرا كاملا يتقلب فيه الإنسان من عبادة إلى عبادة . والزكاة موسم أو مواسم سنوية يتطهر فيها الإنسان من الشح ، ويمارس العطاء الروحى والمادى . والحج موسم فى العمر يتجرد فيه الإنسان من متاع الأرض الزائل كله ، ويقبل على الته . . وكلها زاد . لبقية الطريق . . والعبادة تشمل كل الطريق . .

ولننظر فى بعض النماذج من سلوك الصحابة _ رضوان الله عليهم _ لندرك هذه الحقيقة العميقة الدقيقة ، وهى شمول العبادة فى حسهم لكل عمل وكل فكر وكل شعور ، وكل لحظة من لحظات العمر ، وعدم اقتصارها على لحظات معينة هى التى تؤدى فيها الشعائر التعبدية .

خد هذا الأعرابي الذي أعطاه رسول الله عليه وسلم - قسمه من الغنائم فقال: ماعلى هذا التبعتك! ولكني اتبعتك على أن

أرمى إلى هاهنا وأشار إلى حلقه بسهم فأموت فأدخل الجنة فقال : إن تصدق الله يصدقك (٦٣) .

ألم يكن فى قمة العبادة وهو يفعل ذلك ؟! وماكان فى لحظتها يؤدى شعيرة من الشعائر! إنماكان يؤدى عبادة اللحظة القائمة ، فى المناسبة القائمة ، ويؤديها على مستوى القمة فى الأداء!

وخذ هذه المرأة التي كانت تصرع فتتكشف ، فسألت رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ أن يدعو لها بالشفاء . فقال لها : إن شئت صبرت ولك الجنة ، وإن شئت دعوت الله _ عز وجل _ أن يعافيك . قالت : أصبر! قالت : فإنى أتكشف ، فادع الله ألا أتكشف ، فدعا لها . .

ألم تكن في قمة العبادة وهي تقول ذلك ؟! وماكانت في لحظتها تؤدى شعيرة من الشعائر! إنما كانت تؤدى عبادة اللحظة القائمة ، في المناسبة القائمة ، وتؤديها على مستوى القمة في الأداء!

وخذ سلمان الفارسي حين قام عمر رضى الله عنه على المنبر يقول: أيها الناس، اسمعوا وأطيعوا، فقال له سلمان: لاسمع لك اليوم علينا ولاطاعة! فقال عمر ولم يغضب ولمه؟ قال: حتى تبين لنا من أين لك هذا البرد الذي ائتزت به! فلم يغضب عمر، ونادى ابنه عبد الله بن عمر فقال له: نشدتك الله! هذا البرد الذي ائتزت

⁽٦٣) أخرجه النسالي

به أهو بردك؟ قال : نعم ! .. قال سلمان : الآن مر ! نسمع ونطع ! ها كان أ ما يتجمع شهرة من الشهاء ؟ انهاكان يتجمع ونطع !

هل كان أيهما يؤدى شعيرة من الشعائر؟ إنماكان يؤدى كل منهما عبادة! سلمان يتعبد الله بالرقابة على أعلى الحاكم للتأكد من جريان العدل الربانى مجراه، وعمر بروح العبادة فى قمتها لليغضب من مساءلة الرعية له على متر زائد من القماش!

وخذ هذا الرجل الفقير وامرأته ، إذ همّ الرجل أن يشكو فقره إلى رسول الله على الله عليه وسلم ليعطيه مايذهب عنه فاقته ، فتقول له امرأته : أتشكو الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم ؟! فيحجم الرجل ويصبر!

ألم تكن هذه لحظة عبادة؟ وفي القمة من العبادة؟!

وخذ هذا الرجل الذى خرج للقتال وفى يده تمرات ، فأعجلته ريح الجنة فلم يصبر ، فرمى التمرات من يده وهو يقول : لئن بقيت حتى أنتهى من هذه إنه لأمر يطول !!

كيف تُسَمَّى هذه اللحظات الفائقة .. إن لم تكن لحظات عبادة في أعلى القمة من العبادة ؟!

张 张 张

كذلك كان الصحابة _ رضوان الله عليهم _ يعبدون ربهم .. يعبدونه بالصلاة والنسك ..

ويعبدونه بالعمل ..

ويعبدونه بالترويح النظيف الطاهر الذى يمنع العمى عن القلوب ..

وفرق كبير بين أن تقتصر العبادة على الصلاة والنسك والشعائر، ويخرج منها العمل والترويح، وبين أن تكون كلها عبادة، يتنقل الإنسان فيها بينها ساعة بعد ساعة، ولكنه لايخرج في أي ساعة من دائرة العبادة التي يتوجه فيها القلب إلى الله، ويلتزم فيها بأوامر الله... فارق في النظافة النفسية والسلوكية...

وفارق فى نوع « الإنجاز » الذى يقوم به الإنسان فى الأرض ، فردا كان أو جماعة ..

أما فارق النظافة فواضح .

فحين يكون العمل عبادة فلن يدخله الغش ، ولا الحيانة ، ولا الكذب ، ولا الحديعة ، ولا الافتئات على حقوق الناس بالجور والظلم ، ولا ارتكاب المحرمات من أجل الكسب أو التسلط أو المتاع ...

وحين يكون الترويح عبادة فلا يمكن أن يسفل ، وأن يتفه ، وأن يسفل ، وأن يتفه ، وأن يسفل ، ولا أن يهبط بإنسانية الإنسان كما هو حادث في الجاهلية المعاصرة في ألوان « اللهو » المبذول في كل مكان ، والذي يزين كل

فاحشة سوية أو شاذة للناس.

وأما الإنجاز فقد يخيل لبعض الناس اليوم أن أضخم إنجاز فى التاريخ هو الإنجاز الذى قامت به أوربا فى عصرها الحاضر.. وقد قامت به وهى بعيدة تماما عن «الدين» وعن عبادة الله ..

وهنا لابد من التنبه إلى مجموعة من الحقائق..

فقد أنجزت الحضارة المادية المعاصرة إنجازا ضخا لاشك فيه فى بعض جوانب الحياة ، أبرزها التقدم العلمى الهائل ، والتقدم التكنولوجي الذي استخدم ثمار العلم في تيسير الحياة وتخفيف الجهد عن الإنسان ، وعبقرية التنظيم التي تسهم بدورها في تيسير الحياة وتخفيف الجهد وتوفير كثير من الوقت ، وبعض الجوانب « الإنسانية » وتخفيف الجهد وتوفير كثير من الوقت ، وبعض الجوانب « الإنسانية » الأخرى المتمثلة في « الحقوق » و « الضمانات » التي يتمتع بها الناس هناك .

ولكن الحصيلة النهائية لهذه الحضارة المادية بعيدة كل البعد عن أن تكون صورة مشرقة «للإنسان» أو صورة مشرقة له، رغم كل الجوانب المضيئة فيها، بسبب ماتحمله من جور سياسي واقتصادى واجتاعي، واستعار، وانتهاك للحرمات، وقذارة حسية ومعنوية، وتحلل أخلاق، وانطاس روحي، وانتكاس نفسي، وهبوط بالإنسان من مكانه اللائق الذي خلقه الله له، وكرمه به، لكي

يصبح في النهاية عبدا ذليلا لكل شيّ .. إلا الله! (٦٤)

وهذا هو مفرق الطريق بين الإنجاز الأوربي المعاضر وإنجاز الأمة الإسلامية حين كانت حياتها قائمة على التطبيق الصحيح للإسلام..

إن ماتقوم به أوربا اليوم ليس هو الذى قامت به الأمة الإسلامية الأولى ، ولاقريبا منه ، وإن اختلطت بعض أجزاء الصورة فى بعض الأذهان .

إن الذى قامت به الأمة الإسلامية الأولى لم يكن مجرد التوسع والفتح ، والغلبة والسلطان ، ولا مجرد إقامة حركة علمية أو حركة حضارية أو عارة مادية للأرض . فهذا كله من العطاء الربانى الذى يمنحه الله للكفار وللمؤمنين سواء :

«کُلاَّ نمد، هؤلاء وهؤلاء، من عطاء ربك، وماكان عطاء ربك محظورا» (٦٥)

وقد كان لكثير من الجاهليات التاريخية نصيب منه:

«أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان محاقبة الذين من قبلهم ؟ كانوا أشد منهم قوة ، وأثاروا الأرض ، وعمروها أكثر مما عمروها ، وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوأ

⁽٦٤) اقرأ إن شئت فصل «الديمقراطية » من كتاب «مذاهب فكرية معاصرة ».

⁽٦٥) سورة الإسراء [٢٠]

أنفسهم يظلمون. ثم كان عاقبة الذين أساءوا السُّوءى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون » (٦٦)

« فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم ، وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون » (٦٧)

إنما الذى صنعته الأمة الإسلامية هو إقامة هذه العارة وهذه الحضارة وهذه القوة الغالبة الساحقة على أساس من القيم والمثل لم تتحقق في صورة واقع عملى سلوكى إلا في تاريخ هذه الأمة الفريدة في التاريخ.

ومن شاء فليعقد مقارنة بين حركة الفتح الإسلامي وبين الغزو الاستعارى ، وبين العدل الرباني كما طبقه المسلمون في الأرض و «عدالة » الجاهلية المعاصرة بين البيض والسود في أمريكا وفي جنوب أفريقيا ، وبين الصليبية الصهيونية وبين المسلمين في فلسطين أو الحبشة أو أرتيريا أو تشاد أو الفلبين أو العالم الشيوعي ، أو أي صقع من الأرض كان فيه مسلمون تحت سيطرة غير المسلمين! وليعقد المقارنة بين وفاء المسلمين بمواثيقهم وبين مواثيق الدول التي تبرمها وهي تتحين الفرصة المناسبة لنقضها! وبين تمحض الحركة العلمية الإسلامية للخير ، وبين استخدام العلم في الجاهلية المعاصرة لفتنة

⁽٦٦) سورة الروم [٩_ ١٠]

⁽٦٧) سورة غافر ٦٧٦)

الناس عن عقيلتهم في الله ، واستخدامه في التدمير الوحشي ، واستخدامه في إفساد الأخلاق (١٨٠) ، وبين شمول الحضارة الإسلامية «للإنسان» من كل جوانبه ، الروحي منها والمادي ، وتركيز هذه الحضارة على جوانب الحياة الحسية وإهمال جانب الروح.

إن هذا بالضبط هو الفارق بين ممارسة الحياة بحس العبادة ، أى عبادة الله ، وممارستها ـ بوعى أو بغير وعى ـ عبادة للشيطان ، على تعدد الصور التي تمارس بها عبادة الشيطان !

ولقد كانت الأمة الإسلامية في ذروتها حين كانت تمارس « العمل » بحس العبادة ، فأما حين خرج العمل تدريجيا من مفهوم العبادة فقد بدأت تهبط من ذروتها درجات مختلفة من الهبوط . .

** ** **

ولم يكن العمل وحده _ بجميع مجالاته _ هو الذى خرج من مفهوم العبادة حين انحصرت فى الشعائر التعبدية . إنما كانت الطامة فى خروج « الأخلاق » من دائرة العبادة ..

إن من المزايا الكبرى لهذا الدين قاعدته الأخلاقية العزيضة الشاملة ، التي تشمل كل أعمال الإنسان.

⁽٦٨) كما تستخدم حبوب منع الحمل لإشاعة الفاحشة فى الأرض ويستخدم التلقيح الصناعى فى حل روابط الأسرة وإفساد الأنساب.

لاشئ في حياة الإنسان يخرج من دائرة الأخلاق, لاسلوكه ولافكره ولامشاعره ولا أى لون من ألوان-نشاطه ، سياسيا كان أم اجتماعيا أم اقتصاديا أم فنيا . . الخ . بل كل نشاطه مرتبط بالأخلاق وقائم على قاعدة أخلاقية نابعة من الميثاق الذي يقر فيه الإنسان بعبوديته لله :

«أفن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى! إنما يتذكر أولو الألباب، الذين يوفون بعهد الله ولاينقضون الميثاق. والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب. والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة، أولئك لهم عقبى الدار» (٦٩)

والمنيثاق قد يكون هو ميثاق الفطرة الذى أخذ عليها فى عالم الذر ، أو يكون هو العهد الذى يأخذه كل رسول على الناس أن يعبدوا الله وحده بلا شريك :

وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ! شهدنا (20)

⁽٦٩) سورة الرعد [١٩] ٢٧]

⁽٧٠) سورة الإعراف ٢١٧٢)

« ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله: واجتنبوا الطاغوت » (٧١)

ولكن المهم فى السياق أن « الميثاق » تفصل بعض مقتضياته فإذا هى مقتضيات « أخلاقية » فى أساسها ، وإن كانت تشمل أمورا اعتقادية ، وأمورا سلوكية ، وأمورا نفسية : « الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ، وأقاموا الصلاة ، وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة ..»

فيتبين لنا من ذلك منشأ الالتزام الأخلاق فى الإسلام. إنه عبادة الله ، بعد اليقين بألوهيته ، وبأن ما أنزله على رسوله ـ صلى الله وعليه وسلم ـ هو الحق. أى أنه مقتضى : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

ثم يتبين لنا من هذه الآيات ومن آيات أخرى فى كتاب الله أن الميثاق مع الله ، الذى تنشأ منه القاعدة الأخلاقية فى الإسلام ، يتسع حتى يشمل الأعمال كلها :

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما . والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما . والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ، إن عذابها كان غراما . إنها

⁽٧١) سورة النحل [٣٦]

ساءت مستقرا ومقاما . والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما . والذين لايدعون مع الله إلها آخر ، ولايقتلون النفس التي حرّم الله إلا بالحق ، ولايزنون . ومن يفعل ذلك يلق أثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ، إلا من تاب وآمن يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ، إلا من تاب وآمن الله وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات . وكان الله غفورا رحيا . ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا . والذين لايشهدون الزور ، وإذا مروا باللغو مروا كراما ، والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صا وعميانا . والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما . أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ، ويلقون فيها تحية وسلاما . خالدين فيها عستقرا ومقاما » (۲۷)

«قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم الأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس ، هم فيها خالدون . " (٧٣) .

قان [۲۳ ـ ۲۷] (۷۳) سورة المؤمنون [۱ ـ ۱۱]

وتجىء أحاديث الرسول _ صلى الله عليه وسلم _ تربط الأخلاق ربطا وثيقا بالإيمان ، وجودا وعدما :

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم فيؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت » (٧٤)

« ما آمن بی من بات شبعان وجاره جوعان وهو یعلم .. » (۵۷)

« والذي نفسي بيده ، لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه » (٧٦) .

« الإيمان بضع وسبعون (أو بضع وستون) شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق . والحياء شعبة من الإيمان » (۷۷)

«أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كان فيه خلة منهن كان فيه خلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدّث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا وعد أخلف ، وإذا خاصم فجر » (٧٨)

سئلت عائشة _ رضى الله عنها _ عن خلق رُسُول الله _ صلى الله عليه وسلم _ فقالت : كان خلقه القرآن . (٧٩)

⁽۷۷) أخرجه مسلم (۷۷) متفق عليه

⁽۷۵) أخرجه الطبراني (۷۸) متفق عليه

⁽٧٦) متفق عليه (٧٦) أخرجه مسلم.

عن سفيان بن عبد الله الثقني قال : قلت يارسول الله قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك ؟ (أو قال غيرك) قال : « قل آمنت بالله ثم استقم » (^^) . . الخ . . الخ . . الخ .

ويتبين من هذا كله أن الأخلاق جزء أصيل من هذا الدين ، ينبع نبعا مباشرا من الإيمان بالله ، ويمارسها المؤمن عبادة لله ، فلا هي أمور هامشية في حياة المؤمن ، ولا هي _ في حسه _ خارجة عن نطاق العبادة التي يتقدم بها إلى الله .

ولكن انحسار مفهوم العبادة ، وانحصارها فى الشعائر ، أخرج الأخلاق من العبادة تدريجيا . . فهاذا كانت النتيجة ؟

كانت النتيجة أنه أصبح أمراً مألوفا فى العالم الإسلامى أن تجد الرجل يصلى فى المسجد ويعتاد المساجد ثم يكذب! بينما سئل رسول الله عليه وسلم : أيكون المؤمن جبانا قال: نعم. ثم سئل: أيكون المؤمن كذابا قال: لا! (٨١)

وأصبح أمرا مألوفا أن يخرج الرجل من الصلاة بالمسجد ثم يغش المسلمين. بينا يقول رسول الله على الله عليه وسلم ... « من غشنا فليس منا » (٨٢)

⁽۸۰) أخرجه مسلم

⁽٨١) أخرجه مالك في الموطأ

⁽۸۲) أخرجه مسلم

وأصبح مألوفا أن يخرج الرجل من الصلاة وقد خان الأمانة التي الرجل من الصلاة وقد خان الأمانة التي الرجل عليها ، أو أخلف الوعد الذي أعطاه ، بينا جعل رسول الله عليه وسلم ـ ذلك من علامات النفاق !

وليس الغريب أن يتفلت الناس من قيود الأخلاق. فهى قيود ثقيلة إلا على الذين هدى الله!

ولكن الغريب أن هذا التفلت ـ بكل آثاره المدمرة في حياة الأمة ـ غير موصول في حس الناس بأمر العبادة! فالعبادة هي الشعائر.. ومن أدى الشعائر فقد أدى العبادة المطلوبة.. وأما هذه السقطات الأخلاقية فهي معيبة نعم، والوعاظ يتكلمون عنها في كل خطبة، نعم، ولكنها في دائرة أخرى غير دائرة العبادة.. فهذه «مقفلة» على الشعائر فحسب!

وأصبح من الخزى لهذه الأمة أن الجاهلية المعاصرة تصدق فى الوعد فى معاملاتها اليومية (وتحتجز الكذب للأمور السياسية!) وتؤدى الأمانة ، ولاتغش ، ولاتخون .. بينا الأمة «الإسلامية!» غارقة إلى قمة رأسها فى الكذب والغش والخيانة وخلف الوعد .. إلا من رحم الله!

إن أوربا في اعتقادنا ليست أمة ذات أخلاق حقيقية أصيلة ..

وما يوجد من أخلاقيات في معاملاتها اليومية فهو أخلاق نفعية

هدفها تحقيق المنفعة في الحياة الدنيا فحسب. ولقد تعلمت أوربا من التاجر اليهودي الذكي ، الذي سيطر على مقدرات أوربا في القرنين الأخيرين ، والأخير بصفة خاصة ، أن التودد اللطيف إلى « الزبون » والصدق معه ، والتعامل الأمين ، أدوم لكسبه ، وأدوم للانتفاع منه ، من الغش والكذب وخلف الوعد .. فراضوا أنفسهم على تلك الأخلاقيات النافعة ، وربوا عليها أولادهم تربية جادة ، يُبْذَل فيها جهد حقيقي مدروس منظم ، وتؤدي بالفعل إلى صورة طيبة المظهر في واقع حياة الناس .

وهم يقولون ـ ويعتقدون ـ أنها « قيم حضارية » ..

ونحن نشك فى ذلك كثيرا لأن الرأسمالية كلها التى تحكم الغرب وتدير شئون قائمة على ألوان كثيرة من الغش والكذب والحداع من أجل الحصول على أكبر قسط من الربح. فالربح من أى سبيل هو هدفها الأول ، وليس الصدق ولا الأمانة ولاغيرهما من الفضائل ، إنما تجىء هذه في الطريق بوصفها وسائل نافعة للحصول على أكبر قدر من الربح ، كما قدمنا من خصال التاجر اليهودى الذكى ، الذى هو عاد تلك الرأسمالية . وفى الوقت الذى لاتؤدى فيه هذه الفضائل إلى الربح ، أو يتحقق النفع بأضدادها يتخلى الأوربي بسهولة عن كثير من «أخلاقياته» كما يحدث دائما فى عالمهم السياسي المخادع ، وكما يحدث فى الاستعار ، وفى العلاقات الدولية ، وفى السياسي المخادع ، وكما يحدث فى الاستعار ، وفى العلاقات الدولية ، وفى

تعامل البيض مع الملونين . . الخ . . الخ .

أما فى الإسلام _ فى صورته الصحيحة _ فقد كانت الأخلاق قيما حقيقية أصيلة لأن هدفها لم يكن الربح المادى ، ولا كانت قائمة عليه ، إنما هدفها الوفاء «بالميثاق» المعقود مع الله، وقائمة على قاعدة «العبادة» لله . كما كانت كذلك قيما حضارية أصيلة لأنها ذات صبغة «إنسانية» غير محصورة فى جنس ولا لون ، إنما هى صادرة من «الإنسان» بوصفه إنسانا _ مؤمنا _ وموجهة إلى «الإنسان» حتى ولولم يكن مؤمنا بما يؤمن به المسلمون.

وحين كانت الأمة تمارس إيمانها الحق ، وعبادتها الحقة ، وكانت « الأخلاق » في حسها جزءا من العبادة المفروضة على المسلم المؤمن حدثت معجزات كثيرة لم تتكرر في التاريخ.

فنى أقل من نصف قرن امتد الفتح الإسلامي من الهند شرقا إلى المحيط غربا ، وهي سرعة مذهلة لامثيل لها في التاريخ كله . ولم يكن الكسب هو « الأرض » التي فتحت ، فما خرج المسلمون من الجزيرة يريدون التوسع في الأرض ! إنما كان هدفهم ، كما قال ربعي بن عامر لرستم قائد الفرس : « الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن جور الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة » .

كان الكسب الأعظم هو «القلوب» التي اهتدت بنور الله فدخلت في دين الله.

ولم يكن ذلك عن رهبة من سطوة الفاتحين ، ولا قهرا قهرهم عليه الفاتحون ! فقد أمنوهم على أنفسهم وعلى عقائدهم ، وشهد الناس بأعينهم حقيقة الأمان الذي منحه المسلمون لمن بتى على دينه ولم يشأ أن يدخل في الإسلام.

إنما كانت «أخلاق» الفاتحين من أكبر الأسباب التي فتحت قلوب الناس لهذا الدين. ولا عجب فقد كانت أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل من أكبر الأسباب في هداية من اهتدى من الناس كما شهد له ربه:

« وإنك لعلى خلق عظيم » ^(٨٣)

«فبها رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب النفضوا من حولك » (٨٤)

ولم تقف المعجزة عند السرعة المذهلة التي تم بها الفتح ، ولا عند دخول ملايين من البشر طواعية وحبا في الدين الذي أتى به الفاتحون ، ولا في تحول المهتدين إلى جنود مخلصين للعقيدة التي اعتنقوها يجاهدون لنشرها في الأرض مختارين متطوعين لايدفعهم أحد ولا يضغط عليهم أحد . إنما امتدت المعجزة إلى ظاهرة لم تتكرر قبل ولابعد ، هي دخول هذه الملايين في اللسان العربي ، حتى من بقي منهم على دينه ولم يعتنق الإسلام ، ونسى النصاري في مصر

⁽٨٤) سورة آل عمران [١٥٩]

والشام وغيرها من البلاد المفتوحة لغامهم التي كانوا يتكلمون بها ، ويؤدون بها عبادتهم وصاروا يتكلمون العربية ، ويكتبون بالعربية ، ويؤدون عباداتهم – على دينهم – بالعربية !

بل امتد الإسلام إلى رقاع واسعة من آسيا وأفريقيا – سلما – على يد تجار جاءوا للتجارة لا للدعوة ! ولكن أخلاقهم الإسلامية حببت الناس فيهم ، وفي دينهم الذي رباهم على أخلاقياته ، فدخلوا في هذا الدين !

ضَع في مقابل ذلك ما يحدث اليوم من صدٍّ عن سبيل الله يقوم به « المسلمون » بسبب سوء أخلاقهم !

إن أوربا ، بامتدادها الغربي كله حتى أمريكا ، قد وقعت اليوم في الضنك الذي أنذر به الله من أعرض عن ذكره : « ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى » (٥٥)

وهو ضنك نفسى لايخفف من آثاره كل التقدم المادى والعلمى والتكنولوجى والاقتصادى والعمرانى الذى يعيشون فيه ، بل إن «مجتمع الوفرة» الذى وصلت إليه بعض الشعوب متجاوزة به «مجتمع الرفاهية» (٨٦) قد وصل فيه الضنك النفسى إلى الذروة ،

⁽٨٥) سورة طه [١٧٤]

⁽٨٦) كانت الشعوب « المتقدمة » تبحث أولا عن رفع مستوى المعيشة ، فلما رفعته سعت إلى الرفاهية ، فلما بلغتها صارت تبحث عن الوفرة ، وهي مرحلة اقتصادية أبعد . "

متمثلاً فى القلق والجنون والانتحار والأمراض النفسية والعصبية وإدمان الخدرات والجنوح والجريمة والشذوذ وفساد الفطرة ...

والناس هناك يبحثون عن طريق الخلاص .. ومنهم من يعتنق البوذية ، ومنهم من يدخل في عبادة كرشنا ، ومنهم من يتخبط هنا وهناك ..

والإسلام هو طريق الخلاص .. أنزله الله ليخرج الناس من الظلات إلى النور ..

ومثات من الناس في الغرب يدخلون في الإسلام كل عام ..

ولكن هذه المئات كان يمكن أن تكون ألوفا وملايين لولا عوامل كثيرة تصد الأوربيين عن الإسلام ، منها الحاجز الصليبي ولاشك ، ومنها النفور من «الدين » عامة بسبب مافعلته الكنيسة الأوربية فى تشويه صورة الدين وتنفير الناس منه بفظاظتها وطغيانها .. ومنها كذلك واقع المسلمين!

إن كثيرا من الناس فى الغرب يستمعون إلى الدعاة المسلمين يحدثونهم عن الإسلام، ثم يقولون لهم بلسان الحال أو بلسان المقال: إذا كان الإسلام بهذه الصورة الجميلة التى تعرضونها، فلإذا أنتم هكذا؟! لماذا أنتم كذابون غشاشون مخادعون مخلفون للوعد غير مستقيمين فى تعاملكم... فضلا عن كونكم وبين

أنفسكم _ متعادين متباغضين لاتجتمعون على شي ؟! (٨٧)

وهكذا يقف واقع المسلمين فى وجه الدعوة إلى الإسلام ، يصد الملايين الحائرة عن طريق الخلاص !

ومع ذلك يمركثير من الناس على هذا الأمر الخطير مرورا عابرا ، لايثير عندهم أكثر من أسفٍ عابر ، ثم يهزون أكتافهم ويمضون . . ولاشك أن من أكبر أسباب ذلك خروج الأخلاق _ فى حسهم _ من دائرة العقيدة ودائرة العبادة ، اللتين هما _ فى حسهم _ دائرتان مخلقتان ، لاتوابح لها ولامقتضيات !

ومازلت أذكر داعية مرموقا له فى الدعوة جهود مشكورة يجزيه الله عنها خيراً إن شاء الله، قال محتدا على أحد الطلاب فى مناقشة لرسالة جامعية: ماعلاقة الأخلاق بلا إله إلا الله ؟! العقيدة _ كها تعلمناها _ إلهيات ونبوات وسمعيات، ولاشئ وراء ذلك! فن أين جئت بهذه العلاقة التي تريد أن تقيمها بين لا إله إلا الله وبين الأخلاق ؟!

وهكذا يُنْظُرُ إلى الأخلاق_ بعد إخراجها من دائرة العقيدة ودائرة العبادة ـ على أنها أمر «إضافي » إن وجد فنعمّا حمو! وإن لم

⁽۸۷) ينفر الغرب كذلك من التخلف الحضارى والمادى والعلمى عند المسلمين. ولكن الذى ينفره أكثر هو السوء الأخلاق الذى يرونه فى حياة المسلمين من الكذب والغش وخلف الوعد والطرق الملتوية فى التعامل.

يوجد فلا بأس! فالإيمان مستقر بقول لا إله إلا الله ، والعبادة مؤداة بالشعائر. أماهذه «النافلة» الأخلاقية فلا علينا إن أسقطناها من الحساب! ونحن طبعا لانسقطها من الحساب! فنحن «نتحدث» عنها دائما فى خطب الوعظ الأسبوعية ، والدورية ، والموسمية . وقد نعلم قبل أن نتحدث ، وبعد أن نتحدث ، أنه كلام ذاهب فى المواء . ومع ذلك لا نكف عن الوعظ الدائم طمعا فى هداية الناس! (٨٨)

ترى كم شعبة من شعب الإيمان المنصوص عليها فى حديث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد هدمت حين هدمت الأخلاق ؟! (٨٩)

사는 지는 사는

وحين ضاق مفهوم العبادة في الأجيال المتأخرة فانحصر في الشعائر، وخرج من دائرة العبادة النشاط اليومي العملي، سواء منه النشاط السياسي أو الاجتاعي أو الاقتصادي.. وخرجت منها أخلاقيات لا إله إلا الله كذلك، كثرت المعاصي بالطبع وكثر العصاة، واضطرب سير المجتمع، وكثرت فيه الانحرافات والمظالم،

⁽ ۸۸) فى النية إصدار كتيب بعنوان «كيف ندعو الناس ، نتعرض فيه لقضية الوعظ ومدى جدواه .

⁽٨٩) «الإيمان بضع وسبعون شعبة ...»

وسقط أكثر من مرة في اضطرابات عنيفة ونكبات ..

ومع ذلك فلم يكن هذا القدر هو كل السوء الذى حل بمفهوم العبادة . إنما كان مرحلة في طريق الهبوط!

لقد كان الذى مر بنا حتى الآن هو انحسار مفهوم العبادة حتى ينحصر فى الشعائر التعبدية وحدها دون سائر الأعمال. ولكن هذا الأمر ذاته قد أدى ـ بالطبيعة ـ إلى مزيد من الانحسار. على درجات!

فأما الدرجة الأولى فهى انحسار الشعائر ذاتها إلى أعمال مقصودة لذاتها ، بغير مقتضيات لها ! بحيث يصبح أداؤها فى ذاتها هو كل « العبادة » المطلوبة من الإنسان !

ولاشك أن الجيل الأول ـ الذى تلقى علمه من الكتاب والسنة ـ لم يكن يفهم الأمر على هذه الصورة!

فالكتاب والسنة قد أعطيا لكل شعيرة من الشعائر التعبدية بعدا نفسيا وسلوكيا لا يقتصر على أدائها . . بل الأصح أن تقول إنه يبدأ بأدائها . . ثم يمتد ليشمل مساحة واسعة من حياة الإنسان !

يقول الله تعالى في محكم التنزيل: « وأقم الصلاة ، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » (٩٠)

⁽۹۰) سورة العنكبوت [63]

وقال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كه كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » (٩١)

ويقول عليه الصلاة والسلام: «من لم يدع قول الزور والعمل به فلا حاجة لله بتركه طعامه وشرابه» (٩٢) ويقول: «رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش» (٩٣).

وقال تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » (٩٤)

وقال _ عليه الصلاة والسلام _ : «أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : « ياأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا ، إنى بما تعملون عليم » وقال : « ياأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم » ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء : يارب ! يارب ! ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام . فأنى يستجاب لذلك ؟ ! ، (٩٥) .

وقال تعالى: « الحج أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولافسوق ولاجدال فى الحج ، وماتفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى . واتقون يا أولى الألباب » (٩٦) .

⁽۹۱) سورة البقرة [۱۸۳] (۹٤) سورة التوبة [۱۰۳]

⁽۹۲) أخرجه البخارى (۹۵) أخرجه مسلم

⁽٩٣) أخرجه أحمد وابن ماجه (٩٦) سورة البقرة [١٩٧]

وقال: « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالًا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام. فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير. ثم ليقضوا تفهم، وليوفوا نذورهم، وليطوّفوا بالبيت العتيق . ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه . وأحلت لكم الأنعام إلا مايتلي عليكم ، فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور، حنفاء لله غير مشركين به، ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الربيح في مكان سحيق. ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب. لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق , ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على مارزقهم من بهيمة الأنعام ، فإلهكم إله واحد فله أسلموا ، وبشر المخبتين ، الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، والصابرين على ما أصابهم، والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. والبدن جعلناها لكم من شعائر الله ، لكم فيها خير ، فاذكروا اسم الله عليها صواف ، فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر. كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون. لن ينال الله لحومها ولادماؤها ، ولكنه يناله التقوى منكم . كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ماهداكم ، وبشر المحسنين » (٩٧)

⁽٩٧) سورة الحج [٧٧_ ٣٧]

ويقول ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « . . والحج المبرور (٩٨) ليس له جزاء إلا الجنة » (٩٩) .

ويقول : « من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق ، رجع كما ولدته أمه » (١٠٠)

وخلاصة هذه الآيات والأحاديث أن الشعائر التعبدية ذات مقتضيات ، وأنها لاتنتهى بذات نفسها ، أى بمجرد أدائها ، إنما تصحبها وتتبعها مقتضيات ، هى التى تعطيها معناها الحقيق ، ومهمتها الحقيقية فى حياة الأمة المسلمة .

صحيح أن الله _ سبحانه وتعالى _ تعبد هذه الأمة بهذه العبادات بالذات . والله يقضى بمايشاء لامعقب لحكمه ، وهو سبحانه يتعبد من يشاء بما يشاء بما يشاء « لايسأل على يفعل وهم يسألون » (۱۰۱) وليس لأحد أن يتعبد إلا بما فرضه الله عليه من ألوان العبادة أو بما استحبه منه سبحانه . ومن هذه الوجهة نقول: إن هذه العبادات مقصودة بذاتها لايغنى شيء عنها ، مها اجتهد العبد من عند نفسه ، ومها زعم أنه يترضى الله بما ابتدعه من عند نفسه من ألوان العبادة . . ولكن يترضى الله بما ابتدعه من عند نفسه من ألوان العبادة . . ولكن منها ، منصوص عليها نصا صريحا بحيث لاتحتاج إلى استنباط أو منها ، منصوص عليها نصا صريحا بحيث لاتحتاج إلى استنباط أو

⁽۹۸) أى الذى لا إثم فيه (۱۰۰) متفق عليه (۹۹) متفق عليه (۹۹) متفق عليه

اجتهاد (۱۰۲) ، مما يقطع بأنها ليست غاية في حد ذاتها ، وأن القيام بها دون أداء مقتضياتها يضيّع الحكمة منها ، والغاية من افتراضها . .

والقول بأن الله افترضها ليتعبد بها عباده فحسب ، ولينظر من يطيعه بالغيب ومن يعصيه ، وأنه ليس من الضرورى أن تكون هناك حكمة معلومة للبشر من وراء افتراضها ، لأن حكمتها عند الله ..

هذا القول لايوفي العبادات قدرها ، ولايغطى كل مجالها ، مع أنه صحيح في ذاته ..

فما دام الله ــسبحانه وتعالى ــ قد بين الحكمة ــ أو بعض الحكمة ــ من افتراض هذه العبادات ، فليس لنا نحن أن نلغى مانص الله ورسوله عليه من الحكمة ، ونقول : إن العبادات مفروضة لذاتها ، ولا شيء مطلوب وراءها !

مقصودة بذاتها نعم ، ولكن لا لذاتها فحسب ، وإنما لذاتها ولما وراءها من المقتضيات . فإذا قنا بها لذاتها فحسب وأغفلنا مقتضياتها المنصوص عليها فهل نكون قد أدينا العبادة التي فرضها الله ؟!

تلك هي القضية التي غفلت عنها الأجيال المتأخرة حين حصرت العبادة في الشعائر، ثم حصرت الشعائر في مجرد الأداء..

⁽١٠٢) قد يحتاج الإنسان إلى الاستنباط والاجتهاد للتعرف على الحكم غير المنصوص عليها بشأن العبادات ، أما المنصوص عليها فلا تحتاج إلى استنباط ولا اجتهاد ..

وصحيح أن الناس استنكروا ماحدث من نتائج هذا الانحسار ، حين رأوا قوما يؤدون الشعائر ثم لايعملون بمقتضاها بل يعملون بعكس مقتضاها ، فيصلون ولاتنهاهم صلاتهم عن الفحشاء والمنكر ، ويصومون ولايؤدى بهم الصوم إلى التقوى ، ويزكون وأموالهم حرام أو مختلطة بالحرام ، ويحجون فلا يزودهم الحج بالتقوى والإخبات إلى الله ، ولا يمنعهم عن شهادة الزور!

استنكروا لأن النفس تستنكر ذلك بفطرتها..

ولكنه استنكار قاصر لايصل إلى تغيير ذلك المنكر الضخم ، لأنه قد وقر حتى فى حس المنكرين أنفسهم أن أولئك قد أدوا العبادة على أى حال !!

كلا! لم يؤدوا العبادة! لقد قاموا بالشعيرة نعم! ولكنْ فرق شاسع بين أداء الشعيرة وأداء العبادة!

إنه لاتوجد عبادة واحدة فى الإسلام يقتصر المطلوب فيها على أدائها _ مجرد الأداء _ فحسب ..

إنما الأصح - كما بينا من قبل ـ أن نقول : إن العبادة تبدأ بالأداء ، ولاتتم إلا بوقوع المقتضى المطلوب من أدائها .

أو نقول بعبارة أخرى: إن أداء الشعيرة _أو العبادة_ قائما بمفرده يحكن أن يعطى «مظهرية الإسلام» في الحياة الدنيا، فتجرى ٢٣٣

الأحكام على صاحبها أنه مسلم .. ولكنه ـ وحده ـ غير مقبول عند الله .

لا إله إلا الله تبدأ بنطقها.. ولكن نطقها وحده لايحقق التوحيد، الذي هو حقيقة الإسلام، إلا أن يلتزم الإنسان التزاما سلوكيا واقعيا بما لابد من الالتزام به، وهو عدم الشرك في الاعتقاد، وتقديم الشعائر التعبدية لله وحده بلاشريك، وتحكيم شريعة الله في كل أمر من الأمور.

والصلاة تبدأ بأدائها على الصورة التى بينها الله ورسوله وتعطى مظهرية الإسلام بالأداء ، ولكنها لاتقبل عند الله حتى تؤدى مقتضاها من الانتهاء عن الفحشاء والمنكر. ومن هنا يقول سبحانه وتعالى : « فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين هم يراءون ويمنعون الماعون » (١٠٣)

وكذلك بقية العبادات ..

* * *

وحين وصل الفساد فى مفهوم العبادة إلى الحد الذى بيناه ، من حصرها فى الشعائر ، ثم حصر الشعائر فى مجرد الأداء دون تحقيق ما يتعلق بها من المقتضيات . . فقد كان هذا فسادا ضخا ولاشك .

⁽۱۰۳) سورة الماعون [۱-۷]

ومع ذلك فلم يكن الأمر ليتوقف عند هذا الحد، فمن طبيعة الانحسار أن يزداد مادام الناس لايحسون أنه انحسار، وأنهم مقصرون فى أداء الواجب، ومنحرفون عن الطريق الصحيح..

لقد كانت الأجيال الأولى تحتفل احتفالا ضخ بالشعائر التعبدية ـ وإن كانت لاتحصر العبادة فيها ـ لأنها تحس ـ كما أسلفنا أنها محطات التزود بالزاد، وتحس بحاجة المسافر إلى ذلك الزاد. (١٠٤)

لقد كانت الصلاة فى حسهم - كما ينبغى أن تكون - وقوفا بين يدى الله ، وخشوعا وإخباتا يناسب ذلك الموقف بين يدى الله . كان الله حاضرا فى قلوبهم - وكان هذا الحضور يحكم الموقف كله . فالله قريب منهم مطلع عليهم . يراهم وهم يتهيأون للصلاة ، ويراهم وهم يؤدونها ، وهم يتلون القرآن ، وهم يركعون ويسجدون ويقومون . ويحسون فى كل لحظة أنه قريب منهم ، يرقب حركاتهم وسكناتهم ، ويطلع على خفقات قلوبهم ، ويتقبل إخباتهم ، ويستجيب ويطلع على خفقات قلوبهم ، ويتقبل إخباتهم ، ويستجيب دعاءهم . فيكون لهذا كله أثره فى نفوسهم ، فتؤدى الصلاة - من دعاءهم . وظيفتها فى حياتهم . تزيدهم قربا من الله . وتنهاهم عن الفحشاء والمنكر . وتزيدهم رغبة فى طاعة الله ورسوله ، لأنهم بهذه الفحشاء والمنكر . وتزيدهم رغبة فى طاعة الله ورسوله ، لأنهم بهذه

⁽١٠٤) ورد ذكر « الزاد » صريحا فى شأن الحبج فى قوله تعالى : « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، واتقون يا أولى الألباب [سورة البقرة : ١٩٧].

الطاعة ينالون رضوان الله فى الحياة الدنيا وفى يوم الموقف العظيم .. وكان الصيام فى حسهم ـ كما ينبغى أن يكون ـ مهرجانا هائلا للعبادة ، والتقرب إلى الله بالطاعات ..

لم يكن مجرد جوع في النهار وشبع في الليل!

كان موسما يستعدون له نفسيا وروحيا كمن يتهيأ لدخول حرم قدسى ، يهيئ نفسه إليه بالخشوع والإخبات قبل أن تخطو إليه قدماه ، ومن ثم تتأثر نفسه بكل خطوة يخطوها في محيطة ، كأنما يتلقى منه إشعاعات تنفذ منه إلى الأعماق ..

كان عبادة شاملة تطهر النفس من أدران كثيرة تترسب فى النفس فى معتاد حياة الإنسان ، فيخرج عنها حين يغير نظام حياته ، ويدخل فى نظام جديد للحياة ..

فكما أن تغيير نظام الطعام يعيد النشاط إلى خلايا الجسم فيجدد حيويتها ، فكذلك التغيير النفسى الذى يحدث فى الصوم ، يجدد حياة الروح ، فتنطلق شفيفة رفافة إلى آفاق لم تكن ترتادها من قبل ، أو كانت ترتادها فهجرتها تحت وطأة المشاغل اليومية التى تتعامل مع عالم الحس أكثر مما تتعامل مع عالم الروح ، فيعيد ذلك الشهر المبارك إلى النفس طاقتها الروحية الشفيفة ، فيتجدد بناء الإنسان ، وتتوازن في نفسه المشاعر ، وتتوازن الرغبات ..

ثم إن الصيام تجنيد للنفس وتدريب على الاستعلاء على

الشهوات ، ينمى في القلوب تقواها وإخباتها إلى الله.

إن التقوى لاتكون مع غلبة الشهوات .. إنما تكون مع الانضباط الذى يلزم النفس بالحدود التى حددها الله ، وقال عنها : «تلك حدود الله فلا تقربوها » (١٠٥) أو «تلك حدود الله فلا تعتدوها » (١٠٦)

والانضباط يحتاج إلى تدريب لكى يصبخ عادة ، حتى تستسلم شهوات النفس والجسد لإرادة الإنسان ، ويصبح قيادها فى يديه ، يطلقها ــ بقدر ــ حين يشاء ، ويحبسها ــ بقدر ــ حين يشاء .

والصيام هو ذلك التدريب! وهو يتناول من الجسد والنفس أقوى دفعاتها: الطعام والشراب والجنس. ومن ثم فهو تدريب معين على التقوى:

« يا أيها الذين آمنواكتب عليكم الصيام كماكتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » (١٠٧)

وكانت الزكاة في حسهم ـ كما ينبغي أن تكون ـ زكاة للنفس والمال معاً ، وطهرا للحياة كلها حِسِيِّهَا ومعنويّها سواء .

⁽١٠٥) سورة البقرة [١٨٧]

⁽١٠٦) سورة البقرة ٢٢٩٦

⁽۱۰۷) سورة البقرة ۲۱۸۳٦

لم تكن «ضريبة» تؤدى للدولة،. ولكنها قربة تقدم إلى الله. وفرق كبير بين أن تكون ضريبة مالية أو عينية ، تمتزج في حس دافعيها بسطوة الدولة وقهرها ، وبين أن يشعر من يؤديها بأنه يتطهر بأدائها .. يغسل أدرانه ، ثم يبدأ صفحة جديدة من الكدح خالية مما يشوب بياضها. فيمشى في مناكب الأرض ليأكل من رزق الله ، متطلعا لرضوان الله يوم يلقاه :

« هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » (١٠٨)

والتطهر الذي تشير إليه الآية الكريمة: «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » (١٠٩) ليس هو التطهر من الشح وحده ، وهو المعنى القريب الذي يتبلدر إلى الذهن حين تذكر زكاة المال . ولكنه تطهير السعى كله في مناكب الأرض من أن يدخله الحرام أو يُتَوجَّه فيه بالحرام .

والإنسان الصالح الذي يهدف الإسلام إلى تنشئته ليقوم بدور الخلافة في الأرض، لابد أن يستعلى على شهوة المال من ناحية، ولابد أن يشعر برابطة الأخوة بينه وبين المؤمنين من ناحية أخرى. أخوة توجب عليه كفالة العاجزين منهم وإعانتهم على توفير الحياة

⁽۱۰۸) سورة الملك [۱۵]

⁽١٠٩) سورة التوبة [١٠٩]

الكريمة التي يكفلها الإسلام لجميع الناس.

وحين يتحرى الإنسان الطيب الحلال وهو يسعى إلى الرزق ، ويتحرى هذه الأخوة بينه وبين المؤمنين فلاشك تسمو نفسه وترتفع فتزكو كما يريدها الله: «قد أفلح من زكاها» (١١٠)

والسعى وراء الرزق من أكبر المزالق التي يتعرض لها الإنسان ، لأن هناك شهوات محببة إلى النفوس :

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا ...» (١١١)

والنفوس عرضة للاستغراق فى تلك الشهوات مالم تلتزم بالطيب الحلال من ناحية ، ومالم تنشغل من ناحية أخرى بالقيم العليا التى تستوعب مشاعر النفس وترتفع بها عن المتاع الحسى الغليظ :

«قل: أؤنبئكم بخير من ذلكم؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد ، الذين يقولون : ربنا إننا آمنا ، فاغفر لنا ذنوبنا ، وقنا عذاب النار. الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار » (١١٢)

⁽۱۱۰) سورة الشمس [۹] (۱۱۲) سورة آل عمران [۹۵_ ۱۲] (۱۱۱) سورة آل عمران [۱۶]

والحرص على التطهر في السعى وراء الرزق ، مع الإنفاق من حصيلة ذلك السعى في سبيل الله. وهما حقيقة الزكاة من أكبر المعينات للنفس البشرية لكى تستقيم على الأفق الأعلى ، ولاتسقط في حمأة الشهوات .

ومن ثم كان اشتراط الطهارة في المال الذي تؤدى زكاته: «إن الله طيب لايقبل إلا طيبا » (١١٣)

« يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ماكسبتم ، ومما أخرجنا لكم من الأرض ، ولاتيمموا الخبيث منه تنفقون » (١١٤)

ومن ثم كذلك كانت الزكاة تؤدى مقتضاها فى حياة المسلم على التساعها ، لا فى جانب المال فحسب :

« الذين يؤتون مآآتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون » (١١٥) أما الحج _ على كونه مرة فى العمر لمن استطاع إليه سبيلا ، وعلى كونه « أياما معدودات » _ فهو عبادة عميقة الأثر فى حياة المسلم حين يعيشه كما كانت تعيشه الأجيال الأولى ، التي مارست العبادة بمعناها الشامل العميق .

⁽۱۱۳) سبق ذکره .

⁽١١٤) سورة البقرة [٢٦٧]

⁽۱۱۵) سورة المؤمنون [۲۰]

إنه عبادة تشمل فى طياتها كل العبادات .. بتركيز واضح على عبادة التوحيد بالذات ..

إنه خلوص وتجرد إلى الله . . تجرد من كل ماتتعلق به النفس فى الحياة الدنيا من أهل ومسكن وموطن ومتاع . . حتى الملبس الذى تعود الإنسان أن « يتزين » به ويتأنق بخياطته على قده . .

تجرد من ذلك كله إلى الله.. وحده.. تلبية وذكرا وتوجها وصلاة ونسكا وعبادة..

وفى حشر يذكّر بيوم الحشر..

وفى شئ من الجهد والمشقة ، ولكن فى غير المعتاد من « الكدح » الذى ينفق فيه معتاد حياته . فى كدح من نوع آخر ، يشد النفس إلى اليوم الآخر بقدر ماينتزعها من متاع الأرض . .

«أياما معدودات » .. ولكنها فى حساب النفس حدث هائل عميق .. تغيير كامل شامل يتوغل فى النفس حتى أعاقها ويلق عنها خبثها كله .. لتعود كأنما هى خلق آخر .. ولد اللحظة ، ليبدأ رحلة حياة جديدة غير التى كانت من قبل ..

ومن هناكان الحج يؤدى مقتضاه فى حياة المسلم ، مصداقا لقول الرسول _ صلى الله عليه وسلم _ : « من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم

يفسق ، رجع كها ولدته أمه » (۱۱۲)

* * *

كل هذا تغيّر تغيرا عنيفا حين تغيّر مفهوم العبادة ..

فحين غفل الناس عن «مقتضيات» العبادة، من التوجه المخلص لله، والإخباث له والخشوع فى حضرته سبحانه، وحين انقطعت العبادة عن لوازمها المتعلقة بها، ونتائجها التي ينبغى أن تترتب عليها..

خين انحسرت مساحتها في نفوس الذين يؤدونها ..

حين صار المطلوب كله هو أداء الشعيرة ، وانحصرت « العبادة » كلها في هذا الأمر ، كان حريا بهذا اللون من العبادة أن ينحسر أكثر فأكثر ، حتى يصبح المطلوب هو أداء الشعيرة بأى صورة كانت . ولو كان أداء آليا بغير روح ، أو أداء تقليديا يحركه الحرص على التقاليد أكثر مما يحركه الدافع إلى عبادة الله ..

وتلك هي الصورة التي انتهت إليها العبادة في الجيل الذي شهد الانهيار..

وصلت الصلاة أن تكون مجرد حركات تؤدى بلا خشوع ولا إخبات ، ولا التفات إلى معنى مايتلي فيها من الآيات والذكر ،

⁽۱۱٦) سبق ذكره

وينصرف منها المصلى لاتكاد تحس أنها قد تركت أثرا فى نفسه ، أو انعكست على تصرف من تصرفاته ، هذا إن لم يكن قد انشغل عنها تماما _ وهو فيها _ بحساب خسائره وأرباحه ، أو شئ من سائر مشاغله اليومية !

وأصبح الصيام مجرد امتناع عن الطعام والشراب ساعات النهار ، مع نهم ضخم إلى الطعام بعد الإفطار يصل إلى حد الإسراف ، كأنما هو شهر الطعام لاشهر الصوم! فضلا عن البحث عن «المسليات» في ليل الصوم ، من عكوف على المذياع أو التلفاز ، أو ماهو أعجب من ذلك وأسوأ ، مما تنشره صحف «محتمة» في البلاد. «الإسلامية» «المتقدمة» من إعلانات تقول: إن الراقصة الفلانية «تحيي ليالى رمضان!!» في المسرح الفلاني إلى مابعد منتصف الليل ، ويعج المسرح «بالصائمين» الذي صاموا من قبل الرقص ومن بعده ، بلا حرج في صدورهم ولاتأثم ، ولا إحساس بالتناقض بين مايجرى في الليل ومايجرى في النهار ، فإنما هي _ حفظك الله _ ساعة بعد ساعة ! . . «ساعة لربك وساعة لقلبك » كما يقول التعبير الجاهلي المعاصم!

والزكاة _ إن أداها صاحب المال _ لاتمنعه من أكل الربا ولاتحرج صدره منه! فهذه عبادة وهذا عمل! ولاعلاقة ولا تداخل بين العبادة وبين العمل! فضلا عن الألاعيب والحيل التي يسترد بها «المزكى» جزءا من المال الذى تصدق به بالتحايل على من أداه إليهم من الفقراء والمساكين!

والحج فرصة هائلة للحصول على لقب «الحاج».. ولاحرج على «الحاج» بعد ذلك أن يجلف اليمين الغموس إذا اقتضت ذلك «مصلحة» التجارة أو أى نوع من التعامل يقوم به! فضلا عا يقع في الحج ذاته من أمور يذهل لها العاقل ، فضلا عن المسلم المؤمن ، من تدافع مقصود بالمناكب ، ومن «حجاج» يدوسون فوق إخوان لهم في الحج حتى يزهقوا أرواحهم غير مبالين ، من أجل الانتهاء من الرجم بأية صورة أو الانتهاء من الطواف! وفضلا عن جهالة الجاهلين الذين يتركون أركانا لايصح الحج إلا بها ، أو يرتكبون مخالفات صريحة دون فدية ولانسك .. لأنهم لايعلمون!

\$16 \$16 \$16

يقول علماؤنا: سقط الواجب بالأداء، أياً كانت صورة الأداء.. حتى وإن لم يكن له ثواب!

أو _ بلغة أخرى _ سددت الخانة وانتهى الأمر!

ويقول علماؤنا: مادام قد قام بالواجب على أى نحو فهو مؤمن لايخلد فى النار.. بل قال المرجئة: يدخل الجنة ولو لم يعمل عملا واحدا من أعمال الإسلام!

ونسلم بما يقوله علماؤنا توفيراً للجدل! بصرف النظر عن كون ا الآيات والأحاديث التي يستدلون بها تنطبق على واقعنا المعاصر أم لاتنطبق عليه!

ثم .. إذا بنا أمام أمة لاتبالى ـ إلا من رحم ربك ـ أن تدخل النار مادامت لاتخلّد فيها .. وحسبها النجاة من الحلود في النار ! وما يقول أحد إن البقاء في النار خمسين ألف سنة ثم الحروج منها برحمة من الله ، مثل الحلود فيها بلا انقطاع ..

ولكن الأمة التي لاتبالى أن تدخل النار مادامت لا تخلّد فيها .. لاتبالى أن ترسب فى الامتحان على أمل أن تلتقطها « لجان الرأفة » .. لا جرم تكون كما أسلفنا غثاء كغثاء السيل ، تتداعى عليها الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، لا يقام لها وزن ولا اعتبار ، كتلك القبيلة التي هجاها الشاعر العربى القديم :

ويقضى الأمر حين تغيب تَيْمٌ ولا يستأذنون وهم شهود!

杂 华 柴

فرق شاسع بين مفهوم العبادة كما نزل من عند الله ، وعلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم _ ووعاه الجيل الأول ومارسه ، وبين المفهوم الشائه الهزيل الضامر الذي فهمته الأجيال المتأخرة .. مارسته أم لم تمارسه !

المفهوم الأول هو الذي أخرج «خير أمة أخرجت للناس».. والمفهوم الأخير هو الذي أخرج «غثاء السيل».. ولابد من تصحيح المفاهم..

« إن الله لايغيّر مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (١١٧)

«قل: لايستوى الخبيث والطيب، ولو أعجبك كثرة الخبيث » (١١٨).

إن المسألة ليست هامشية ولاثانوية .. ولاهى مسئالة نهينة يكنى لحلها شئ من الوعظ والإرشاد .. أو حتى سيل من الوعظ والإرشاد ..

إنها مسألة تحتاج إلى بناء من جديد ..

إن العبادة على هذا النحو الشائه الهزيل الضامر، ولو قام بها الألف مليون كلهم الذين يعيشون اليوم من المحيط إلى المحيط، لن تنقذهم مما هم فيه، ولن ترفعهم من وهدة الهوان والذل التي تحيطهم من كل مكان.

لأمر بسيط .. لأنها ليست هي العبادة التي كتبها الله ، وكتب

⁽١١٧) سورة الرعد [١١]

⁽١١٨) سورة المائدة [١٠٠]

معها العزة لمن يقومون بها فى صورتها الصحيحة .. وكتب لهم التمكين والاستخلاف فى الأرض ..

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدونني لايشركون بى شيئا » (١١٩)

واثلغول كله كما هو واضح من الآبة هو على تلك « العبادة » حين تؤدى على النحو الذي كتبه الله ..

أما العبادة التي يقوم بها الغثاء الموجود اليوم من المحيط إلى المحيط – إلا من رحم ربك – العبادة التي تفرغ لا إله إلا الله من مقتضياتها ، وتجعلها مجرد كلمة تنطق باللسان ، وتخرج التكاليف كلها من دائرة العبادة ، وتفرغ الشعائر من شحنتها الحية الدافعة ، وتتركها أداء شمائها هزيلا لاروح فيه ، فإنها لاتحقق إلا هذا الحسران الذي يمارسه ذلك الغثاء في واقع الأرض .

والغثاء _ بهذه العبادة الهزيلة الشائهة الضامرة _ لايعجز عن إنقاذ نفسه فحسب ، بل هو كذلك يصد عن السبيل !

والذين يدافعون عنه ويقولون : مؤمن وسيدخل الجنة ، ولو لم

⁽١١٩) سورة التور. [٥٥]

يعمل عملا واحدا من أعمال الإسلام ، يغفلون فى حرارة دفاعهم ــ ونعتقد فيهم الإخلاص ــ يغفلون عن الأثر السيئ الذى يتركه ذلك الدفاع!

الأثر السيئ فى الغثاء نفسه ، إذ يملى له فى الحدر الذى يعيش فيه ، ولا يجعله يغير مابنفسه فيغيّر الله له ، والأثر السيئ فى الشباب «المثقف » الذى ندعوه إلى الإسلام!

فحين نقول لذلك الشباب «المثقف»: إن الإسلام هو الحل . وإن لا إله إلا الله هي الحل ، وإن العبادة الصحيحة لله هي الحل . يهزكتفيه ساخرا ويقول : هاهو ذا الإسلام موجوداً ، وهاهي ذي لا إله إلا الله موجودة ، وهاهي ذي العبادة قائمة ، ومع ذلك فأكثر الناس تأخرا هم المسلمون ، وأكثر الناس مشاكل اقتصادية وسياسية واجتاعية هم المسلمون ، وأسوأ الناس خلقا هم المسلمون ! فلنبحث عن الحل إذن خارج الإسلام ، لأنه _ وهو قائم _ عديم الأثر في حياة الناس ! غير قادر على حل مشاكل الناس !

ولابد لنا أن نكون صرحاء مع أنفسنا ومع الناس ، ونقول لهم _ بعيدا عن قضية إصدار الحكم على هذا الجيل من الناس (١٢٠) _ : إن الموجود اليوم فى حياة الناس ليس هو الدين الذى أنزله الله ، ولا

⁽١٢٠) سبق أن أشرنا إلى هذه القضية في الفصل الأول : «مفهوم لا إله إلا الله » وفي كتاب » واقعنا المعاصر » فصل : «الصحوة الإسلامية »

العبادة التى أمر بها الله . وإنه لابد لنا من تصحيح المفاهيم أولا ، ثم إتخامة بناء جديد على المفاهيم الصحيحة للإسلام .

ثم نقول لهم: إن ماحل بالمسلمين من تأخر حضارى وعلمى وعسكرى وسياسى ومادى واقتصادى واجتماعى وفكرى وروحى .. الغ لم يكن سببه أنهم مسلمون (۱۲۱) ! , ولم يكن سببه حتميات تاريخية ولاأطواراً اقتصادية! (۱۲۲) إنما سببه الأصيل هو فساد سلوك المسلمين أولا ، ثم فساد تصورهم ثانيا ، وإفراغ الإسلام أخيرا من كل محتواه .

فيوم كانت « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » عبادة لم يجرؤ أحد على احتلال أرض المسلمين واستلاب خيراتهم !

ويوم كان «طلب العلم فريضة » لم يكن هناك تخلف علمى ، بل كانت الأمة المسلمة هى أمة العلم ، التى تعلمت أوربا فى مدارسها وجامعاتها !

ويوم كانت « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » عبادة ، كانت المجتمعات الإسلامية أغنى مجتمعات الأرض!

⁽۱۲۱) تلك قولة الغرب التي استخدمها في الغزو الفكرى لسلخ المسلمين مما بتي لهم من اسلام!

⁽١٢٢) تلك قولة الشيوعيين التي يستخدمونها في الغزو الفكرى لإقناع الناس أنه لاحل لهم إلا الشيوعية !

ويوم كانت «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » عبادة ، وكان ولى الأمريستشعر أنه راع ومسئول عن رعيته ، لم يكن للفقراء في المجتمع الإسلامي قضية ، لأن العلاج الرباني لمشكلة الفقركان يطبق في المجتمع الإسلامي عبادة لله ! (١٢٣).

ويوم كانت «وعاشروهن بالمعروف» عبادة ، لم تكن للمرأة المسلمة قضية ! لأن كل الحقوق والضمانات التي أمر الله لها بها كانت تؤدى إليها ، طاعة لله ، وعبادة لله !

ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .. تصحيح المفاهيم أولا ، ثم إقامة بناء جديد على المفاهيم

⁽۱۲۳) يقول يحيى بن سعيد: بعثنى عمر على صدقات إفريقية فاقتضيتها ، فبحثت عن فقراء أعطيها لهم فلم أجد ، فقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس ، فاشتريت بها عبيدا فأعتقتهم . وجاء في كتاب « الأموال » للإمام الحافظ أبي عبيد القاسم بن سلام المتوفى عام ٢٧٤هـ (ص ٣٥٧ ــ ٣٥٨) : وحدثنى سعيد بن أبي مريم .. قال : كتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن وهو بالعراق : « أن أخرج للناس أعطياتهم » فكتب إليه عبد الحميد : إنني أخرجت للناس أعطياتهم وقد بقى في بيت مال المسلمين مال «فكتب إليه : «أن انظر كل بكر ليس له مال فشاء أن تزوجه فزوجه وأصدق عنه » فكتب إليه بعد مخرج هذا : « أن وجدت وقد بقى في بيت مال المسلمين مال » فكتب إليه بعد عخرج هذا : « أن انظر من كانت عليه جزية فضعف عن أرضه فأسلفه مايقوى به على أرضه ، فإنا لانريدهم لعام أو لعامين » !

الصحيحة للإسلام .. (١٧٤)

ولن يكون هناك سحر يمحو الضعف والتخلف في لحظات ويبدلها تقدما وقوة ..

إنما هناك سنن ربانية تقوم عليها حياة الناس في الأرض .. وحين نعمل حسب السنن الصحيحة يأتينا الحل الصحيح ..

وليس من السنن الضحيحة أن نفسد ديننا ثم نقول : يارب ! يارب !

إنما قال تعالى عن الحياة الدنيا: « وعد الله الذين آمنوا منكم

⁽۱۷۶) يقول الشيوعيون عنا إننا نحترل القضايا اختزالا مخلاً . ونجرد العامل الأخلاقي (ويقصدون به العقيدة!) . ونرد إليه الأمور كلها . بجردا عن الإطار المادى والاقتصادى والطبق والتاريخي . سذاجة منا . وجهلا بالمادية الجدلية والتفسير المادى للتاريخ! وقد ناقشت الفكر المادى وسائر مقولات الشيوعيين مناقشة مستفيضة في كتاب «مذاهب فكرية معاصرة « (ص ٢٥٨ ـ ص ٤٤٤ من الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م) ولا مجال هنا للإعادة . ولكنا نقول فقط : ون الذي ندعو إليه ليس عاملا أخلاقيا مجردا كما يتوهمون من كلا منا بسبب جهلهم بعقيقة الإسلام . فالإسلام عقيدة ينبثق منها نظام سياسي اجهاعي اقتصادى فكرى حضارى مادى . ثابت الأسس متغير الصورة بما يناسب أوضاع البشرية خلال مسيرتها التاريخية ، وهو في تغيره الدائم محكوم أبدا بالأسس الثابتة التي لا يجوز أن مسيرتها التاريخية ، وهو في تغيره الدائم محكوم أبدا بالأسس الثابتة التي لا يجوز أن تغيره ، لأن تغيرها يفسد الحياة البشرية . وإذا كنا « نبرز » العامل الأخلاق _ دون أن نجرده _ فإننا نفعل ذلك لأن الشيوعيين يغفلونه إغفالا متعمدا ، متأثرين بالفكر اليهودى الذى صاغ لهم الشيوعية .

وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لايشركون بى شيئا » (١٢٥) .

وقال عن الحياة الآخرة: « ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب. من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا. ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » (١٢٦).

وواضح من الآيات أن طريق الفوز في الدنيا هو ذاته طريق الفوز في الآخرة بلا افتراق.

فالمستخلفون الممكّنون في الدنيا هم: «الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات»

« ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن » فأولئك هم الفائزون في الآخرة .

ولاغرابة فى ذلك فى الدين الذى يجعل الدنيا مزرعة الآخرة ، ويجعل إقامة حكم الله فى الأرض ، وتحقيق العدل الربانى ، وطلب العلم ، والمشى فى مناكب الأرض سعيا وراء الرزق ، ومعاشرة الأهل

⁽١٢٥) سورة النور [٥٥]

⁽١٢٦) سورة النساء [١٢٦ ـ ١٢٣]

بالمعروف، وإعداد العدة لأعداء الله، والتخلق بالأخلاق الفاضلة . جزءا من العبادة ، مطلوبا كالصلاة والزكاة والصيام والحج (۱۲۷)

أما طريق المرجئة ، الذى يخرج العمل من مسمى الإيمان ، ويخرجه من مفهوم العبادة ، فهو الطريق الخاسر فى الدنيا والآخرة على السواء .

« قل : كُلُّ يعمل على شاكلته » (١٢٨) « ولكلُّ درجات مما عملوا » (١٢٩)

⁽١٢٧) سنعود إلى تفصيل هذا المعنى في فصل تال بعنوان « مفهوم الدنيا والآخرة » .

⁽١٢٨) سورة الإسراء [٨٤]

⁽١٢٩) سورة ألأنعام [١٣٢]

مفهوم القضاء والقدر

الإيمان بالقضاء والقدر جزء رئيسي من عقيدة المسلم ، كما بينها حديث جبريل عليه السلام : « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره » (١) .

وهو من مميزات هذه الأمة في تاريخها الطويل.

ولكنه كان فى حس الأجيال الأولى من هذه الأمة قوة دافعة بناءة عمركة ، بقدر ما صار فى حس الأجيال المتأخرة منها قوة سلبية هدامة مخذّلة ، حين انحرف مفهوم القضاء والقدر فى حسها عن صورته الصحيحة التى عاشت بها الأجيال الأولى وبنت وعمرت وتحركت .

والصورة الظاهرة واحدة فى الحالين ، ولكن شتان ما بين هذه وتلك فى حقيقة الأمر . كما حدث فى كل شىء فى حياة هذه الأمة !

إن ألفاظ الشهادة التي كانت تنطقها الأجيال الأولى من المسلمين هي ذات الألفاظ التي جرت على لسان الأجيال المتأخرة «أشهد ألا إله

⁽١) أخرجه الشيخان

إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله » ولكن الأولى كانت تهز الأرض كلها وتحركها لأنها كانت تعمل فى واقع الأرض برصيدها الكامل وشحنتها الكاملة ، والأخيرة لم تعد تصنع شيئا فى الأرض ، بل لم تعد تستطيع حتى أن تحافظ على الوجود الإسلامي أمام الغزو العسكرى والسياسي والاقتصادى ، وأمام الغزو الفكرى الذى هو أخطر من هؤلاء جميعا ، لأنها صارت كلمة بغير شحنة ولا رصيد!

وحركات الصلاة من قيام وقعود وركوع وسجود ، وقرآن يتلى ، وألفاظ تردد ، هى هى منذكانت إلى اليوم لم يتغير فيها شىء . ولكنها كانت تقام فتعلن عن وجود أمة حية قوية مهيبة ، لأنها كانت تؤدَّى على حقيقتها ، وتؤدِّى مقتضاها ، فتعلن عن وجود الأمة التى حققت فى عالم الواقع غاية الوجود الإنسانى ، فكان لها من ثم الغلبة على أية أمة أخرى لا تحقق هذا الوجود على صورته الصحيحة ، تحقيقا لسنة أمة أخرى لا تحقق هذا الوجود على صورته الصحيحة ، تحقيقا لسنة فى الأرض :

«ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون» (٢).

وتحقيقا لؤعد الله لهذه الأمة خاصة:

«وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي

⁽٢) سورة الأنبياء [١٠٥].

ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا » (٣) .

وتكذئك عقيدة القضاء والقدر .. صورتها الظاهرة هي الإيمان بأن كل ما يحدث في هذا الكون وفي حياة الإنسان يتم بقضاء من الله وقدر ، وأنه لا يحدث في هذا الكون العريض كله ولا في حياة الإنسان إلا ما قدره الله .

«إنا كل شيء خلقناه بقدر» (١).

«ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها . إن ذلك على الله يسير» (٥)

« ماأصاب من مصيبة إلا بإذن الله ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه ، والله بكل شيء عليم » (٦) .

«قل: لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا ، هو مولانا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » (٧) .

ولكن الفارق الضخم فى حقيقة هذه العقيدة بين الأجيال الأولى والأجيال المتأخرة هو الفارق بين التوكل على الله كما مارسته الأجيال الأولى والتواكل الذى حدث فى عصر الانحسار ، ثم عصر الانحدار ،

⁽٣) سورة النور [٥٠]. (٦) سورة التغابن ٢١١].

⁽٤) سورة القمر [٤٩].(٧) سورة التوبة [١٥].

⁽٥) سورة الحديد ٢٢٦]

وهو فارق لا يقل ضخامة عن فارق لا إله إلا الله ، وفارق الصلاة وسائر العبادات ما بين هذه الأجيال وتلك الأجيال !

كان المسلم الأول يؤمن بأن كل ما يحدث له أو يحدث فى الكون هو بقضاء الله وقدره ، وأن شيئا لن يغيّر ما قدره الله منذ الأزل فى اللوح المحفوظ .

ثم كانت نتيجة إيمانه بذلك أن يقول لنفسه: أإذا ذهبت إلى ميدان القتال أقتل بسبب ذهابي إلى هناك؟ أم إنه يجرى على ما قدره الله لى ، فإن كان كتب لى الشهادة هناك فسأقتل بقضاء من الله وقدر وإن كان كتب لى العودة فسأعود؟ ثم إننى إن كان الله قد كتب على الموت فسأموت ولو كنت في مكانى هذا ولم أذهب إلى القتال به إذن فما الذي يقعدني عن القتال؟ خوف الموت وهو مقدر على أي حال؟ أم خوف الأذى ولن ينالني منه إلا ما قدره الله في كل حال؟ كلا فلنذهب إلى أداء فريضة ربنا ، ولن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون . ثم يذهب إلى القتال بنفس شجاعة فيستبسل ، فيُمضى الله به قدره في الأرض ، وينصر به هذا الدين ويمكن له ، ثم يكون من أمره ما قدره الله له ، إما الشهادة وإما النهر .

«قل: هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين؟» (^)

⁽٨) سورة التوبة [٧٥].

ولما اضطربت نفوس المنافقين وضعاف الإيمان بعد هزيمة أحد نزلت آيات بينات تقرر هذه الحقيقة وتؤكدها وترسخها في نفوس المؤمنين.

«ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم ، وطائفة قد أهمتهم أنفسهم ، يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يقولون : هل لنا من الأمر من شيء ؟ قل : إن الأمر كله لله . يخفون في أنفسهم مالا يبدون لك ، يقولون : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا ! قل : لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم . وليبتلي الله ما في صدوركم ، وليمحص ما في قلوبكم ، والله عليم بذات الصدور» (١) ..

«يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غُرِّى لوكانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ، ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم . والله يحيى ويميت ، والله بما تعملون بصير . ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون . ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون» (١٠٠) .

كذلك كان المسلم الأول يفعل وهو يكشف مجاهيل الأرض لنشر الدعوة ، ولطلب العلم ، وللسعى وراء الرزق ، ويمشى فى مناكب

⁽٩) سورة آل عمران [١٥٤].

⁽۱۰) سورة آل عمران [۱۵۸ - ۱۵۸].

الأرض ويتعرض للأخطار والمشقات.

كانت القاعدة فى حسه أن أقدم .. وتوكل على الله . كيف تحول هذا الإقدام إلى تقاعس وقعود فى انتظار ما قدره الله ؟!

كذلك كان في حس المسلم الأول أن إيمانه بالقضاء والقدر لا ينفى مسئوليته عن عمله حين يرتكب خطأ يعرّضه للجزاء.

وفي وقعة أحد كان الدرس هائلا وعميقا في نفوس المؤمنين.

لقد خالف الرماة أمر قائدهم ورسولهم – صلى الله عليه وسلم - إذ أمرهم ألا يبرحوا أماكنهم ولو رأوا المسلمين تتخطفهم الطير. ولكنهم حين رأوا النصر، وظنوا أن المعركة قد انتهت إلى غايتها، شغلتهم الغنائم عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فغادروا أماكنهم ونزلوا مخافة ألا يحسب لهم نصيب من الغنائم! ومن هناكر المشركون بخيلهم على جيش المسلمين مطمئنين إلى انصراف القوة الضاربة من فوق جبل الرماة. وكانت الهزيمة والاضطراب العنيف في صفوف الجيش، وإصابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما أشاع الكفار من قتله عليه الصلاة والسلام، وأثر ذلك في تفريق وحدة الحيش.

ونزل القرآن بعتاب شديد للمؤمنين على ما فعلوا. ونزل كذلك بالشرح والبيان. وكان من هذا الشرح تلك الآيات:

«أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنّى هذا؟! قل: هو من عند أنفسكم . إن الله على كل شيء قدير . وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله ، وليعلم المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا .. » (١١) إنه من عند أنفسكم .. وفي ذات الوقت هو بإذن الله .

المسئولية عن الخطأ قائمة ، والإيمان بأنه من قضاء الله وقدره قائم .. لا يتعارضان .

ولقدكان هذا من أعظم ما تعلمته هذه الأمة ومن أعظم ما تميزت به: إزالة التعارض بين إيمان الإنسان بمسئوليته عن عمله ، وإيمانه بقضاء الله وقدره ، وإقرار الأمرين معا فى القلب البشرى ليتوازن بينها ، ويتوازن بهما فى مسيرته فى هذه الأرض ، فلا يزايله الإحساس الدائم بقدر الله والتطلع إليه فى الكبيرة والصغيرة ، ولا يزايله كذلك مراقبته لأعمال نفسه ووزنها بميزان الخطأ والصواب .

كيف تحول هذا التوازن البديع إلى تنصل من كل مسئولية بدعوى الإيمان بقضاء الله وقدره ؟

雅 雅 雅

⁽١١) سورة آل عمران [١٦٥ ــ ١٦٧].

كذلك كان في حس الأمة الأولى أن إيمانها بالقضاء والقدر لا يتعارض مع اتخاذ الأسباب.

لقدكانوا يدركون من جانب أن لله سننا في هذا الكون وفي حياة البشر غير قابلة للتغيير. ومع أن لله ـ سبحانه وتعالى ـ سنة خارقة تملك أن تصنع كل شيء ، ولا يعجزها ولا يقيدها شيء ، لأن مشيئة الله طليقة من كل قيد ، إلا أن الله جلت قدرته قد قضى بأن تكون سنته الجارية ثابتة في الحياة الدنيا ، وأن تكون سنته الخارقة استثناء لها ، وكلتاهما معلقة بمشيئة الله .

لذلك كان فى حسهم أنه لابد لهم من مجاراة السنن الجارية إذا رغبوا فى الوصول إلى نتيجة معينة فى واقع حياتهم ، أى أنه لابد من اتخاذ الأسباب المؤدية إلى النتائج بحسب تلك السنن الجارية.

وبيّن الله لهم ذلك بيانا صريحا في كتابه المنزل.

فلقد قدر الله لدينه أن ينتصر ويمكن في الأرض ، وقدر لكيد الكفار أن يحبط :

« هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولوكره المشركون» (١٢) .

«ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا. إنهم لا يعجزون » (١٣).

⁽١٢) سورة الصف [٩] (١٣) سورة الأنفال [٩٥].

لا يعجزون الله الذي كتب لدينه النصر، ولا يسبقون قدره. فقدره هو السابق وإرادته هي النافذة.

ومع ذلك فهل قال لهم: مادمت قدرت لديني النصر والتمكين فاقعدوا وانتظروا نفاذ قدرى ، وهو لابد نافذ ؟ كلا! إنما قال لهم في نفس الوقت الذي عرفهم فيه بقدره المكتوب لهذا الدين ، وبأنه نافذ لا محالة _ إنه لابد لهم أن يجاهدوا ويعدوا:

« ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا، إنهم لا يعجزون. وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم . وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » (١٤) .

«إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم» (١٥).

فلابد من اتخاذ الأسباب للنصر، وإن كان النصر قدرا مقدورا من عند الله.

وهكذا تجاور فى حس المسلم إيمانه بقدر الله ، وإيمانه بأنه لابد أن يتخذ الأسباب المؤدية إلى النتائج بحسب السنة الجارية ، وإن كانت هذه الأمة لم تترك لتفتن بالأسباب ، تظنها مؤدية ـ بذاتها ـ إلى النتائج بمعزل عن قدر الله كما تصنع الجاهلية المعاصرة ، فقد كان درس حنين

⁽١٤) سورة الأنفال [٥٩ ــ ٦٠]. (١٥) سورة محمد [٧].

لتثبيت هذا المعنى في نفوس المؤمنين.

«.. ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ، وضاقت عليكم الأرض بها رحبت ، ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنودا لم تروها ، وعذب الذين كفروا . وذلك جزاء الكافرين » (١٦) .

وكان هذا كذلك من أبدع ما تعلمته هذه الأمة وتربّت عليه ، لتتوازن في مسيرتها الأرضية بين التواكل بغير اتخاذ الأسباب ، وبين الاتكال على الأسباب .

كيف تحول هذا التوازن الرائع إلى سلبية كاملة ، وقعود عن اتخاذ الأسباب بدعوى الاتكال على الله ؟

NF NF NF

ثم إنه لم يكن في حس الأمة الأولى تعارض بين التسليم لقدر الله ، والعمل على تغيير الواقع السيئ حين يكون .

إن كل شئ في هذا الوجود وفي حياة البشر واقع بقضاء الله وقدره. لاجدال في ذلك ولاشك فيه في نفوس المؤمنين.

وحين يوجد واقع سيني في حياة الناس فهو واقع بقضاء الله وقدره ،

⁽١٦) سورة التوبة [٢٥ ــ ٢٦].

سواء بسبب من عند الناس كما حدث للمؤمنين يوم أحد بسبب مخالفتهم لأمر رسول الله على الله عليه وسلم او لأمر لا مسئولية لهم فيه كماكان الحال فى طاعون عمواس أيام الحليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه (ولم تكن أسباب الطاعون معروفة يومئذ ولا وسائل علاجه ، فلا مسئولية على أحد فى ذلك الحين) أو ابتلاء من عند الله للمؤمنين ليمحصهم كما يحدث فى فترات الإبتلاء التى تجرى بسنة من سنن الله :

«أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناوهم لا يفتنون ؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين «١٧) .

هذا وغيره مما يصيب الناس في الأرض يحدث كله بقضاء الله وقدره ..

ولكن الله لم يأمر الناس أن يستسلموا لقدر الله بمعنى عدم العمل على تغيير الواقع السيئ الذى هم فيه. إنما أمرهم بالتسليم (أو الاستسلام) لقدر الله بمعنى الرضى بها وقع بالفعل على أنه قدر محتوم لم يكن يمكن تلافيه. أما القعود عنده ، وعدم تغييره أو محاولة تغييره فأمر آخر لم يأمر الله به ولاحث عليه ، ولا علاقة له بالرضى بما وقع على أنه قدر محتوم من عند الله.

⁽۱۷) سورة العنكبوت ۲ړ ـ ۳.

ولنأخذ النهاذج الثلاثة التي أشرنا إليها على سبيل المثال.

فحين وقعت هزيمة أحد ، بسبب من عند المؤمنين وبقدر من عند الله في الوقت ذاته :

«قل: هو من عند أنفسكم، إن الله على كل شيء قدير. وما أصابكم يوم التتى الجمعان فبإذن الله» (١٨).

طلب الله من المؤمنين أن يسلموا لهذا القدر المقدور:

« فأثابنكم غما بغم لكيلا تحزنوا على مافاتكم ولا ما أصابكم ، والله خبير بما تعملون . ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم . . » (١٩٠) .

ولكن هل طلب منهم أن يستسلموا للهزيمة ويقعدوا ، ولا يحاولوا تغيير الموقف السيئ الذى وجدوا أنفسهم فيه ، بحجة أنه قدر مقدور لم يكونوا ليفلتوا منه مها حاولوا ؟ ! .

كلا! إن الرسول صلى الله عليه وسلم، القائد والصاحب والمربى، تصرف فى ذلك الموقف تصرفا يدل على اتجاه مغاير تماما لهذا الظن. فقد جمع المسلمين بجراحاتهم للقاء العدو مرة أخرى، والهزيمة لما تنته آثارها من الأجساد ولا من النفوس! وامتدح الله موقف

⁽۱۸) سورة آل عمران [۱۲۵ ـ ۱۹۹].

⁽١٩) سورة آل عمران [١٥٣ _ ١٥٤].

المؤمنين «الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح»:

«الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح ، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم . الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيمانا ، وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم » (٢٠) .

فهؤلاءهم الذين هزموا بقدر من الله (وإن كان بسبب من عند أنفسهم فى الوقت ذاته) يقولون: «حسبنا الله ونعم الوكيل». فهم يتوكلون على الله ليخرجوا من الواقع السيئ إلى واقع جديد! ولا يمنعهم قدر الله السابق من التطلع إلى قدر جديد! وإذا كان قدر الله الأول قد أصابهم بخطأ ارتكبوه، فهم يتطلعون إلى قدر الله الآخر بعمل يقدمونه بين يدى ذلك التطلع، وهو الاستجابة لله والرسول، أى بسلوك صحيح بعد السلوك الذى وقعت فيه الأخطاء. وهو اتخاذ الأسباب مع التوكل على الله. وهكذا لم يتعارض فى حسهم التسليم بقدر الله الواقع مع العمل على التغيير.

وفى طاعون عمواس ، علم الخليفة رضى الله عنه بخبر الطاعون فأمر الجند بالانصراف ، فقال له أبو عبيدة بن الجراح رضى الله

⁽۲۰) سورة آل عمران [۲۷۲ ــ ۱۷۲].

عنه: «أتفر من قدر الله؟!» قال: «أفر من قدر الله إلى قدر الله!» وهي عبارة بليغة تدل على عمق فهم الخليفة ـ رضى الله عنه لقضية القضاء والقدر. إن الطاعون قدر واقع على الناس بالفعل، ولكنه لم يقع بعد على عمر وجيشه. فالعمل على تحاشيه أمر واجب. وهو يتم ـ حين يتم ـ بقدر من الله كذلك. فقدر الله بالطاعون لا يمنع قدر الله بالنجاة من الطاعون! ولقد اتخذ عمر الأسباب التي ظنها مؤدية إلى النجاة ، فتمت النجاة بقدر من الله .

وفى الابتلاء الذى أصاب المؤمنين على يد قريش ــ وهو سنة من سنن الله لم تتخلف مع أى جماعة من المؤمنين تواجه الجاهلية فى بدء الدعوة قبل التمكين ــ كان الابتلاء واقعا بقدر من الله ، ولحكمة كذلك بعلمها الله ويريدها:

«فليعلمن الله الذين صدقوا ، وليعلمن الكاذبين» (٢١) .

فهل منع ذلك رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ والمؤمنين من محاولة التغيير؟ بطلب الجوار من بعض المشركين حينا ، وبالهجرة إلى الحبشة حينا ، حتى جاء الإذن بالهجرة إلى المدينة آخر الأمر؟

كلا! إن وقوع الابتلاء بقدر من الله ، وبمقتضى سنة من سنن الله الحتمية ، لا يمنع الاجتهاد في تحاشى الابتلاء أو التخلص منه ، وحين

⁽۲۱) سورة العنكبوت [٣].

يتم شيء من ذلك فإنه يتم بقدر من الله ، وحين يخفق الجهد فسيكون ذلك أيضا بقدر من الله !

لذلك لم يتعارض فى حس الأمة الأولى واجب التسليم لقدر الله مع معاولة التغيير تطلعا إلى قدر جديد من عند الله. وكان هذا من روائع ما تربّت عليه الأمة لتتوازن به بين سلبية الاستسلام التى تحطم الإرادة وبين الرغبة الجامحة التى لا تعرف التسليم.

كيف تحول هذا التوازن إلى قعود عن التغيير بدعوى الاستسلام لقدر الله ؟

** ** **

إن عقيدة القضاء والقدر في صورتها الصحيحة تمثل نقط توازن هائلة وراثعة في حس الإنسان المسلم الذي يسيّر حياته بمقتضى هذه العقيدة.

ففضلا عن كونها حقيقة متعلقة بذات الله ــ سبحانه وتعالى ــ وبأسمائه وصفاته وأفعاله ، فهى على ذلك من أصل العقيدة ، ومن جوهر لا إله إلا الله ، لأن أى تصور بأنه يمكن أن يقع فى ملك الله شيء لم يقدره الله هو شرك لا شك فيه ..

فضلا عن ذلك فإنها عقيدة ذات مقتضى ضخم جدا فى حياة الإنسان المؤمن ..

إنها نقطة توازن بين اتجاهات شبتى يتعرض لها الإنسان حين لا ينضبط سلوكه وفكره وتصوره بالمنهج الربانى الصحيح..

فشعور الإنسان بعظمة الله التي لا تحدها حدود ، وهيمنته سبحانه على كل شيء ، وجريان الأمركله بمشيئته ، عرضة أن ينتهى بالإنسان إلى سلبية منحسرة لا تعمل شيئا ولا تتطلع إلى إنجاز أي شيء!

وشعور الإنسان بذاتيته ، ومقدرته على العمل والتصرف ، ورؤيته لإنتاجه الذى ينتجه بفكره وجسمه ، عرضة أن ينتهى بالإنسان إلى التأله والجحود والطغيان ، إعجابا منه بإيجابيته وفاعليته !

ومن ناحية أخرى فإن شعور الإنسان بعظمة الله وهيمنته ، وجريان الأمركل بمشيئته ، عرضة أن ينتهى بالإنسان إلى نسيان الأسباب جملة ، ونسيان السنن الربانية الجارية التي أودعها الله في بنية الكون وفي حياة الإنسان ، تطلعا إلى تلك المشيئة التي لا يحدها حد ولا يقيدها قيد !

كما أن شعور الإنسان بانتظام السنن التي يجرى بها الكون وتجرى بها حياة الناس ، عرضة أن ينتهى بالإنسان إلى نسيان قدر الله جملة أو إغفاله ، والتعلق بالأسباب على أنها قوانين حتمية لابد أن يؤدى السبب فيها حمّا إلى النتيجة .

ومن ناحية ثالثة فإن شعور الإنسان بجريان الأمركله بمشيئة الله ، عمل هو أم لم يعمل، وأراد أم لم يرد ، عرضة أن ينتهي بالإنسان إلى ترك العمل جملة ، يأسا من أن يؤثر عمله فى مجرى الأحداث ، أو ضنا بجهد لا يوصل ـ بذاته ـ إلى نتيجة !

كما أن شعور الإنسان بتأثير عمله فى مجرى الأحداث ، وبأن الأحداث مترتبة على مقدار ما يعمل ونوع ما يعمل ، عرضة أن ينتهى بالإنسان إلى الفتنة بعمله ، والظن بأنه هو الذى يصنع قدره بنفسه ، ويتحكم فيه كما يشاء !

وإذا كانت الهندوكية والرهبانية نموذجا للنوع الأول من الانحراف: السلبية ، ونسيان الأسباب جملة ، والزهد في العمل والإنتاج ، فإن الجاهلية المعاصرة عنوان حاد على النوع الثانى من الانحراف: شعور الإنسان المضخم بذاتيته ، وفتنته بالأسباب . وفتنته بعمله ، وتوهمه أنه يصنع قدره بنفسه .

3|6 3|6 3|6

لقد بدأت أوربا «نهضتها» على عداء مع الكنيسة والدين. أى أنها في الحقيقة خرجت من جاهلية المسيحية الكنسية المحرفة إلى الجاهلية المعاصرة التي وصلت ذروتها في القرن الأخير.

كان «الإنسان» مسحوقا فى جاهلية القرون الوسطى ، المظلمة عندهم ، تحت ضغوط كثيرة متنوعة ، منها ضغط الكنيسة بطغيانها الروحى والفكرى والمالى والسياسى (٢٢) ، ومنها ضغط الإقطاع بطغيانه

⁽۲۲) راجع إن شنت فصل «الدين والكنيسة» في كتاب «مذاهب فكرية معاصرة».

السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، ومنها الجهالة المتفشية ، وضحالة التصورات ، وضيق الآفاق ، وتفاهة الاهتمامات . .

ثم انفتحت أوربا على علوم المسلمين من ناحية ، واحتكت بهم فى حروبها الصليبية معهم من جهة أخرى ، فتغير الحال ، وبدأ «الإنسان» هناك يحس بوجوده ، ولكن على غير استقامة الإسلام وانضباطه ، فقد أخذوا من المسلمين علومهم وأسس حضارتهم المادية ، ولكنهم رفضوا أن يأخذوا الإسلام .

ومن ثم انقلبوا من النقيض إلى النقيض دون التوقف عند نقطة الوسط الموزون.

فعلى قدر انسحاق الوجود الإنسانى فى جاهلية العصور الوسطى كان شعور الإنسان بذاتيته فى الجاهلية المعاصرة. وعلى قدر الجهل بالأسباب عامة ، وجدت فتنة بالأسباب .

وعلى قدر تفاهة العمل ، وتفاهة آثاره فى الحياة الواقعة ، وجدت فتنة بالعمل ، وفتنة بآثاره فى حياة الناس .

وجاء التقدم العلمى والمادى الذى ولد مع «النهضة»، والذى استمدت أوربا أصوله من المسلمين، فنفخ فى هذه الفتنة الطامة، وَخَيَّلَ للناس فى جاهليتهم المعاصرة أن العلم هو الإله، وهو القدر، وهو الذى ينشئ كل شىء ويحكم كل شىء.

والأوربي الجاهلي المعاصر قد نبذ الدين بكل مضمونه وإيحاءاته ،

ولم يعد لله صلة فى حسه بحياته الواقعة على الأرض. إنما صار فى حسه أنه هو الإنسان هو الذى يصوغ حياته كما يحلو له ، وهو الذى يكتب قدره بنفسه ، وهو الذى يصنع التاريخ ويصنع الأحداث (٢٣).

وإلى جانب فتنته بنفسه إلى هذا الحدكانت فتنته فى الوقت ذاته بالأسباب الظاهرة. فلقد قال له «العلم» إن هناك قوانين حتمية سموها فى أوربا «قوانين الطبيعة» ، لأنهم _ وقد نبذوا إله الكنيسة _ رفضوا أن ينسبوا السنن الكونية إلى الله ، ونسبوها إلى إله جديد لاكنيسة له ولا تكاليف ، سموه «الطبيعة» ونسبوا إليه الخلق والتدبير.

ومادامت القوانين في حسهم حتمية فلا مجال للقدر إذن في تصورهم! فهاذا يصنع القدر إذا كان لا يملك أن يغير ما هو حتمى الوقوع ؟! ونسوا في غفلتهم أن ثبات السنن الجارية في الكون هو ذاته قدر مقدر من عند الله الخالق يوم خلق سبحانه الساوات والأرض! ونفوا من حسهم في غفلتهم كذلك إمكان تغيير هذه السنن بإرادة من الله حين يشاء، فنفوا المعجزات والخوارق من جهة، ونفوا إمكان تغير نظام الكون كله حين يشاء الله!

⁽٢٣) صدر ذات يوم كتاب أوربى _ باللغة الإنجليزية _ عنوانه «الإنسان يصنع نفسه Man Stands Alone "خر عنوانه الإنسان يقوم وحده Man Stands Alone أى بدون إله! .

ثم بدا لهم حين اتسع «علمهم» ـ أو اتسعت غفلتهم ـ أن الحياة البشرية ـ بل النفس البشرية ـ تحكمها قوانين حتمية كتلك التي تحكم الكون المادى . وسرت هذه الحتمية في التفسير المادى للتاريخ (٢٤) ، والتفسير الجثاني للمشاعر (٢٠) ، والتفسير الجناني للسلوك البشرى (٢٦) ، وفي كثير من النظريات الاجتاعية والاقتصادية ، وكلها تضع الإنسان تحت رحمة هذه الحتميات بل تحت طغيانها الجائر .

ثم أغفلوا في عناد جاهلي كل فترات الهدى في حياة البشرية ، التي كانت كلها بقدر من الله ، ولم تكن «حتمية » بأى تفسير من تلك التفسيرات الجاهلية التي تحاول أن تفسر الحياة والتاريخ بمعزل عن قدر الله ، كما أغفلوا في عمد كل أثر لفترات الهداية تلك في حياة البشرية ، وخاصة فترة الهداية الكبرى على يد الإسلام!

非 非 排

ومن الجانب الآخر وجدت _كها أشرنا من قبل _ جاهليات كثيرة في التاريخ تمثل الانحراف الآخر: انحراف السلبية والانكماش والتقوقع ، انتظارا لما تصنعه « الآلهة » ، وما تحدثه في حياة الأفراد والجاعات من أقدار ..

⁽۲۲) عند الماركسيين. (۲۲) عند فرويد.

⁽٧٥) عند التجريبين.

فى البوذية والهندوكية والرهبانية ألوان من تلك السلبية والقعود وعدم إيمان الإنسان بنفسه على أنه قوة فاعلة فى الأرض ، أو أن لعمله أثرا فى الحياة . .

كلها تطلعت إلى « فناء » الإنسان .. سواء كان الفناء فى « الكائن الأعظم » الذى يمثل الإله فى حسهم ، أو فى تناسخ الأرواح المؤدى فى النهاية إلى الفناء الأكبر فى ذلك الكائن الأعظم ، أو فناء الجسد بكبته وقمعه لتنطلق الروح من إساره ، أو فناء السلبية فى داخل الدير .. أو أى نوع من أنواع الفناء! (وليس بعيدا عن ذلك مسعى الصوفية إلى « الفناء » فى الذات الإلهية ليحدث من ذلك « الوجود » !) .

والطابع الغالب على هذه الانحرافات كلها هو الأسى والكآبة والانحسار إلى داخل النفس، بقدر ماكان الطابع الغالب على الانحراف الآخر هو المرح المجنون، والبحث عن لذائذ الحس، والبعد عن إصلاح النفس من الداخل، والانطلاق إلى خارج الذات.

** ** **

بين هذين الطرفين المتناقضين تجى، عقيدة القضاء والقدر فى صورتها الصحيحة فى الإسلام ، تقرر هيمنة الله الشاملة على كل ما يجرى فى الكون وفى حياة الإنسان ، ولا تلغى فى الوقت ذاته فاعلية الإنسان ، ولا تلغى العمل ، ولا تلغى الحاد الأسباب .

فى توازن كامل يؤمن المسلم بأن كل ما يحدث فى الكون وفى حياته

هو قدر مقدور عند الله من قبل أن يحدث ذلك بالفعل فى الواقع البشرى :

« ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها ، إن ذلك على الله يسير » (٢٧)

وفى الوقت ذاته يؤمن بأن عليه أن يعمل ، وأن يتخذ الأسباب ، وبأن ما يجرى من المقادير فى الأرض مرتبط بالأسباب التى يتخذها (أو يدع الأخذ بها) ، وبنوع العمل الذى يقوم به :

« ظهر الفساد في البر والبحر بماكسبت أيدى الناس » (٢٨)

« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » (٢٩)

« وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ، ففسقوا فيها ، فحق عليها القول ، فدمرناها تدميرا » (٣٠) .

ومن ثم يحس بوجوده الذاتى ، ويعمل ، ويتخذ الأسباب ، دون أن يفتن بنفسه ولا بعمله ودون أن يفتن بالأسباب .

وفى الوقت ذاته يؤمن بأن كل ما يحدث له مقدر من عند الله دون أن يقعده ذلك عن الإيجابية والعمل واتخاذ الأسباب.

⁽٢٧) سورة الحديد [٢٢]. (٢٩) سورة الأعراف [٩٦].

⁽۲۸) سورة الروم [٤١].
(۳۰) سورة الإسراء [١٦].

وحين يبدو هذا فى حس بعض الناس تناقضا ، فإنه يُحدث فى حس المؤمن توازنا جميلا رائعا يعينه على القيام بدور الخلافة الراشدة فى الأرض ، ويجعله يعمل فى الأرض وقلبه متطلع إلى الله فى السماء.

إنه يتخذ الأسباب عبادة لله ، وانطلاقا مع سنة الله الجارية ، ويحس فى الوقت ذاته أن النتيجة التى وصل إليها هى قدر قدره الله ، وليست حصيلة أسبابه التى اتخذها ، وأن الأسباب لا تؤدى بذاتها أداء حتميا إلى النتيجة . إنما تؤدى إلى النتيجة بقدر من الله ، ولو شاء الله ألا يوصل السبب إلى النتيجة فإن الذى ينفذ بالفعل هو إرادة الله وليس حتمية الأسباب!

وهذا هو الفارق الأصيل بين المسلم وبين نظيريه من الجاهليين من هنا ومن هناك . أحدهما يقعد عن العمل ، ولا يحس بقيمة وجوده الإنساني ، والثاني يعمل مفتونا بالأسباب ، كأنها في حسه أرباب!

إن المسلم الحق لا يقل إيمانا بقدر الله عن أى مؤمن به فى هذا الوجود ، ولكنه لا يغفل عن عظم دوره فى الأرض ، لأن قدر الله قد شاء أن يجعل الإنسان خليفة فى الأرض ، وأن يسخر له ما فى السماوات ومافى الأرض جميعا منه ، وأن يكرمه ويفضله على كثير ممن خلق ، وأن يجعله ستاراً لقدره فى الأرض.

وهو من جانب آخر لا يقل اتخاذاً للأسباب ، ولا إدراكا لقانون السبب والنتيجة عن أشد البشر اتخاذا للأسباب . ولكنها في حسه ليست حتمية ، وليست نهائية مالم يقررها قدر من عند الله.

والجاهلي الأوربي المعاصر ينظر بسذاجة إلى العقلية الإسلامية فيقول إنها عقلية غيبية لا تؤمن بقانون السببية . وهو في قولته هذه يكشف عن جهله بأمر لا يستطيع حسه الضيق أن يلم به . فالعقلية الإسلامية الصحيحة _ غيبية نعم ، لأنها تؤمن بالغيب ، وتؤمن بقدر الله . ولكنها في الوقت ذاته عقلية علمية أصيلة ، بدليل أنها هي التي اهتدت إلى المنهج التجريبي في البحث العلمي ، وأهدته إلى أوربا ، وهو منهج قائم كله على الملاحظة والتجربة وعلاقة السبب بالنتيجة ! ولكنها وهي تتعامل مع سنة الله الجارية _ لا تغلق قلها عن مشيئة الله الطليقة التي لا يحدها قيد على الإطلاق (٣١) .

ومزية هذه العقلية العلمية الغيبية في آن واحد ، أنها لا تفاجأ حين تجد نتيجة لاتفسرها الأسباب الظاهرة ، لأنها تعلم أنها تمت بقدر من الله . ولا يصيبها ما أصاب هتلر ، حين اتخذكل الأسباب التي كان في

⁽٣١) من عجائب الجاهلية المعاصرة التي تعجز أو تزعم أنها تعجز عن فهم عقيدة القضاء والقدر-في وضعها الصحيح عند المسلمين ، أنها هي ذاتها واقعة في تناقض بين إيمانها بفاعلية الإنسان وإيجابيته ، وإيمانها بالحتميات التي لا تجعل للإنسان وجودا حقيقيا ولا إرادة . وهي إما أن تكون غير فاطنة إلى وجود هذا التناقض وإما أنها لا ترى مانعا من وجوده ! بينها تشير هذه الجاهلية إلى وجود التناقض في عقيدة المسلم ! والأمر في حقيقته في حس المسلم توازن مريح ، يجعله يبدع ما يبدع في الأرض وهو مطمئن إلى قدر الله .

طوق بشرأن يتخذها، فلما خاب مسعاه انتحر، ولم يطق النتيجة التي قدرها الله من وراء كل الأسباب!

非 非 非

هذه العقيدة الرائعة التي أنشأت في حياة الأجيال الأولى من هذه الأمة ما أنشأت من منجزات تشبه المعجزات .. ماذا أصابها خلال القرون ، فانحدرت إلى مثل ما انحدرت إليه البوذية والهندوكية والرهبانية ؟

كيف صارت إلى تقاعس وقعود وتنصل من المسئولية وانصراف عن التغيير، أدى كله فى النهاية إلى هذا الضعف الفكرى والعلمى والمادى، وهذا التخلف الحضارى، الذى اجتذب قوى الشر من كل صوب تجاول اقتلاع جذور الإسلام من الأرض، وتندد بواقع المسلمين السيئ لتنفر من الإسلام ذاته، بزعم أن هذا الواقع هو الإسلام!

إن شكل العقيدة كما قلنا لم يتغير.. ولكن جوهرها تغير تغيرا هائلا بكل تأكيد.

لقد أصابه ما أصاب لا إله إلا الله وبقية العبادات .. أفرغ من محتواه الحقيق ، وأصبح صورة بلا رصيد .

وفى أثناء ذلك كانت عقيدة القضاء والقدر قد تحولت إلى مباحث كلامية تختلف الفرق من حولها ، ولم تعد منهجا للتربية الإسلامية !

قضايا فلسفية يجهد الذهن في إيجاد حلول لها ، والأمة لا تُربَّي ، ولا يلتفت أحد إلى القيمة التربوية الهائلة لعقيدة القضاء والقدر في صورتها الإسلامية الصحيحة ! على نفس النحو الذي تحولت به عقيدة التوحيد إلى مباحث كلامية ذهنية تجريدية باردة ، لا تحرك الوجدان الديني ، ولا تؤدى إلى سلوك عملى ، وتزرع في القلب الشهات أكثر الديني ، ولا تؤدى إلى سلوك عملى ، وتزرع في القلب الشهات أكثر الدارسون على أنها «العقيدة» ، فينعزل الدارسون عن واقع الناس الحي ، وعن مقتضيات الدعوة ومقتضيات التربية ، ويدورون مع «الكلام» حيث دار!

ثم يجيء طور على « «المسلمين المعاصرين » ينسلخون فيه من عقيدة القضاء والقدركما انسلخ سادتهم الأوربيون من قبل ، ويقولون: نريد أن نترك العقلية الغيبية التي كانت سبب تأخرنا ، وتكون لنا غقلية علمية تقدمية ! إن القضاء والقدر لا وجود له إلا حيث توجد الفوضي والجهل والانحطاط والتأخر . أما حيث يوجد النظام والعلم والتقدم والتخطيط العلمي والعقول الإلكترونية فأني للقدر أن يتدخل ، وكل شئ محسوب له ألف حساب ؟ !

ويَغْفُلُ هؤلاء عن معنى قوله تعالى : «فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شئ ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون » (٣٢) .

⁽٣٢) سورة الأنعام [33].

بل يَغْفُلُونَ عا هو أقرب إلى المشاهدة الحسية من ذلك الغيب الذي يوهك أن يتحقق. يغفلون عن الأمراض التي تفاجئ أولئك الحاسبين المخططين الذين يحسبون أنهم أغلقوا بحساباتهم كل فرصة لقدر الله أن ينفذ إلى واقع الأمور! أمراض من كل نوع: نفسية وعصبية وعقلية وجثمانية وأخلاقية واجتاعية وفكرية وسياسية واقتصادية .. كلها لم تكن في الحسبان!

وهل كانت أمراض الحساسية فى الحسبان؟ وهل كان مرض انعدام المناعة (الإيدز) فى الحسبان؟ وهل كان جنوح الأحداث الإجرامى فى الحسبان؟ وهل كان انتشار الشذوذ والمخدرات فى غرب أوربا وأمريكا فى الحسبان؟

وكل هذه _ وغيرها _ بوادر لغيب يوشك أن يتحقق بقدر من الله : «حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين» (٣٣) .

张 特 特

والمسلمون اليوم في حاجة إلى تصحيح مفهوم القضاء والقدر الذي اختل في حسهم خلال القرون. فلا هو بالسلبية التي غشت القرون

⁽٣٣) سورة الأنعام [33 ــ 20].

الأخيرة ، ولا هو الفتنة بالأسباب التي توشك أن تعم العالم الإسلامي اليوم مع الغزو الفكرى القادم من جاهلية الغرب..

يعتاج المسلمون إلى إعادة ذلك التوازن البديع الذي تمثله تلك العقيدة في صورتها الصحيحة في حياة الإنسان. ويحتاجون أن يكفوا عن دراستها في صورة مذاهب كلامية يحشون بها رءوس طلاب الشريعة والدراسات الإسلامية ، لتصبح - ككل شئ غيرها في هذا الدين - جزءا من منهج التربية الإسلامية ، الذي يهدف إلى إخراج الإنسان الصالح» الذي يحقق المنهج الرباني في واقع الأرض ، والذي يُنْفِذُ الله به قدره :

« هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق **ليظهره على الدين** كله ، وكنى بالله شهيدا » (٣٤) .

⁽٣٤) سورة الفتح [٢٨].

مَفهُوم الدُّنيَا والآخرة

لم يكن فى حس الأجيال الأولى من المسلمين ذلك الفاصل الحاد بين الدنيا والآخرة الذى أحسته الأجيال المتأخرة.

لم يكن فى حسهم أن هناك أعمالا معينة هى للدنيا وحدها منقطعة عن الآخرة ، وأعمالا أخرى هى للآخرة وحدها منقطعة عن الدنيا .

صحيح أن هناك أعمالا _ بطبيعتها _ يغلب عليها الطابع الروحى ، كالصلاة والدعاء والذكر ، والشعائر التعبدية عامة ، وأعمالا أخرى يغلب عليها الطابع الفكرى ، كطلب العلم والتبحر فيه ، وتدبير شئون الحياة من سياسة واقتصاد وحرب وسلم .. الخ ، وأعمالا يغلب عليها الطابع الحسى ، كالطعام والشراب والملبس والمسكن والجنس .. الخ .. ولكن ذلك لا يفصل بين بعضها وبعض من جهة ، لأنها صادرة عن الكيان الإنساني الموحد المترابط ، ومن جهة أخرى لا يجعل بعضها للآخرة خالصة من دون الدنيا ، وبعضها للدنيا خالصة من دون الدنيا ، وبعضها للدنيا خالصة من دون الآخرة .

كان المفهوم الصحيح للعبادة هو الذي يحكم حياتهم ، ويحكم تصورهم :

«قل: إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له ... » (١)

«وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» (٢).

وفى هذا المفهوم لا يمكن أن تنفصل الشعائر التعبدية عن العمل ، ولا الدنيا عن الآخرة . لذلك كانت الحياة فى حسهم حلقة متصلة لاانفصام فيها بين جزء وجزء . الصلاة فيها والنسك ، والطعام والشراب والجنس ، والقتال فى سبيل الله ، والسعى وراء الرزق ، وطلب العلم ، وعارة الأرض . كلها عبادة ، وكلها للدنيا والآخرة فى آن . وكل لحظة واعية تمر بالإنسان فى نهاره أو ليله ، وكل عمل يقوم به له متوجها فيه إلى الله ، وملتزما فيه بما أنزل الله له فهو لون من ألوان العبادة ، متصل بعضها ببعض ، وهو على الدوام يتنقل من عبادة إلى عبادة ، تحقيقا لغاية الوجود الإنسانى ، التى تشمل وجوده كله ، وتوجهه إلى الله .

وإذا كانت الشعائر التعبدية من صلاة وزكاة وصيام وحج ذات صبغة روحية غالبة ، فليس معنى ذلك أنها هي وحدها العبادة ، ولا أنها للآخرة منقطعة عن الدنيا ، فلكل منها مقتضى لابد أن تحققه في الحياة الدنيا . الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، والزكاة تطهر النفس

⁽١) سورة الأنعام [١٦٢ - ١٦٣]. (٢) سورة الذاريات [٥٦].

والمال ، والصيام يدرب على التقوى ، والحج يدعو إلى البر.. وهكذا تصبح كلها للدنيا والآخرة في آن.

وإذا كانت الأعمال الأخرى التي يقوم بها الإنسان في حياته ذات صبغة عقلية أو حسية غالبة ، فليس معنى ذلك أنها خارجة من نطاق العبادة بمعناها الواسع الشامل ، مادام يتوجه فيها إلى الله ، ويلتزم فيها بأوامر الله . ومن ثم فهي ليست للدنيا وحدها منقطعة عن الآخرة .

ومن مجموع حياة الإنسان ، ومن مجموع نشاطه على الأرض ، تتكامل العبادة التي يحقق بها غاية وجوده ، وتتصل في حسه الدنيا والآخرة بلا افتراق (٣) .

非 非 法

هكذا كانت الأمور فى حس الأجيال الأولى من المسلمين. كان الذى يجمّع حياتهم كلها، ويؤلف بينها، ويوحد وجهتها، هو لا إله إلا الله، بمفهومها الهائل العميق.

فحين تكون لا إله إلا الله هي الاعتقاد اليقيني الجازم بوحدانية الله جل جلاله ، وتكون من ثم هي الالتزام الجاد بمنهج الحياة الشامل المنزل من عند الله ليصحح مسيرة الإنسان في الحياة الدنيا ليصل به إلى مستقره الآمن في الآخرة . . فعند ثذ لا يمكن الفصل بين أمر في هذا

⁽٣) راجع فصل «مفهوم العبادة».

الدين وأمر ، ولا يمكن الفصل بين جزء من هذا المنهج وجزء (1) ! وحين كانت الجاهلية تعبد آلهة شتى ـ حتى مع قولهم بألسنتهم إن الله هو رب الأرباب ، وإنهم لا يعبدون الآلهة الأخرى إلا لتقربهم إلى الله زلني ! ـ كانت حياتهم شتاتا لا يتجمع .

كانوا لا يؤمنون بالآخرة ، ومن ثم فلاصلة فى حسهم بين الدنيا والآخرة .

وكانت الأرباب المعبودة شتى ، ومن ثم كانت العبادة مفرقة موزعة .

فالأصنام تعبد ساعة. والقبيلة تعبد ساعة. وعرف الآباء والأجداد يعبد ساعة. أو هي تعبد كلها جميعا ولكن بغير اتصال في الحس ولا ترابط. فالحياة تعاش ساعة بساعة بغير هدف حقيق ولا غاية:

«وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر» (٥).

ومادامت على هذا النحو فهى تعاش بمقتضى هوى اللحظة القائمة بغير حساب لما عداها : «اليوم خمر وغدا أمر»!!

ومن ثم كان الشتات هو الطابع المميز لتلك الجاهلية ككل جاهلية

⁽٤) راجع فصل «مفهوم لا إله إلا الله». (٥) سورة الجاثية [٢٤].

فى التاريخ ، وإن اختلفت درجات التشتت ومظاهره بين جاهلية وجاهلية على مدار التاريخ! (٢٠) .

ثم آمنت تلك الجاهلية بلا الله إلا الله فأصبحت خلقا آخر.. تجمع الشتات المتناثر ليلتقي في وحدة شاملة.

تجمعت القبائل المتناحرة لتكوِّن «أمة» لأول مرة فى تاريخها ، وكان قد مضى عليها من الزمن مالا يحصيه إلا الله ، ولا تقدر على هذه الوحدة لأنها تفتقد عنصر التجميع!

وتجمعت أجناس وألوان ولغات وثقافات متباينة ، فانصهرت كلها في بوتقة تلك الأمة الواحدة ، على نمط غير مسبوق ولا ملحوق في التاريخ!

وتجمعت «النفس» في وحدة موحدة الاتجاه.

لم تعد لحظة الجسد تسير في اتجاه ، ولحظة العقل في اتجاه ، ولحظة الروح في اتجاه .

فالإنسان كما فطره الله وحدة مترابطة متكاملة ، لا ينفصل فيها جانب عن جانب ، ولا يمارس الحياة تفاريق! وإنما فقد ترابطه

⁽٦) الجاهلية المعاصرة هي أشد آلجاهليات تمزيقاً لوحدة الإنسان وتشتيتا لاتجاهات حياته . ومن ثم يكثر فيها الانتحار والجنون والقلق والأمراض التفسية والعصبية . ويشتد فيها الشعور بالضياع .

الفطرى حين تفرقت آلهته وتفرقت عبادته . فلما توحد معبوده ، وتوحدت عبادته ، تجمع الشتات المتناثر ، وعاد كما خلقه الله ، تلك الوحدة الشاملة التي يتألف منها «الإنسان».

وتوحد سلوك الإنسان على منهج موحد..

لم يعد إنسان يقول: اليوم خمر وغداً أمر. فما الفرق بين اليوم. والغد؟ هل اليوم لإله والغد لإله؟ أم هو إله واحد له اليوم والغد وجميع الحياة؟!.

ومن ثم تجمعت ألوان النشاط المختلفة لينتظمها منهج واحد، مستمد من عندالله الواحد، وموجه إليه.

صارت حياة المسلم كلها: طعامه وشرابه ، وكيله وميزانه ، وبيعه وشراؤه ، وصلاته وعمله ، وحربه وسلمه .. محكومة كلها بدستور واحد هو شريعة الله . حرامه ما حرّم الله ، وحلاله ما أحله الله ، ومباحه ما أباحه الله . والمستحب عنده ما أحبه الله . والمكروه عنده ما كرهه الله . ومن ثم صار المتجه واحدا مها اختلفت الأمور . واصطبغ السلوك كله بصبغة واحدة على اختلاف مفرداته : صبغة الالتزام بما جاء من عند الله . وصار هذا هو السمت العام لذلك «الإنسان» .

وتوحد_ تبعاً لذلك كله_ طريق الدنيا وطريق الآخرة ..

كيف يكونان طريقين منفصلين؟
هل هذه لإله وتلك لإله آخر؟
هل الإله الذى يحكم الحياة الدنيا بشريعته ، غير الإله الذى يحاسب الناس يوم القيامة ويجازيهم؟
وعلى أى أساس يحاسبهم ويجازيهم؟

هل ميزان إلحياة الآخرة غير ميزان الحياة الدنيا ؟ هل يكون العمل حَسَناً في ميزان الدنيا وقبيحا في ميزان الآخرة ؟ أو قبيحا في ميزان الدنيا وحسنا في ميزان الآخرة ؟

أليس هو ذات الميزان وذات المعيار: ماكان حسنا فى الدنيا فجزاؤه الحسنى فى الآخرة ، وماكان شرا فى الدنيا فجزاؤه العذاب فى الآخرة ؟

«للذين أحسنوا الحسنى وزياهة ، ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة . أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ، وترهقهم ذلة . مالهم من الله من عاصم . كأنما أغشيت وجوهم قطعا من الليل مظلما . أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (٧) .

⁽٧) سورة يونس [٢٦ = ٢٧].

« فهن يعمل مثقال ذرة خيرا ، يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا ، يره $^{(\wedge)}$.

«تلك حدود الله . ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحته الأنهار خالدين فيها ، وذلك الفوز العظيم . ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها ، وله عذاب مهين» (٩) .

«أفن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟ إنما يتذكر أولوا الألباب. الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق. والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل، ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب. والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم، وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية، ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار. جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب. سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار. والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويفسدون في الأرض، أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار» (١٠).

بلى ! فكيف إذن تنفصل الدنيا عن الآخرة ، ويصبحان طريقين منفصلين ؟ !

⁽٨) سورة الزلزلة [٧-٨]. (١٠) سورة الرعد [١٩ – ٢٥].

⁽٩) سورة النساء [١٣ - ١٤].

كلا ! إنه طريق واحد ، أوله فى الدنيا وآخره فى الآخرة .. وهو طريق ذو جانبين ولكنه موحد الاتجاه نحو الآخرة .. جانب منه يسلكه أصحاب العمل الصالح فيصل بهم إلى الجنة ، والجانب الآخر يسلكه أهل السوء فيفضى بهم إلى العذاب . ولكنه واحد غير منقطع ما بين الدنيا والآخرة .

«كما بدأكم تعودون. فريقاً هدى وفريقا حق عليهم الضلالة. إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله» (١١).

非 非 非

بل وصل من اتصال الدنيا بالآخرة فى حس المسلمين الأوائل أنهم كانوا يعيشون بواقعهم فى الحياة الدنيا ، ولكن مشاعرهم وأفكارهم متعلقة بالآخرة ، يعيشونها كأنها حاضر أمامهم مشهود.

لقدكان من شدة التركيز في القرآن على البعث والحساب والجزاء ، ومن الحيوية الفياضة في عرض مشاهد القيامة في القرآن ، أن عاش المسلمون بحسهم وخيالهم في اليوم الآخركأنما يرونه أمامهم اللحظة ويعيشون أحداثه ، بل كأنما الدنيا بكل واقعها ماضٍ قد كان ، والآخرة بأحداثها هي الحاضر الآن !

« وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قالوا : إناكنا قبل في أهلنا

⁽١١) سورة الأعراف [٢٩ ـ ٣٠].

مشفقين. فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم. إناكنا من قبل ندعوه ، إنه هو البر الرحيم» (١٢).

وبهذا الإيمان الراسخ باليوم الآخر إلى درجة اليقين ، وبهذه الحيوية في العرض ، التي تهز الوجدان من أعاقه ، كان الواحد منهم يعيش لحظته الحاضرة ، ثم يعيش في التوّل جزاءها في الآخرة ! ها هو ذا يعمل العمل في هذه اللحظة في الحياة الدنيا ، ثم يتصور موقعه من الجنة حين يكون عمله في طاعة الله . ثم ها هو ذا يعمل العمل في هذه اللحظة في الحياة الدنيا أو يهم به من ينظر في خوف وإشفاق ليرى موقعه من النار إذا كان العمل في معصية الله .

ومن ثم صلحت أعالهم فى الحياة الدنيا _ فى غالبيتها العظمى _ بل ارتفعت إلى تلك الآفاق العالية التي تشبه المعجزات . .

لم يكونوا ملائكة ، ولاكان مطلوبا منهم أم يخرجوا عن بشرتيهم . . والبشركلهم عرضة للخطأ إلا المعصومين عليهم صلوات الله وسلامه . ولكنهم _ إذا أخطأوا _ سرعان ما يتوبون .

«والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم _ ومن يغفر الذنوب إلا الله _ ولم يصروا على ما فعلواوهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها

⁽١٢) سورة الطور [٢٥ ــ ٢٨].

الأنهار خالدين فيها. ونعم أجر العاملين» (١٣).

«كل بني آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون» (١٤) .

ومن ثم كذلك كانت الدنيا والآخرة فى حسهم حسبة واحدة متصلة ، لاحسبتين منفصلتين!

松 谷 於

حقا إن الدنيا ذمت فى القرآن ، ولعنت على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونصح الناس بالتخلى عن حبها والتعلق بها . . ولكن فى أى مجال جاءت هذه التوجيهات فى القرآن والحديث ؟

لقد جاءت فى مجالين اثنين : حين تكون الدنيا ـ أى حبها والتعلق بها ـ حاجزا بين الناس وبين الإيمان بالله واليوم الآخر ، أو حاجزا بينهم وبين الجهاد فى سبيل الله .

«وفرحوا بالحياة الدنيا، وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع» (١٥).

«إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ،

⁽۱۳) سورة آل عمران [۱۲۰ ـ ۱۲۰] . (۱۵) سورة الرعد [۲۰] . (۱٤) سبق ذكره .

والذين هم عن آياتنا غافلون. أولئك مأواهم النار بها كانوا يكسبون » (١٦) .

«وويل للكافرين من عذاب شديد ، الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ، أولئك فى ضلال بعيد» (١٧) .

«ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم . ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، وأن الله لا يهدى القوم الكافرين » (١٨) .

وهذه وأمثالها واردة فى حب الدنيا الذى يصرف الناس عن الإيمان بالله واليوم الآخر.

أما حب الدنيا الذي يصرف عن الجهاد في سبيل الله بالأنفس والأموال فقد جاء فيه أمثال هذه الآيات :

«قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، أحب إليكم من الله ورسوله ، وجهاد في سبيله ، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين» (١٩).

⁽۱۲) سورة يونس [۸]. (۱۸) سورة النحل [۱۰۱ ــ ۱۰۷].

⁽١٧) سورة [براهيم [٧- ٣]. (١٩) سورة التوبة [٢٤].

« وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطول منهم ، وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين. رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ، وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون » (٢٠).

«فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في ستبيل الله ، وقالوا لا تنفروا في الحر. قل: نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون » (٢١) .

والمتحدث عنهم فى تلك الآيات جميعا هم إما من الكفار الخلص، وإما من المنافقين، الذين يتظاهرون بالإسلام نفاقا ورياء ولكنهم فى دخيلة أنفسهم غير مؤمنين، وهم فى الدرك الأسفل من النار، وهم فى حكم الله كافرون:

«إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجدهم نصيرا» (٢٢)

«وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ، ولا يأتون الصلاة إلاوهم كسالى ، ولا ينفقون إلا وهم كارهون . فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ، إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا ، وتزهق أنفسهم وهم كافرون » (٢٣) .

⁽۲۲) سورة النساء [۱٤٥].

⁽٢٣) سورة التوبة [٥٤] ـ ٥٥].

⁽۲۰) سورة التوبة [۸۸ – ۸۷].

⁽٢١) سورة التوبة [٨١].

وفي هذين المجالين تذم الدنيا للأسباب الواضحة المبينة في الآيات . .

ولكن ما حقيقة الموقف في هذين المجالين؟

حقیقة الموقف أن الدنیا هنا منفصلة فی حس صاحبها عن الآخرة ، إما لأنه لا یؤمن بها أصلا ، وإما لأن اعتقاده بها ضعیف مبهم متداخل ، لا یکون فی حسه صورة واضحة ، ولا یؤثر – من ثم – فی فکره ولا مشاعره ولا سلوکه الواقعی .

والقضية في حسه على هذا النحو: جنة يوعد بها على غير إيمان منه ، أو إيمان يستوى وجوده وعدمه خات تكاليف في النفس والمال ، وقعها في حسه أنها حرمان من المتاع ، لأنه لايريد أن يكتني بالقدر الذي أباحه الله ، إنما يريد أن يسترسل مع شهواته ، ولا يستخدم جهاز «النضبط» الذي وهبه الله إياه ليتحكم في هذه الشهوات . وفي مقابل ذلك متاع قائم بالفعل ، هو مسترسل فيه إلى أقصى المدى ، ويقال له إن استمتاعه به على النحو الذي يزاوله سيحرمه من الحنة .

وحين صارت القضية على هذا النحو، وصار الخيار بين الجنة الموعودة مع الحرمان من المتاع الزائد عن الحد، وبين المتاع الطاغى مع الحرمان من الجنة في الآخرة الموعودة، فقد آثر الحياة الدنيا.

« فأما من طغی » وآثر الحیاة الدنیا ، فإن الجحیم هی المأوی » (۲٤) .

« بل تؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقي » (٢٥) .

« والذين كفروا يتمتعون ، ويأكلون كما تأكل الأنعام ، والنار مثوى لهم » (٢٦) .

وقد آثر أن يستمتع بما بين يديه من المتاع الزائد عن الحد، لأن الحرمان منه أشد لذعا في حسه من العذاب الذي توعده الله به ، إما لأنه لا يؤمن بالآخرة أصلا ، فالعذاب المتوعد به في حسه وهم لا حقيقة له ، وإما لأنه ضعيف الإيمان بالآخرة ، ومن ثم فإن ذلك العذاب ، المنبهم في خياله ، أخف وزنا في حسه من العذاب القريب الذي يحدثه حرمانه من المتاع .

وفى الحالين هى حالة غير سوية ، تختل الموازين فيها فى حس صاحبها ، لأنه لا يؤمن إلا بما تدركه حواسه ! (٢٧) ويغفل عن الدلالة المعنوية لما تدركه حواسه :

⁽٢٤) سورة النازعات [٣٧].

⁽٢٥) سورة الأعلى [١٦ - ١٧].

⁽٣٦) سورة محماد [١٢].

⁽۲۷) هذه هى السمة البارزة للجاهلية المعاصرة بصفة خاصة ، وإن كانت تنسب هذا الحلل فى الفطرة إلى «العلم» ومقتضياته ! كأنما كتب على العلم أن يمسخ كيان الإنسان !

«لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل. أولئك هم الغافلون» (۲۸).

أو هو كالأعشى الذى لا تتضح فى نظره إلا المشاهد القريبة ، فتكون وحدها هى ذات الوقع الواضح على جهاز التلقى عنده ، أما المشاهد البعيدة فهى مختلطة مبهمة متداخلة غير ذات وقع واضح على ذلك الجهاز :

« ومن يَعْشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين . وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون » (٢٩)

张 张 张

أما في حس الإنسان السوى فالقضية مختلفة تماما ..

إن الإنسان السوى ـ بادئ ذى بدء ـ لا يغلق روحه دون عالم الغيب ، ولا يحصر نفسه فى محيط ما تدركه حواسه فحسب ، فقد زوده خالقه سبحانه ـ لكى يعينه على القيام بمهمة الخلافة التى خلقه من أجلها ـ بقدرتين متقابلتين ، يؤدى بكل منها جانبا من مهمة الخلافة ، ويتوازن بهما معاً فلا يفقد توازنه من هنا ولا من هناك .

⁽٢٨) سورة الأعراف [١٧٩]. (٢٩) سورة الزخرف [٣٦ ـ ٣٦].

إحداهما هي الإيمان بما تدركه الحواس والثانية هي الإيمان بالغيب. وبالقدرة الأولى يتعامل مع واقع الحس القريب ، ومع الكون المادى من حوله ، فيتعرف على خواص المادة ، ويستثمر علمه في تحقيق ما سمخر الله له من طاقات السهاوات والأرض من أجل تحسين أحواله على الأرض. وبالقدرة الثانية يتعامل مع الحقائق التي لا يدركها حسه ـ وإن كان يدرك آثار وجودها ـ والتي هو مفطور على الإيمان بها ، والتعامل معها ، والارتباط بها ، كحقيقة الألوهية ، وحقيقة النبوة والوحى الإلهي، وحقيقة البعث والجزاء، ليقوم بالجانب الآخرــ الأهم في الحقيقة ــ وهو إقامة العارة المادية للأرض على مقتضى المنهج الرباني ، فلا تكون مجرد عارة مادية ، ولا تكون محصورة في مطالب الجسد وملذاته ، إنما ترتفع لتكون «حضارة» بالمعنى الحقيق للحضارة . أي عارة تحيط بها قيم عليا ، توجهها الوجهة اللاثقة «بالإنسان»، الذي خلقه الله من قبضة من طين الأرض ونفحخة من روح الله ، ولا يتحقق مقتضي النفخة الروحية فيه إلا بهذه القيم المستمدة من الوجى الرباني ، والتي يبقي الإنسان بدونها غارقا في الطين، لا يقدر على الارتفاع عنه، لأنه يعطل في نفسه جهاز الارتفاع والتحليق..

وهذا الإنسان السوى ــ المتوازن فى تركيبه بين قبضة الطين ونفخة الروح ، المستمد نظام حياته من المنهج الربانى ــ ترتسم القضية فى حسه بصورة مختلفة ..

فنى الحياة الدنيا قدر من المتاع أباحه الله .. أباحه منذ هبط آدم وزوجه إلى الأرض :

«وقلنا اهبطوا ، بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين» (٣٠) .

هذا القدر الذي حدده الله بعلمه وحكمته ، يعلم سبحانه أنه هو القدر المناسب للكيان البشرى ، الذي يعينه على القيام بدور الخلافة في الأرض دون أن يدمر هذا الكيان أو يعطبه . وفي الوقت ذاته يتمثل فيه الابتلاء الذي خلق الإنسان له . فقد خلق الله الكيان البشرى محببة إليه الشهوات :

«زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث. ذلك متاع الحياة الدنيا...» (٣١).

وفى الوقت نزاتة حدد الله الحدود :

«تلك حدود الله فلا تقربوها » (٣٢).

«تلك حدود الله فلا تعتدوها» (٣٣).

ومن رحمته حدد له تلك الحدود التي علم سبحانه أنها تحقق القدر المعقول من المتاع دون أن تعطب كيان الإنسان ، ولكن نقطة الابتلاء

⁽٣٠) سورة البقرة [٣٦]. (٣٢) سورة البقرة [١٨٧].

⁽٣١) سورة آل عمران [١٤]. (٣٣) سورة البقرة [٢٢٩].

هى تزيين الشهوات له بحيث يرغب فى الاستزادة منها ، وتقييده ـ فى الوقت ذاته ـ بهذا القدر المباح له ، وعدم الساح له بتجاوزه ولو هفت نفسه إلى المزيد . .

ولكن الله وقد حدد للإنسان هذا القدر من المتاع لمصلحة الإنسان ذاته والله هو الغنى لم يترك الإنسان ليتعذب بالحرمان ، بين حب الشهوات المزين له ، وبين القيود المفوضة عليه ولو أنها لمصلحته وإنما وهب له أداة عظيمة النفع ، عظيمة التأثير ، يستطيع بها أن «يضبط» منطلق شهواته دون أن يحس بلذع الحرمان ، بل يحس عن طريقها بالرفعة والاقتدار . الرفعة عن مباذل الشهوة ، والاقتدار على الضبط ، فيعوضه هذا الإحساس العظيم عما قد يحسه في مبدإ الأمر من الحرمان ، حتى يتعود فلا يعود يحس به .

تلك الأداة العظيمة هي «القلب» أو «العقل» أو «الفؤاد» (٣٤):

« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون» (٣٥).

«أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان

⁽٣٤) ترد هذه الألفاظ مترادفة فى اللغة العربية وكذلك يرد اسم القلب أو الفؤاد فى القرآن بمعنى العقل .

⁽٣٥) سورة النحل [٧٨].

يسمعون بها ؟ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور» (٣٦١)

ونقطة الابتلاء في الأمركله هي : هل يستخدم الإنسان هذه الأداة العظيمة التي وهبها الله له ، فيضبط منطلق شهواته ، ويرتفع بذلك الضبط إلى المستوى اللائق له ، وينشئ «الحضارة» بمعناها الحقيق ، ويحقق دور الحلافة الراشدة .. وينال فوق ذلك كله الجزاء الأوفى في الآخرة ، في الجنة التي «فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» (٣٧) أم يلتي هذه الأداة العظيمة جانبا ، وينساق مع شهواته ، فيهبط وينتكس ، ويدمر نفسه فردا وجاعة على المدى القريب أو المدى البعيد ، ولا ينشئ «الحضارة» الحقيقية اللائقة به ، ولا يحقق الخلافة الراشدة في الأرض ، وفضلا عن ذلك كله يتعرض للعقاب الرهيب الذي لا تطيقه النفوس ولا تطيقه الأبدان :

«إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراكلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب . إن الله كان عزيزا حكيما . والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا » (٣٨) .

وإذا كانت هذه هي القضية في حس الإنسان السوى فالموقف

⁽٣٦) سورة الحج [٤٦]. (٣٨) سورة النساء [٥٠ ـ ٥٠].

⁽۳۷) متفق عليه.

الذى تمليه الحكمة ، ويتناسب مع «الفؤاد» الذى وهبه الله له ، أن يكتنى بالقدر المباح من المتاع لا يتجاوزه إلى ما حرم الله ، فتستقيم حياته فى الدنيا ، وينجو من عذاب الله الرهيب ، ويستمتع فى الآخرة بالجنة والرضوان .

وهكذاكان الأمر فى حس الأجيال الأولى التى تربت على المنابع الصافية لهذا الدين ، كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . وكانت الدنيا والآخرة فى حسهم ـ تبعا لذلك ـ طريقا واحدا وحسبة واحدة :

« وابتغ فيها آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » (٣٩) .

«هنو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من وزقه ، وإليه النشور» (١٠) .

* * *

ولكن هذا التوازن الجميل الذى أنشأه الإسلام فى النفس المشرية ، وحققته الأجيال الأولى من المسلمين ذلك التحقيق الرائع. الذى وعاه التاريخ ، والذى أثر فى الواقع البشرى بصورة لا يوازيها تأثير آخر فى التاريخ..

⁽٣٩) سورة القصص [٧٧]. (٤٠) سورة الملك [١٥].

هذا التوازن الجميل بدأ يختل بعد تلك الأجيال الأولى ، وإن كان الجلل في هذه المرة قد وقع في الاتجاه المقابل تماما لما كان عليه في الجاهلية العربية ..

كان الحلل فى الجاهلية العربية هو انفصال الدنيا فى حس الناس عن الآخرة ، لعدم إيمانهم بالآخرة والبعث والجزاء ، ومن ثم إيثار الحباة الدنيا ؛ وهو الآن انفصال الدنيا فى حس الناس عن الآخرة لاستصغارهم شأن الحياة الدنيا واحتقارها ، ومن ثم إيثار الآخرة!

ولأول وهلة يبدو هذا الأمر هو عين الإيمان! وهو الواجب الذي ينبغى للمرء المؤمن أن يسعى إليه، وحين يصل إليه يكون قد بلغ الذروة التي ما بعدها ذروة، وحقق أروع ما في هذا الدين..

وهذا ولا شك هو الذى خطر فى بال أولئك الذين آثروا الآخرة على الدنيا على الصورة التى قدمتها الصوفية ، التى انتشرت قرونا طويلة على امتداد الأرض الإسلامية ، وما تزال آثارها قابعة هنا وهناك . .

أليس الله هو الذي يقول :

« فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز . وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » (٤١) ؟

أو ليس الذي يبتعد عن متاع الغرور ، ويتعلق بالدار الآخرة وهي

⁽٤١) سورة آل عمران [١٨٥].

«الحيوان لوكانوا يعلمون» (٤٢) هو الفائز حقا ، والمحقق لجوهر الدين حقا ، والخارب لأروع الأمثلة حقاع !

ولكن عند التحقيق تتبين جوانب من الأمر قد تكون خافية لأول وهلة ..

أما أنهم ابتغوا بذلك وجه الله .. فنعم ! وأما أنهم سلكوا الطريق الذي فرضه الله .. فلا !

ولا نتكلم الآن عن شطحات الصوفية ، ولا عن وحدة الوجود ، ولا عن الحلول ، ولا أمثال ذلك من انحرافات العقيدة . .

ولا نتكلم الآن كذلك عن عبادة الأضرحة والأولياء ، وما انتشر حولها من بدع وخرافات وأساطير ، وعن اتخاذ وسطاء بين العباد وبين الله ، وقد جاء هذا الدين لينفي الوساطة كلها ، ويحرر القلب البشرى منها ، ويعقد صلته بالله مباشرة بلا وسطاء ولا شركاء :

«وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان» (٤٣).

لا نتحدث الآن عن هذه الانحرافات كلها ، وعن الشرك الواقع

⁽٤٢) جاء فى سورة العنكبوت (آية ٦٤): «وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ، وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون».

⁽٤٣) سورة البقرة [١٨٦].

فيها ، لأن مجال حديثنا الحاضر هو «مفهوم الدنيا والآخرة» ، لذلك نتحدث هنا عما أفسدته الصوفية في هذا المجال بالذات .

لقد اتكأ الصوفية كثيراً على الآيات التي وردت في ذم الدنيا ، والأحاديث التي وردت في لعنها (٤٤) .

واتكأوا كذلك كثيراً على حال الزهاد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين هجروا متاع الحياة الدنيا ولم يتعلقوا بشيء منه .

واتكأواكذلك كثيراً على أن التعلق بالدنيا يؤدى فى حياة المؤمن إلى المعصية التى تجلب عليه غضب الرب ، وتعرضه للعذاب فى الآخرة ، وقالوا: إنه لا سبيل إلى درء المعاصى إلا باحتقار الدنيا وازدرائها ، والجروج من زخرفها وزينتها ، والبعد عنها قدر المستطاع . .

فأما الآيات فقد وردت _ كما قلنا _ في حق الكفار والمنافقين . .

وصحيح أن المؤمن يناله نصيب منها إن وقع فى بعض ما يقع فيه الكفار_ وإن كان لا يكفر بذلك مادام محافظا على أصل الإيمان_كما ورد فى هذه الآية التي تخاطب المؤمنين:

« يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم

⁽٤٤) كقوله صلى الله عليه وسلم: «الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها ، إلا ذكر الله أو عالم أو متعلم» رواه ابن ماجه والترمذي .

إلى الأرض؟ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة؟ فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل. إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ، ولا تضروه شيئا ، والله على كل شيء قدير» (١٥٠).

وكماكان سيدنا عمر _ رضى الله عنه _ فى خوف دائم من أن يناله قول الله تعالى : «أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا » (٤٦) وقوله تعالى : «ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » (٤٧) مع علمه بأنهما نزلتا فى حق الكفار . .

ذلك صحيح ..

والتعلق بالدنيا ، الذي يؤدي إلى الغفلة عن الآخرة ، أمر لا يقبله الله من مؤمن ولا كافر ، وإن اختلف الجزاء بين هذا وذاك ..

ولكن هذا كله شيء ، واعتبار الدنيا والآخرة معسكرين متقابلين إن اتجه الإنسان لأحدهما انفصل ـ بالضرورة ـ عن الآخر ، ومن ثم ينبغي الاختيار بينهما لاختيار أحدهما ونبذ الآخر . هذه قضية مختلفة لا سند لها من دين الله!

ولنستمع لقول رب العالمين (٤٨):

⁽٥٤) سورة التوبة [٣٨ ـ ٣٩].

⁽٤٦) سورة الأحقاف [٢٠].

⁽٤٧) سورة التكاثر [٨].

⁽٤٨) هو قول محكى عن قوم قارون ، ولكن السياق يدل على أنه قول مرضى عند الله .

«.. وابتغ فما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا_{» (٤٩)}

وقوله تعالى:

« هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ، وإليه النشور» (٥٠).

وقوله تعالى:

«قل : من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة» (٥١).

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: « .. ألا إنى أعبدكم لله وأخشاكم له ، ولكني أصوم وأفطر ، واقوم وانام وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني» (^{۱۵)}.

ونقف وقفة خاصة عند قوله تعالى : «قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده ..»

فذكر الزينة في هذا المحال له دلالته الخاصة . إذ الزينة جمال . والحال شيّ زائد على الضرورة . أي أن الذي يبيحه الله _ سبحانه وتعالى ــ لعباده ليس هو مجرد الضرورة التي تحفظ الحياة على أي صورة

(٥١) سورة الأعراف ٢٣٢٦.

⁽٤٩) سورة القصص [٧٧].

⁽٠٠) سورة الملك ٢١٥٦.

كانت ، إنما هو شيء زائد على الضرورة ، يصل إلى درجة الجال .

وفى القرآن إشارات جمة إلى «ألجال» تحمل هذه الدلالة:

«أم من خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا
به حدائق ذات بهجة ماكان لكم أن تنبتوا شجرها» (٥٣).

«وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شئ ، فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجنات من أعناب ، والزيتون والرمان ، مشتبها وغير متشابه . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه (٤٥) . إن في ذلك لآيات لقول يؤمنون » (٥٥) .

«والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون» (٥٦).

أما الحديث النبوى فيقرر أن العبادة التي يرضاها الله لعباده لا يدخل فيها الامتناع البات عن متاع الأرض والانصراف الكامل

⁽۳۳) سورة النمل [۲۰].

⁽²⁵⁾ لم يقل هنا «كلوا من نمره» كما جاء فى نفس السورة [آية ١٤١] لأن المطلوب هنا _ إلى جانب التذكير بنعم الله ذات النفع للإنسان _ توجيه الوجدان إلى الجال الرائع فى خلق الله المبدع ، وأن هذا الجال ذاته آية من آيات الله تؤدى بالفطرة السليمة إلى الإيمان .

⁽٥٠) سورة الأنعام [٩٩]. (٥٦) سورة النحل [٥٦ ٢].

عنه. وأن هذا الامتناع ليس هو التعبير الصحيح عن صدق العبادة والخشية لله. لأن أعبد الخلق جميعا عليه الصلاة والسلام وأخشاهم لله لا يفعل ذلك ، ولا يأمر به ، بل يعتبر من يقوم به راغبا عن سنته صلى الله عليه وسلم ، وينذره بأنه حائد عن الطريق: «فن رغب عن سنتى فليس منى».

أما الزهاد الذين اختج بهم الصوفية فهم على طريق آخر غير طريق الصوفية!

ولقد يشتبه المظهر لأول وهلة بين الزاهد والصوفى من بعض الجوانب.

كلاهما مترفع عن المتاع ، منصرف عنه أكثر وقته . وكلاهما صارف همه إلى أنواع من العبادة لا تدع فرصة للاستمتاع بالمتاع المباح . .

نعم .. ولكنها يفترقان بعد ذلك ! ويكاد يصل الافتراق بينهما إلى طرفى نقيض !

يفترقان فى نوع العبادة التى يتجه كل منهما إليها .. أى أنهما فى الحقيقة يفترقان فى «مفهوم العبادة» ، ومن ثم يفترقان فى منهج الحياة ، وفى منهج السلوك.

إن الامتناع عن بعض الشهوات يحتاج بادئ ذى بدء إلى عزيمة قوية ، لبناء «السد» الذى يقف فى وجه هذه الشهوات . ثم إن هذا الامتناع ذاته ، حين يقف فى وجه التيار المتدفق للشهوات ، يحمّع فى النفس طاقة هائلة ، رفيعة فى ذاتها ، تتجه إلى مستويات أعلى ، وتنطلق فى تلك المستويات العالية ، كما يقف السد فى وجه تيار الماء فيحجز جانبا منه ، فيرتفع مستواه ، فيصل إلى مستويات لم يكن يصل التيار إليها فى مجراه الأصلى ..

وإلى هنا تتشابه «العملية النفسية» التي تنشأ عن الزهد ، والتي تنشأ عن التصوف .. وتتجمع في نفس الزاهد وفي نفس الصوفي طاقة نفسية هائلة ، رفيعة المستوى ، قابلة للتوجه إلى آفاق لا يصل إليها قط صاحب النفس المنساقة مع الشهوات ..

ثم تختلف الآفاق ..

فأما زهاد الجيل الأول ، وعلى رأسهم سيد الزهاد ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقد علمنا طبيعة الآفاق التي رفعهم إليها زهدهم في متاع الأرض . .

الجهاد في سبيل الله . الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا . الجهاد ليكون الدين كله لله . الجهاد لإقامة العدل الرباني في واقع الأرض . الجهاد لإقامة المجتمع المثالي الذي يحقق في عالم الواقع ما يتخيله الناس في عالم المثال . الإيجابية الهائلة التي تغير الواقع المنحرف ، وتنشئ بدلا

منه الواقع السوى . الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، اللذان هما رسالة الأمة التي أخرجها الله لتكون خير أمة :

«كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله » (٥٧) .

آفاق عالية ، تنطلق فيها الطاقة المخزونة التي رفعها الزهد ، فتنشئ في عالم الواقع بناء شامخا يبهر الأنظار ، فيسرى نوره في الأرض ، فيضئ من ظلمات البشرية ما قدر الله أن يستضئ .. ويسرى النور في نصف قرن فيضئ ما بين المحيط في الغرب إلى ما وراء الهند في الشرق ، لا تقف في وجهه الظلمات .

هذا ، والزهاد _ وعلى رأسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم _ لا يحرّمون المتاع ، إنما يرتفعون فوقه ، فلا يعود يشغلهم عن الجهاد فى تلك الآفاق العالية التى يجاهدون فيها ، ولا عن الأهداف العالية التى يعملون بطاقتهم الإيجابية كلها لتحقيقها فى عالم الواقع .

وحين تجد الزوج الودود عائشة _ رضى الله عنها _ رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ ينام على عباءته فوق الأرض اليابسة فتشفق عليه ، فتطبق له العباءة طبقتين لتكون ألين لجسده الشريف ، يغضب _ عليه الصلاة والسلام _ ويأمرها أن تعيدها كما كانت ، ليظل على درجته الرفيعة من التبتل إلى الله ، لا يشغله هذا «اللين» النسبى عن درجته الرفيعة من التبتل إلى الله ، لا يشغله هذا «اللين» النسبى عن

⁽۵۷) سورة آل عمران [۱۹۰].

توفير طاقته كلها للجهاد فى سبيل الله . ومع ذلك فهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى قال : «ولكنى أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى ! » .

أما الصوفية فماذا صنعوا بتلك الطاقة الهائلة التي وفرها في نفوسهم ترفعهم عن المتاع؟!

لقد صرفوها إلى نوع آخر من الجهاد .. جهاد الشيطان في داخل النفوس . وأولوا في سبيل ذلك كل آيات الجهاد الواردة في كتاب الله ، حتى تلك التي تشمل ألفاظا صريحة تنص على قتال الكفار والمنافقين والغلظة عليهم!

وجهاد الشيطان مأمور به ولا شك .. ومن تحصيل الحاصل أن نقول: إن ذلك الجيل الفريد الذى حقق فى عالم الواقع ماحقق من المثل الرفيعة ، قد جاهد الشيطان وظفر فى جهاده له بأكبر نصر عرفه التاريخ . ولكنهم ما جعلوا معركتهم مع الشيطان هى نهاية المطاف .. حتى بعد أن انتهى سلطانه من نفوسهم بشهادة العليم الخبير:

«إنه ليس له سلطان على الذين, آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. إنما سلطانه على الذين يتولونه ، والذين هم به مشركون » (٥٨) .

وهو وصف يصدق على المؤمنين جميعا ، ولكنه يصدق بصفة

⁽۵۸) سورة النحل [۹۹_ ۲۰۰_].

خاصة على الذين شهد الله لهم بالإيمان:

«آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون .. » (٥٩) .

«أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضى الله عنهم ورضوا عنه . أولئك حزب الله . ألا إن حزب الله هم المفلحون» (١٠٠) .

إنماكانت معركتهم مع الشيطان وظفرهم عليه هى نقطة الانطلاق التى ينطلقون منها إلى البناء .. إلى الجهاد .. إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .. إلى إقامة العدل الربانى فى الأرض .. إلى دك حصون الشرك وإقامة حصون الإيمان .. إلى إزالة الطواغيت وإقامة حكم الله .. إلى إنشاء القوة التى يرهبها أعداء الله ..

وماكانوا يستطيعون أن يقوموا بشىء من هذاكله لو لم يبدأوا بجهاد الشيطان داخل نفوسهم ، أو لو بقيت معركتهم مع الشيطان معلقة بغير نصر حاسم عليه .. ولكنهم لم يتوقفوا قط عند معركتهم تلك مع الشيطان ليقولوا : هنا غاية الغاية ونهاية المطاف !

** ** **

وأمر آخر فى تلك المعركة مع الشيطان يلفت الانتباه .

⁽٩٩) سورة البقرة [٢٨٥].

⁽٦٠) سورة المجادلة [٢٢].

لقد كانت سبيل الصوفية في معزكتهم مع الشيطان هي قتل «النفس» التي يأوى إليها الشيطان حتى لا يجد له مأوى فينصرف! فإنما مأواه هو الشهوات المزينة للإنسان ، يظل ينفث فيها وينفخ فيها حتى تشتعل ، فيعجز صاحبها عن إطفائها فتزداد اشتعالا! أما إذا ماتت الشهوات فما عاد للشيطان مأوى في النفس يأوى إليه ، وما عاد يستطيع أن يقوم بدوره الذي يضطلع به:

... eléction ... eléction ... eléction ...

« واستفزز من استطعت منهم بصوتك ، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ، وشاركهم في الأموال والأولاد ، وعدهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا » (١٢) .

لذلك يظل الصوفي « يجاهد» ، ويتحمل في سبيل ذلك الجهد ، حتى يظفر أخيرا بقتل شهواته ، لينصرف عنه الشيطان !

أما الزاهد فليست سبيله في معركته مع الشيطان هي « قتل النفس » بقتل الشهوات .

إنما سبيله التي يستمدها من المنهج الربانى ، هى «تحصين النفس» من غواية الشبطان جهد الطاقة ، مع الإبقاء على حيويتها من أجل عارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى ، ومن أجل الجهاد فى سبيل الله .

⁽٣١) سورةالنساء [١١٩]. (٣٢) سورة الإسراء [٦٤].

إن هذه الدوافع التي أوجدها الله في النفس الإنسانية لم يوجدها عبثا ، إنما أوجدها سبحانه لغاية ..

فلقد خلق الله الإنسان ليكون خليفة فى الأرض ، وكلفه بعمارتها . «وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة » (٦٣) . «هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » (٦٤) .

ولحكمة ما خلقه من قبضة من طين الأرض ، ثم نفخ فيه من روحه ، ولم يخلقه _ كما خلق الملائكة _ من نور خالص !

«إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » (٦٥) .

ومع قبضة الطين وجدت فى النفس البشرية تلك الشهوات المزينة للإنسان :

«زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والحيل المسومة ، والأنعام والحرث . ذلك متاع الحياة الدنيا . . » (٦٦) .

ولكنها بالنفخة العلوية لم تعد طينا معيًا ، ومتعة حسية غليظة كمتعة الحيوان ، إنما صارلها _ وهي طين بعد _ شفافية روحية تقيها من

⁽٦٣) سورة البقرة [٣٠] . (٦٥) سورة ص [٧١ ــ ٧٧] .

⁽۹٤) سورة هود [۹۱]. (۹۲) سورة آل عمران [۱۵].

عتامة الطين ، وتشع فيها قيما ومبادئ وأهدافا وآفاقا جديرة «بالإنسان» الذي كرمه الله وفضّله :

« ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » (٦٧) .

ويعلم الخالق اللطيف الخبير أن هذه «الشهوات» أو قل «الدوافع» لازمة للوجود البشرى ، لتدفعه إلى العمل والإنتاج والإنجاز والنشاط والحركة والبناء والتعمير التى هى مقتضى الخلافة فى الأرض حتى لا تقف الحواجز والموانع وهى كثيرة دون تحقيق الدور المطلوب من الإنسان .

كما يعلم سبحانه أنه لابد لها من الضبط لكى لا تتحول عن وظيفتها السوية وتصبح دمارا للإنسان .

والمنهج الربانى هو الذى يحدث التوازن المطلوب ، الذى يضبط هذه الشهوات دون أن يقتلها ، ودون أن يطلقها فى الوقت ذاته عارمة تحطم السدود .

وصحيح أن هذه «الدوافع» أو قل «الشهوات» هي نقطة الابتلاء في حياة الإنسان :

⁽٦٧) سورة الإسراء [٧٠].

«إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا» (٦٨).

وهذا هو الجانب الذي لمحته الصوفية فركزت عليه .. إذ رأت أن الإنسان يسقط في الابتلاء من جانب شهواته ، وأنه إذا استطاع أن يقضى عليها ويقتلها فقد نجح في الابتلاء ..

ولكنهم أغفلوا الحكمة من إيجادها ، ومن ضرورة الإبقاء عليها حية في نفس الإنسان ، مع ضرورة ضبطها ما وسع الإنسان الجهد . كما يقضى بذلك المنهج الرباني كما أنزله الله وكما بينه رسول الله :

«ألا إنى أعبدكم لله وأخشاكم له ، ولكنى أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وأتزوج النساء . . » (٦٩)

وحين أغفلوا هذه الحكمة فماذا كانت النتيجة ؟!

إن الإنسان لا يستطيع أن يكون نورا خالصا كما تشتهى الصوفية من جهادها الضخم مع الشهوات!

وفى الوقت ذاته هل يكون الإنسان قد قام بالعبادة المطلوبة منه ــ المفصلة على قده هو (٧٠) ــ الو نجح فى الوصول إلى الشفافية النورانية الروحية بقتل الجسد وإماتة الشهوات ؟!

⁽٦٨) سورة الكهف [٧]. (٧٠) راجع فصل «مفهوم العبادة».

⁽٦٩) سبق ذكره.

لا أحد ينكر أن الصوفي الحقيقي (٧١) يصل بالرياضة الروحية إلى آفاق شفيفة تحلق فيها روحه خفيفة من ثقلة الجسد، طليقة من جذب الشهوات، فترتاد عوالم لا يقدر عليها اللاصق بالطين، المستغرق في الشهوات.

لكن يقع الصوفى من جانب آخر فى خدر لذيذ يحيِّل إليه أنه «واصل» .. ومن هنا لا يعمل! لأنه إذا كان العمل، هو وسيلة الوصول للإنسان «العادى» ، وهو قد وصل بالفعل ، فما حاجته بعد إلى الوسيلة! إنما يسعى إلى الوسيلة من لم يتمكن من «الوصول» .. أما الواصلون .. فحسبهم أنهم واصلون!

وهكذا تلتقى فى نفس الصوفى عوامل كثيرة تصرفه عن العمل فى واقع الحياة .. عن «الجهاد» الذى يخوضه الزاهد لإقامة منهج الله فى الأرض .. لتكون كلمة الله هى العليا .. ليكون الدين كله لله .. لتحطيم الباطل وإزهاقه ، وإقامة الحق وإعلائه .. للبناء والتعمير .. للزيادة والنماء .. لإعداد القوة لإرهاب على الله ..

العامل الأول هو نظرته للدنيا وهي في حسه منفصلة عن الآخرة على أنها السجن الذي يسعى إلى الخلاص منه ، بانطلاقة الروح التي تخلصت من ثقلة الجسد ، فاتصلت بالنور الإلهي واتصلت بالآخرة المنقطعة في حسه عن الدنيا ..

⁽۷۱) أى الصادق المتبتل ، لا المشعوذ المحترف .

وحين تكون الدنيا هي السجن . فهل يسعى السجين قط إلى عارة السجن ، وهو يعانى منه ما يعانيه ؟!

إنما ينصرف بفكره عنه .. ولا يعنيه ما تلف منه أو تهدم .. ولا يسعى إلى إصلاح شيء فيه .. بينا هو يتطلع إلى يوم الخلاص منه !

والعامل الثانى هو انعدام «الرغبة» .. بسبب انعدام «الدوافع» التي تحرك الرغبات ..

إنما «يرغب» الإنسان في الطعام والشراب والملبس والمسكن والجنس. أو «يرغب» في القوة.. أو «يرغب» في التملك.. أو «يرغب» في العلم.. أو «يرغب» في العلم.. أو «يرغب» في المكانة .. أو «يرغب» في السبق.. أو «يرغب» في البناء الحسي أو المكانة .. أو «يرغب» في السبق .. أو «يرغب» في البناء الحسي أو المعنوى .. فيتحرك لتحقيق ما يعتمل في نفسه من رغبات ، المعنوى .. فيتحرك .. يتحرك لتحقيق ما يعتمل في نفسه من رغبات ، بصرف النظر عن كونها رفيعة أو هابطة ، سوية أو منحرفة ، ملتزمة أو طاغية ..

فأما حين يكون هَمُّ الرياضة الروحية هو قتل تلك الرغبات «لتخليص» النفس منها . . فلأى شئ يتحرك ؟ لأى شئ يسعى ؟ وهو لا يطلب شيئا من هذه الدنيا كلها . . وإن طلب فمجرد القوت الذى يحفظ الحياة . . وبأقل قدر من المثونة التى تحفظ الحياة ؟ !

وأما العامل الثالث فهو تلك الإشراقات الروحية ، أو إن شئت قل

ذلك الخدر الذى يحيِّل لصاحبه أنه « واصل » . . أو قل لذة الفناء التى تحدث الوجود!

وأياً سمينها .. فهى شعور يوحى للنفس بالرضى والاكتفاء .. الاكتفاء بما هو حاصل .. وعدم الرغبة فى شئ بعد! أو إن رغب فإنما يرغب فى «مقامات» أعلى .. فيبذل مزيدا من الرياضة الروحية .. مزيدا من قتل النفس لكى تحيا .. مزيدا من الفناء الذى يحدث الوجود!

وحين تجتمع تلك العوامل الثلاثة ، مضافا إليها المفهوم السلبى لعقيدة القضاء والقدر ، الذى لا يسعى إلى تغيير شيء مما وجد بالفعل ـ أياكان سوؤه ـ لأنه وجد بقدر من الله ! ولأن محاولة تغييره تعتبر في نظره تمردا على قدر الله ..

حين تجتمع تلك العوامل كلها فى نفس الصوفى فأى شئ يدفعه للحركة فى خضم الحياة الموّار؟! إنما قصاراه _ إن تحرك ليجتنب اللجة ، لكى ينعم فى الأرض بالسلام!

મુંદ એક મુંદ

وأخيرا تتكئ الصوفية _ كها أسلفنا _ على فتنة الدنيا التي تؤدى إلى الوقوع فى المعاصى ، والتي لا تتقى إلا بقتل شهوات النفس ، لكى تبتعد عن مزالق الشيطان . .

ويجدون فى هذا المجال وفرة من توجيهات القرآن ، ووفرة من توجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم .

«يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور» (٧٢) .

«يا أيها الناس اتقوا رُبكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا . إن وعد الله حق ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور» (٧٣) .

«واضرب لهم مثل الحياة الدنياكماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح. وكان الله على كل شيء مقتدرا» (٧٤).

«اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما . وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور» (٥٠٠) .

«... فو الله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما

⁽۷۲) سورة فاطر [٥]. (۷۲) سورة الكهف [٥٤].

⁽۷۳) سورة لقمان [۳۳]. (۷۰) سورة الحديد [۲۰].

تنافسوها ، وتلهيكم كما ألهتهم » (٧٦) .

وعن أبى ذر ـ رضى الله عنه ـ قال: «كنت أمشى مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حرة المدينة فاستقبلنا أحد، فقال: يا أبا ذر! قلت: لبيك يا رسول الله. قال: ما يسرنى أن عندى مثل أحد هذا ذهبا تمضى على ثالثة وعندى منه دينار، إلا شيئا أرصده لدين، إلا أن أقول به فى عباد الله هكذا وهكذا وهكذا _ عن يمينه وعن شهاله ومن خلفه. ثم مشى ثم قال: إن الأكثرين هم المقلون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا ، عن يمينه وعن شهاله ومن خلفه. وقليل ما هم » (٧٧).

ولقد سمع الصحابة _ رضوان الله عليهم _ هذه التحذيرات في كتاب الله المنزل ، وفي حديث الرسول _ صلى الله عليه وسلم _ وامتلأت بها قلوبهم ، وعلموا يقينا أن متاع الدنيا زائل ، وأن الآخرة هي النعيم الحقيقي الذي يستحق أن يحرص عليه ، فزهدوا في كثير من متاع الأرض . .

ولكنه _ كما أسلفنا _ ذلك الزهد الإيجابى المقدام البنّاء ، الذى يدفع أصحابه إلى الجهاد والمجالدة والمواجهة ، لا إلى الانحسار فى داخل النفس . وهو _ كما أسلفنا كذلك _ الزهد الذى يحصّن النفس ضد الفتنة لا الذى يقتل النفس للوقاية من الفتنة !

⁽۷۲) أخرجه البخارى . (۷۷)أخرجه البخارى .

إن هذه التحذيرات جاءت للتذكير ، حتى لا يفتن الناس بالدنيا وينسوا الآخرة ، ولم تجئ لمنع ممارسة الحياة فى الدنيا ، أو منع الحركة والنشاط والعمل فيها . .

إنها أشبه بلافتات تنبه الناس إلى الخطر عند منزلقات الطريق.. لا لكى يمتنعوا عن السير! وإنما ليحذروا الانزلاق! فإذا جاء قوم فقالوا: لا نسير في هذا الطريق لأن هناك لا فتات تحذر من الانزلاق، فقد بالغوا ولا شك في الحذر حتى وصل بهم الحذر إلى القعود! والواثق من نفسه يُقْبِلُ على السير ويحاول أن يتقي المزالق. أما الخائف فإنه يكف عن المسير!

وانظر إلى هذا الحديث من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم:

«والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا فتستغفروا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر الله لهم» (٧٨) .

هل هو حض على ارتكاب الذنوب ؟!

كلا بالقطع!

فما يكون من شأن رسول مرسل من عند الله _ صلوات الله وسلامه عليهم جميعا _ أن يحض الناس على إتيان الذنوب ، وهو الذي يدعو الناس إلى طاعة الله والابتعاد _ قدر الطاقة _ عن الذنوب !

⁽۷۸) أخرجه مسلم.

إنما هو حض على العمل!

فحين يمارس الإنسان العمل فى واقع الحياة فإنه يتعرض لوقوع الذنوب منه لا محالة !

«کل بنی آدم خطاء .. » (۲۹)

وعندئذ يكون سبيل المؤمن الذى يعمل فى واقع الحياة ثم يقع منه الذنب أن يستغفر:

«والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ــ ومن يغفر الذنوب إلا الله ــ ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ونعم أجر العاملين» (^^) .

أما الذي لا يذنب أبدا_ إن وجد هذا الإنسان قط_ فهو الذي لا يعمل أبدا! وتكون خطيئته الكبرى _ التي لا يتنبه لها هي أنه لا يعمل!! وهي خطيئة ثقيلة في الميزان، لأنها تقصير في أداء واجبات مفروضة على الإنسان!

ليست البراعة أن يحمل الإنسان فوق رأسه سلة مملوءة بالأشياء ، ثم يجلس ساكنا لا يتحرك أى حركة لكى لا يقع من السلة شئ ! لأنه

⁽٧٩) سبق ذكره.

⁽۸۰) سورة آل عمران [۱۳۵ ـ ۱۳۳].

مها بذل من الجهد وتحمل من المشقة فى هذه الجلسة الساكنة فقد نعطل عن الحركة المطلوبة منه!

«كلا! لما يَقْضِ ما أمره »! (١١)

إنما البراعة أن يتحرك الحركة المطلوبة والسلة فوق رأسه لا تقع على الأرض ، ولا يتبعثر ما فيها من الأشياء! فإذا وقع منه شئ رغم الجهد والمحاولة ، والنية السليمة لله فهنا يتفضل الله سبحانه بالعفو والمغفرة لمن لم يتهاون في الأمر ، ولم يستصغر وقوع ما وقع منه ، ولم يصرّ على ما فعل ، بل سارع بالتذكر وسارع بالاستغفار.

وهنا تتبدى رحمة الله بالإنسان حتى وهو مذنب ، مادام قائما بالعمل المطلوب منه ، ومادام الخطأ يقع منه فى أثناء أدائه للواجبات ، لا فى أثناء قعوده أو إعراضه عن الواجبات !

وتتبدى كذلك عظمة المنهج الربانى فى التعامل مع «الإنسان» .. ليس المطلوب من الإنسان _ فى المنهج الربانى _ أن يقتل رغباته لكى يسلم من ارتكاب الذنوب _ وهو لا يسلم أبدا فى الحقيقة ! _ لأن ذلك يعطل جوانب كثيرة من مهمة الحلافة التى خلق الله لها الإنسان .

إنما المطلوب منه أن يعمل ويتحرك في جميع المجالات المتاحة

⁽٨١) سورة عبس [٢٣].

المباحة ـ ليعمر الأرض بمقتضى المنهج الربانى ، وهو متقٍ لله جهد الطاقة :

« فاتقوا الله ما استطعتم . واسمعوا وأطيعوا » (٨٢) .

فتمتلئ الأرض بالنشاط والحركة ، والنماء والقوة ، مع النظافة بقدر ما يطيق البشر . وهذا هو «إصلاح الأرض» كما ورد في التعبير القرآني :

« ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها » (٨٣)

ثم يحدث الصراع والدفع فى واقع الأرض ، لرد الأرض إلى الصلاح إذا أفسد فيها المفسدون :

«ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين» (٨٤)

«ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا . ولينصرن الله من ينصره . إن الله لقوى عزيز» (٨٥) .

وهكذا يقوم الفرد المسلم والأمة المسلمة بمهمتها في الأرض .. ولا تنتهى هذه المهمة مادام الناس على الأرض.

⁽۸۲) سورة التغابن [٦٦]. (۸٤) سورة البقرة [٢٥١].

⁽٨٣) سورة الأعراف [٥٦]. (٨٥) سورة الحبح [٤٠].

وهكذا يكون الفرد المسلم والأمة المسلمة قد قاما «بالعبادة» المطلوبة _ فى نطاقها الواسع الشامل _ وحققا غاية الوجود الإنسانى كما أرادها الله ..

فأما «الزهاد» فقد قاموا بالأمر على مستوى الإحسان:

«قال : وما الإحسان ؟ قال : الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه .فإنه يراك » (٨٦) .

وأما الصوفية فقد انصرفوا إلى الصلاة والصيام و «الذكر» .. وقالوا : هذه هي الأعمال المطلوبة للآخرة .. أما أمور «الدنيا» فلا حاجة لنا إلى الخوض فيها ، لأنها الفتنة التي توقع في حبائل الشيطان !

ثم ..!

انصرفوا عن المشى فى مناكب الأرض والسعى وراء الرزق، واكتفوا من ذلك بالكفاف.

وانصرفوا عن العلم الدنيوى من طب وفلك ورياضيات وهندسة وفيزياء وكيمياء.. لأنه متعلق بالدنيا الفانية!

وانصرفوا عن التقدم المادى لأنه زخرف الحياة الدنيا المؤدى إلى التهلكة !

 العباد فيما أراد ، ولو أراد غير ذلك لكان، وحين يريد فإنه سيغير من عنده ويخلق الأسباب ..

وكانت النتيجة هي ما أصاب العالم الإسلامي من الفقر والجهل والمرض ، والضعف والتخلف في جميع الميادين !

ولا يستقيم أمر الدين على هذا النحو، ولا يستقيم حال الأمة كذلك، ولا تستطيع أن تؤدى رسالتها الكبرى التي ناطها الله بها، وهي أن تكون هادية ورائدة لكل البشرية:

«وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا» (٨٧) .

وكيف يكون حال أمة كلها قاعد، وكلها فقير، وكلها جاهل وكلها مريض؟!

وحين يسعى كل إنسان إلى الرزق بالقدر الذى يكفيه لعيشة الكفاف ، فن أين تجد الدولة «الفائض» الذى تنفقه في سبيل الله ، والذي تنفذ به هذا الأمر الرباني :

«وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم . . ؟ » (٨٨)

⁽۸۷) سورة البقرة [۱۶۳].

⁽٨٨) سورة الأنفال [٦٠].

وحين لا يكون هناك علم أرضى ، ولا تقدم مادى ، فكيف تعد القوة التي ترهب الأعداء؟

وحين ينتشر المرض فلا يُدَاوَى ، جهلاً بالطب من ناحية ، وقعودا عن التداوى من ناحية أخرى بدعوى التسليم بقدر الله والرضا به ، فكيف توجد الأجسام القوية التي تحمل السلاح في وجه الأعداء؟ كلا! إن هذا الأمر الرباني _ وحده _ فضلا عن أوامر ربانية كثيرة أخرى يستلزم منهجا للحياة مختلفا أشد الاختلاف.

يستلزم أن يقبل الناس على العلم الدنيوى فيتمكنوا فيه ، ويتفوقوا فيه على فيه على الأعداء. وأن يسعوا إلى التقدم المادى ويتفوقوا فيه على الأعداء. وأن يكون في أيديهم مال وفير ، ينشئون به القوة اللازمة للتغلب على الأعداء..

وأن يكون عندهم «إنتاج» وفير في كل مجال وفي كل ميدان.

حقا إن الزهد في متاع الحياة الدنيا هو القمة في السلوك الإيماني ، وهو أرفع ما يصل إليه المؤمن من المقامات . .

ولكن الزهد في المتاع لا يعطل الإنتاج!

فالمؤمن الحق ينتج بأقصى طاقته فى المجال الذى يعمل فيه ، ثم يستهلك لنفسه أقل قدر من الطيبات ، والباقى ينفقه فى سبيل الله . وبذلك يتكافل المجتمع ويترابط ، فيحمل القادرون منه غير القادرين ، وتتقارب معيشة الناس فلا يوجد الغنى الطاغى ولا الفقر المدمر.. ثم تجد الدولة الفائض الذى يعينها على أداء رسالة الإسلام. ولن تؤدى رسالتها حتى تكون قوية مهيبة الجانب ، يخشى بأسها الأعداء..

3\$F 3\$F 3\$E

وما نريد أن نظلم الصوفية فنحملها وحدها وزر الضعف والتخلف الذى أغرى الأعداء بالهجوم من كل صوب ، حتى تحقق النذير الذى أنذر به رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ هذه الأمة :

«يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها . قالوا : أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال إنكم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل » (٨٩) .

فقد كان مع الصوفية الفكر الإرجائى ، والاستبداد السياسى ، والمتفلت من التكاليف ، وغيرها من البدع والمعاصى والانحرافات (٩٠٠). كما كان من بين الصوفية من جاهد بسيفه لنشر الدعوة ، ومن قاد الجيوش لقتال الأعداء ، ومن وقف للسلطان الجائر يرده عن ظلم الناس .. وهؤلاء زهاد فى الحقيقة وإن ألحقوا بالصوفية ..

⁽۸۹) سبق ذکره.

⁽٩٠) انظر إن شئت فصل «خط الانحراف» من كتاب «واقعنا المعاصر».

كما أن رجال الصوفية وفرقها هم الذين أبقوا العامة مرتبطين بدين الله ـ رغم البدع والانحرافات ـ حين عزّ العلماء ، ولم يعد للعامة باب يلجون منه إلى الدين إلا باب الصوفية (٩١) .

كما أنهم هم الذين حفظوا شيئا من ترابط الأمة المسلمة حين فرقتها السياسة والحرب ، وجزأتها في دول متناحرة على الغلبة والسلطان . .

ولكن هذا الجهد الذي بذلوه كله لا ينفي عنهم خطأ المنهج الذي أدى إلى فساد المفاهيم:

فصل الدنيًا عن الآخرة ، ووضعها فى موضع التضاد والتقابل ، بحيث يصبح التعامل مع إحداهما بمثابة الامتناع عن التعامل مع الأخرى . .

وحصر العبادة فى الشعائر التعبدية ، والتركيز عليها ، وإهمال المفهوم الشامل للعبادة ، الذى يشمل كل نشاط الإنسان ..

ولا هذا من الإسلام .. ولا هذا من الإسلام!

حين دخل رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ المدينة أمر ببناء المسجد . ثم وجه الصحابة _ رضوان الله عليهم _ إلى السوق . . وقد كانت السوق يومئذ في يد اليهود ، ولهم هناك صولة الاقتصاد قائمةً على

⁽٩١) الحقيقة أن هناك تناسبا عكسيا بين وجود الصوفية ووجود العلماء. فكلماكثر العلماء انحسرت الصوفية .

الربا وأكل أموال الناس بالباطل. فهل أمر الزاهد العظيم ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحابه الزاهدين أن يزهدوا فى أمور الاقتصاد ـ وهى فى حس المتأخرين من أمور الدنيا ـ ليفوزوا بالآخرة ، ويدعوا السيطرة الاقتصادية لليهود ، تزيد من قدرتهم على الإفساد فى الأرض ؟!

إن توجيه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ للصحابة أن يجاهدوا لنزع السيطرة الاقتصادية من اليهود أمر له دلالته ..

فالمسجد ، الذي بدأ ببنائه ، هو الذي تقام فيه الصلاة المعلِنة عن قيام أمة لا إله إلا الله ممكنة في الأرض .. وهو الذي تتربى فيه الأمة على هدى رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ ويقضى فيه بين المسلمين ، وتقرر فيه سياستهم ، وسلمهم وحربهم .. والسوق هي التي تقام فيها الحياة الاقتصادية التي تقوم عليها حياة الأمة المسلمة :

«أموالكم التي جعل الله لكم قياما» (٩٢)

ولابد من هذه وتلك ، ليتكامل كيان الأتمة التي تدعو إلى الخير ، وتأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتحصل على الفلاح :

«ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون (٩٣) .

أما استخلاص جانب من العبادة التي فرضها الله على الإنسان_

⁽۹۲) سورة النساء [٥]. (۹۳) سورة آل عمران [١٠٤].

وهو الشعائر التعبدية ـ والزعم بأنها وحدها هى المؤدية إلى الفوز ف الآخرة ، وإهمال الجانب الآخر من العبادة على زعم أنه جانب أرضى متعلق بالحياة الدنيا ، وأن فى إهماله قربى إلى الله . فقد كان أهم ما تركوه ، وأخطره أثرا فى حياة الأمة ، هو المقتضى الواقعى للا إله إلا الله ! أوقل بعبارة أخرى : المقتضى السياسى والاقتصادى والاجتاعى للا إله إلا الله !

مفهوم المحضارة وعارة الأرض

حين وقعت الأمة في هذه المجموعة من الانحرافات: تفريغ لا إله إلا الله من مقتضاها الحقيق، وتحولها إلى كلمة تقال باللسان، بغير دلالة ولا رصيد واقعى. وحصر مفهوم العبادة في شعائر التعبد. وتحوّل عقيدة القضاء والقدر إلى سلبية وقعود عن الأخذ بالأسباب، وتخل عن دور الإنسان الإيجابي في الأرض. ووضع الدنيا والآخرة موضع التقابل والتخيير، ثم اختيار الآخرة وإهمال الدنيا.

حين وقعت كل هذه الانحرافات فى حياة الأمة لم يكن غريبا إذن أن يختل مفهومها عن الحضارة وأن تهمل عارة الأرض.

لقد كان فهم الأجيال الأولى من المسلمين للحضارة مستمداً من روح الإسلام ، ومتفردا ككل شئ في هذا الدين.

فإذا كانت جاهليات معاصرة لمولد الإسلام وسابقة له ولاحقة قد ركزت على المعنى الروحى للحضارة ، وأهملت الحياة الدنيا ، وأهملت العارة المادية للأرض ، بوصفها أمورا ألصق بالحس ، وأقرب إلى متاع الجسد ، والجسد ملعون ومحتقر ومستقذر . .

وإذا كانت جاهليات أخرى معاصرة لمولد الإسلام وسابقة له ولاحقة قد ركزت على الجانب المادى للحضارة ، وأهملت الآخرة ، وأهملت عالم الروح ، بوصفها أموراً شخصية لاعلاقة لها بالواقع العملى ، بل بوصفها فى كثير من الأحيان معوقات لانطلاق الحضارة (!) وأكبت على عالم الحس وعالم المادة ، تبدع فيها كل عبقريتها ، وتصب فيها كل طاقتها ، بصرف النظر عن القيم والمثل والمبادئ ..

فإن الإسلام _ المنزل من عند الله اللطيف الخبير ، خالق الإنسان والعليم بأحواله وحاجاته ، وما يصلحه وما يصلح له _ هو المنهج الشامل الكامل ، الذي لا يهمل جانبا من جوانب الإنسان ، ولا يلبي جانبا منه على حساب جانب آخر ، والذي يستجيب للفطرة السوية كما خلقها الله :

«إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » (١) .

هذا التكوين الإنسانى المترابط ، الذى لا تنفصل فيه قبضة الطين عن نفخة الروح ، ولا نفخة الروح عن قبضة الطين ، له مفهوم حيوى شامل لعالم الجسد وعالم الروح ، وينبغي أن يكون له واقع حيوى يتسم بذات الشمول والترابط المتمثل في تكوين «الإنسان».

⁽۱) سورة ص [۷۱ ـ ۲۲].

والمنهج الرباني هو الذي يرسم خطوط هذا الواقع الحيوى ويرسم تفصيلاته .

والشمول والترابط والتوازن هي أبرز سمات المنهج الرباني .

شمول لكل جوانب الإنسان والحياة البشرية ، وربط وثيق بينها ، وموازنة بين شتى جوانبها .

وتلك عظمة الإسلام ، وتلك مزيته على المناهج الجاهلية التي تحكم حياة الناس في معزل عن العقيدة الصحيحة ، أى في معزل عن لا إله إلا الله ، والتي يشملها قوله تعالى :

«أفحكم الجاهلية يبغون؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون» (7).

وحكم الله ليس مقصورا على إقامة الحدود، كما أن حكم الجاهلية ليس مقصورا على القوانين التي يتحاكم الناس إليها فى المحاكم .. إنما حكم الله شامل لكل صغيرة وكبيرة في حياة الإنسان ، سواء كان مما يصل إلى القضاء أو لا يصل إليه ، بل سواء كان عملا ظاهرا أو نية مضمرة في الضمير . وكذلك حكم الجاهلية ليس محصورا في تلك القوانين التي تحكم المخالفات والجنح والجنايات ، أو المعاملات المدنية أو المعاملات التجارية .. الخ .. إنما هو كذلك نظم ومؤسسات

⁽٢) سورة المائدة [٥٠].

وأفكار وسلوك ومشاعر ، قائمة كلها بمعزل عن لا إله إلا الله ، وعن الاستمداد من منهج الله .

ومن ثم فإن الحضارة وعارة الأرض ذات صلة وثيقة بلا إله إلا الله ، والمنهج المنزل من عند الله ليحكم الحياة .

张 张 张

إن المفهوم الإسلامي للحضارة هو مفهوم العبادة ..

هو تحقيق غاية الوجود الإنساني التي حددها قوله تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » (٣) .

هذه هي الغاية .. وذلك هو المعيار ..

تحقيق غاية الوجود الإنساني هو الذي تنشأ عنه الحضارة في الواقع البشرى . وهو المعيار الذي تقوّم به صعودا أو هبوطا ، واستقامة أو انحرافا .

وحين تختلف النظرة إلى غاية الوجود الإنساني تختلف النظرة إلى الحضارة ، وتختلف النظرة كذلك إلى التاريخ.

فحين تكون غاية الوجود الإنساني هي الفناء في الكائن الأعظم كما يقول «النرفانا» ، أو الخلاص من ربقة الجسد وإطلاق الروح لتتحد

⁽٣) سورة الذاريات [٥٦].

مع الخالق . تصبح الحضارة هي تحقيق عالم الروح على حساب الجسد ، وعلى حساب الجانب المادي من عمارة الأرض .

وحين تكون غاية الوجود الإنساني هي الاستمتاع بما في الأرض من متاع ، بصرف النظر عن القيم المصاحبة لهذا المتاع من حلال وحرام ، وخير وشر ، وفضيلة ورذيلة ، ورفعة وانتكاس .. تكون الحضارة هي العارة المادية للأرض ، وهي تيسير الحياة الأرضية وتزيينها ، والانكباب على متعها ولذائذها ، وتكون في الوقت ذاته هي عاولة التغلب على الآخرين للاستثثار بأكبر قدر من المتاع ، ومحاولة إخضاعهم بالقوة والقهر ، سواء بالقوة المادية أو القوة العسكرية أو القوة السياسية أو القوة الاقتصادية أو القوة العلمية .. أو كلها جمعا ..

وحين تكون الغاية هي عبادة الله على المعنى الواسع الشامل للعبادة الذي بيناه من قبل (١) - يكون مفهوم الحضارة مختلفا عن هذا المفهوم وذاك، وكذلك يكون تفسير التاريخ، لأن المعيار الذي يقوم على أساسه التفسير، هو مدى تحقيق الإنسان لغاية وجوده، ومدى تفوقه أو تخلفه في تحقيق هذا الوجود.

ale ale ale

⁽٤) راجع فصل «مفهوم العبادة».

سبق أن بينا فى فصل مفهوم العبادة أن الله ـ من رحمته ـ جعل النشاط الطبيعى للإنسان فى جميع مجالاته: الجسدية والعقلية والروحية عبادة مادام يتوجه به الإنسان إلى الله، ويستمد فيه من منهج الله. بل إنه _ سبحانه _ قد جعل ذلك النشاط هو هو العبادة المطلوبة من الإنسان، والتى انحصرت غاية وجوده فى أدائها.

وهذا النشاط ذاته هو الذي ينشئ الحضارة .. وما الحضارة إلا منجزات ذلك النشاط البشري في مختلف المجالات .

وحين ندقق في الأمر فليس كل نشاط للجسد أو العقل أو الروح يشكّل حضارة ، أو يكون جزءا من الحضارة ـ وهذا أمر واضح بالبداهة ـ إنما هو النشاط الهادف ، الذي يهدف إلى تحقيق غاية الوجود الإنساني .

فالمشى فى الأرض أو الحفر فيها لا يشكل فى ذاته نشاطا حضاريا . ولكن المشى الهادف ، الذى يهدف مثلا إلى كشف مجاهل الأرض لسكناها وعارتها ، والحفر الهادف لإخراج كنوز الأرض وتصنيعها من أجل تلك العارة ، هذا هو الذى يمكن أن يشكل حضارة ، أو يكون جزءا من حضارة .

وكذلك نشاط العقل ونشاط الروح ، يشترط فيهما لكى يشكلا حضارة أن يكونا هادفين ، وأن يكون هدفها فى الوقت ذاته متجها إلى تحقيق غاية الوجود الإنسانى ، وليس معاكسا لهذا الاتجاه .

ومن هنا نستطيع أن نقول _ واثقين _ أن ما تنتجه الجاهليات من منجزات مادية أو عقلية (أو روحية أحيانا) ليس حضارة حقيقية ، وإن بدا رائعا وضخا أحيانا ، وإن بهر أعيننا لأول وهلة ، لأنه يفقد هذا الشرط الأساسي الذي يجعل من النشاط البشري والمنجزات البشرية حضارة ، وهو أن يكون هدفها متجها إلى تحقيق غاية الوجود الإنساني ، وليس معاكسا لهذا الاتجاه.

إن تحقيق الجانب الروحى للإنسان وحده ، على حساب الجانب الحسى والمادى ، وفى عزلة عنه ، لا يحقق غاية الوجود الإنسانى كاملة كما بينها المنهج الربانى . وإن تحقيق الجانب الحسى والمادى من الإنسان والحياة البشرية على حساب الجانب الروحى وفى عزلة عنه ، لا يحقق كذلك غاية الوجود الإنسانى ، بل يتجه به إلى الدمار والبوار .. ومن ثم فكلاهما لا يشكل حضارة بالمفهوم الصحيح للحضارة . أو إنه يشكل «حضارة جاهلية» إن صح هذا التعبير.

كما أن اجتماع الجانبين معا ولكن على غير قاعدة صحيحة _ كما حدث فى الجاهلية الفرعونية التى شملت عالم المادة وعالم الروح ، ولكن على قاعدة تأليه الفرعون والعبودية له من دون الله _ لا يشكل كذلك حضارة بالمفهوم الصحيح . أو إنه _ كما أسلفنا _ يشكل حضارة جاهلية إذا قبلنا هذا الاصطلاح .

إنما الحضارة الصحيحة هي التحقيق السوى لغاية الوجود الإنساني

فى الأرض ، التى حددها قوله تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » وفسرها قوله تعالى « قل : إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لأشريك له » (٦) . وهى فى المفهوم الإسلامى شىء شامل لكل النشاط الهادف للإنسان .

إن الصلاة والنسك جزء من المفهوم الإسلامي للحضارة ، بمدلولها الحقيقي ، ومقتضاهما الحقيقي (٧) .

وإن إقامة شريعة الله في الأرض ، والحكم بها أنزل الله ، وهو المقتضى المباشر للا إله إلا الله ، جزء من المفهوم الإسلامي للحضارة .

وإن إقامة العدل الربانى فى الأرض كما أراده الله أن يكون ، وأخرج هذه الأمة لتقيمه ، وقال لها سبحانه فى توجيهاته لها وإعداده إياها لحمل هذه الأمانة الكبرى : «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بها تعملون خبيرا» (٨) وقال : «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى» (٩) . إن إقامة العدل الربانى على تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى» (١) . إن إقامة العدل الربانى على

⁽٨) سورة النساء [١٣٥].

⁽٥) سورة الذاريات [٥٦].

⁽٩) سورة المائدة [٨].

⁽٣) سورة الأنعام [١٦٢ – ١٦٣].

⁽٧) راجع فصل «مفهوم العبادة».

هذه الصورة جزء من المفهوم الإسلامي للحضارة.

وإن إقامة الحياة كلها بكل ألوان النشاط فيها على قاعدة أخلاقية مدارها تقوى الله وخشيته . . فتكون السياسة ذات أخلاق قائمة على حكم ولى الأمر بشريعة الله ، والسمع والطاعة من الأمة لولى الأمر فيما يأمر به موافقا لشريعة الله ، والنصح لله ورسوله ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والتعاون على البر والتقوى، وعدم التعاون على الإثم والعدوان ، وإقامة الأمر على الشورى التي أمر بها الله .. ويكون الاقتصاد له أخلاق ، قائمة على الالتزام بما أحله الله ، وتحريم ما حرم الله من ربا وأحتكار وغش وسلب ونهب ، وسرقة وغصب ، وأكل مال الأجير ، وأكل أموال الناس.بالباطل ، وقائمة على تطهير المال بأداء الزكاة ، والإنفاق في سبيل الله ، وعدم الإنفاق في ترف أو سرف أو معصية أو مخيلة .. وتكون علاقات المجتمع ذات أخلاق قائمة على التواد والتحاب والتكافل، والتعاون على البر والتقوى ، وحرمة الدم والعرض والمال ، وكظم الغيظ والعفو عن الناس ، والكف عن الغمز واللمز والغيبة والنميمة والتجسس والاطلاع على العورات .. وتكون علاقات الأسرة ذات أخلاق .. وعلاقات الجنسين ذات أخلاق .. إن إقامة الحياة كلها على هذه القاعدة الأخلاقية جزء من المفهوم الإسلامي للحضارة.

وإن الوفاء بالمواثيق ، يستوى فى ذلك العقود الفردية أو المعاهدات والمواثيق الدولية ، جزء من المفهوم الإسلامي للحضارة .

وإن طلب العلم ، سواء العلم بدين الله وأحكامه ، أو العلم بسنن الله فى الكون وبخواص المادة ، الذى يعين على استخلاص ما سخر الله للإنسان من طاقات السماوات والأرض ، واستخدامها فى عارة الأرض ، أو العلم بسنن الله فى الحياة البشرية ، التى يقوم على أساسها مجتمع صالح ، أو العلم بالتاريخ البشرى وما فيه من فترات الهدى والضلال ، والنتائج المترتبة على كل منها فى واقع الحياة البشرية .. إن هذا العلم بمختلف فروعه واتجاهاته ، جزء من المفهوم الإسلامى للحضارة .

وإن إقامة فنون نظيفة ، تلتفت إلى الجال فى الكون وفى الحياة البشرية وتعبر عنه فى أداء جميل .. فنون لا تزين الفاحشة لأن الفاحشة ليست جالا ولكنها هبوط . ولا تزين لحظة الضعف لأنها ليست جالا إنما هى لحظة غفلة عن إدراك غاية الوجود الإنسانى ، أو لحظة تقصير فى تحقيق ذلك الوجود . ولا تزين الانحراف والشذوذ لأنه ليس جالا ، وإنما هو نشاز نافر عن الجال . ولا تزين عبادة الشيطان وعبادة الهوى والشهوات ، لأنها ليست جالا ، وإنما هى حطة للإنسان الذى كرمه الله وفضله ، وأراد له أن يتحرر من كل عبودية زائفة تزرى بكيانه وتستذله .. إن إقامة مثل هذه الفنون جزء من المفهوم الإسلامى للحضارة (١٠) .

⁽١٠) راجع إن شت كتاب «منهج الفن الإسلامي».

وهذا كله ، وماكان فى مثل اتجاهه ، هو الجانب المعنوى من الحضارة فى المفهوم الإسلامي .

ثم إن هناك جانبا ماديا للحضارة الإنسانية يشمله المفهوم الإسلامي، وهو جانب ضخم كذلك.

فلئن كان الإنسان مخلوقا لعبادة الله ، فإن عارة الأرض هي جانب من مفهوم العبادة الواسع الشامل ، الذي يحقق خلافة الإنسان في الأرض.

«وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة $^{(11)}$. $^{(18)}$ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها $^{(17)}$.

وإذا اعتبرنا إقامة لا إله إلا الله في الأرض ، أي إزالة الشرك ، وإقامة التوحيد ، وإقامة العدل الرباني والأخلاق الإيمانية جانبا من «العارة» ، لأن الأرض لا تعمر حقا إلا تحت المظلة الإيمانية التي تقيها من الانحراف والفساد والشر.. فإن الجانب الآخر هو العارة المادية ، باستخلاص طاقات السماوات والأرض وتسخيرها لخير الإنسان.

وهذا الجانب من العارة يحتاج إلى كدح ذهني وعضلي لتحقيقه . يحتاج إلى معرفة خواص المادة والسنن الربانية التي يُجْرِي الله بها

⁽١١) سورة البقرة [٣٠]. (١٢) سورة هود [٦١].

هذا الكون (والتي يسمونها في الجاهلية المعاصرة «قوانين الطبيعية » (١٣)) ثم استخدام هذه المعرفة في المجال التطبيق في الفيزياء والكيمياء والطب والهندسة وسائر العلوم . .

وحين تعتبر الجاهلية المعاصرة هذا الجانب هو الحضارة ، أو هو أهم ما فى الحضارة ، وأبرز منتجات الإنسان ، فإن الإسلام يشترط شرطا واحدا لإدخال هذه الإنجازات فى مدلول الحضارة ، هو أن تكون كلها قائمة وفق المنهج الربانى ، غير حائدة عن مقتضياته ..

إن استخلاص الطاقات الكونية ـ على ضرورته ـ ليس هو أهم مايقوم به الإنسان على الأرض ، ولو وصل به إلى القمر أو إلى المريخ . إنما الأهم من ذلك هو الغاية الكامنة وراءه ، والأسلوب الذي يتم به ، والمنهج الذي يحكمه .

وحين نقول: «الأهم» يفهم بعض الناس أننا نقول «البديل»! يعنى أننا نضع القيم المعنوية بديلا من القيم المادية! ولا يقول بهذا عاقل! فالقيم المعنوية وحدها لا تملأ المعدات الخاوية إن لم يكن هناك خبز، ولا تسيّر السيارات والقطارات والطائرات إن لم يكن هناك وقود، ولا تصنع المدفع والدبابة والصاروخ إن لم تكن هناك مصانع وآلات.

تلك بديهية لا يحتاج الإنسان لذكرها .. ولكن هناك بديهية مقابلة

⁽١٣) ذلك حين كفرت الجاهلية المعاصرة بالله ، وعبدت الطبيعة بدلا منه!

له لا تقل عنها بداهة ، ولا تقل عنها أهمية ، وإن جادلت فيها الجاهليات كثيرا ، والجاهلية المعاصرة بصفة خاصة ، هي أن الخبز والوقود والمصانع والآلات والسيارات والقطارات والصواريخ والدبابات والمدافع وحدها لا تصنع حضارة ، ولا إنسانا متحضرا ، ولا عارة حقيقية للأرض ، لأنها وحدها بدون «القيم» تؤدى إلى الخراب!

وهذا الذى لا تصدقه الجاهلية المعاصرة أو لا تريد أن تصدقه رغم كل دلالة التاريخ ، بل رغم النذر التي تحيط بها هي ذاتها وتكتنفها من كل جانب ، وتشيع في صفوفها الخبال !

إن الإنسان _ بكل الإنتاج المادى الذى ينتجه _ يمكن أن يهبط أسفل سافلين إذا تخلّى عن القيم التي تجعل الإنسان إنسانا وترفعه عن مستوى الحيوان ..

والجاهلية المعاصرة هي عنوان ذلك ومصداقه ..

إن بين يديها أكبر قدر من «العلم» شهدته البشرية ، وأكبر قدر من الإنتاج المادى فى التاريخ . كما أن بين يديها من المخترعات والتيسيرات المادية مالم يتجمع قط لأى جيل من أجيال البشرية . .

ضغطة زر واحدة صارت تصنع أشياء كثيرة ورائعة.. تدير آلة ضخمة . أو تنقل إليك أخبار العالم فى الإذاعة المسموعة أو المرثية .. أو تنطلق بك فى الفضاء إلى القمر أو المريخ .

نعم .. ولكن أين «الإنسان» ؟!

ابحث عنه شاردا فى المراقص والحانات ، أو غارقا فى شهوة جنس هابطة ، أو مجرما يعتدى على الآمنين ، أو نزيلا فى أحد المصحات العقلية ، أو مترددا على إحدى العيادات النفسية ، أو مصابا بالحيرة والقلق والضياع تفسد أعصابه وتدمر سعادته . .

وليست القضية هي وجود «حالات» من ذلك كله. فإنه لا يوجد مجتمع في الأرض أياً كانت القيم التي يعيش عليها يخلو من حالات من تلك الأنواع. ولكن القضية هي النسب المخيفة التي ترتفع إليها تلك الحالات حتى تصبح ظواهر اجتماعية ، ثم تصبح هي السمة البارزة في جاهلية القرن العشرين!

非 雅 雅

ذلك إذن هو المفهوم الإسلامي للحضارة .. حضارة «الإنسان» الخليفة في الأرض ، المخلوق من قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله . إنه ليس ذلك الحيوان الدارويني الذي يلفظ _ بحكم تكوينه _ كل القيم والأخلاق والمبادئ ، ولا ذلك الإله الزائف الذي يتبع هواه ، ويتجبر به في الأرض مستكبرا عن عبادة الله .

وعلى أساس هذا المفهوم قامت حضارة إسلامية متفردة فى التاريخ.

قامت _ عند مولدها _ بأعظم قدر من القيم في تاريخ البشرية ،

وبأقل قدر من المظاهر المادية قامت عليه حضارة فى التاريخ: مجموعة من الخيام، وبيوت الطين، وبساتين النخل، والخيل والإبل والأغنام، والسهام والسيوف!

وكانت ـ بصورتها تلك ـ إحدى معجزات التاريخ!

فهذا القدر من العارة المادية للأرض لا يتصور إنسان أنه ينشئ حضارة ، فضلا عن تلك الحضارة السامقة الفريدة , ولكن الفيض الهائل من القيم ، الذي لا مثيل له في التاريخ ، مطبقا في صورة واقع ، لا في صورة شعارات أو مُثُل معلقة في الفضاء ، هو الذي عوض هذا النقص في العارة المادية وغطاه ، وأخرج «خير أمة أخرجت للناس» .

ومع أن هذه لم تكن الصورة النهائية لتلك الحضارة ، إنماكانت هي «المولد» فحسب ، إلا أن لنا وقفة عند هذه الصورة الفريدة التي شهدتها البشرية . وقفة تجيب على هذا التساؤل : أي جانبي الحضارة يمكن أن يغطى النقص في الجانب الآخر ويعوضه (حين يوجد نقص لسبب من الأسباب) : أهو الجانب المعنوى _ جانب القيم _ أم الجانب الحسى المادى ؟!

إن التجربة الإسلامية الرائعة _ فى مقابل الجاهلية المعاصرة _ تجيب إجابة حاسمة على هذا التساؤل . فقد استطاع الفيض الهائل من القيم أن يعوض التخلف المادى ، ويخرج خير جيل شهدته البشرية ، بشهادة

الله وشهادة رسوله _ صلى الله عليه وسلم _ بينًا لم يستطع الفيض الهائل من الإنتاج المادى والعلمى والتكنولوجي أن يعوض التخلف الروحي والمعنوى والأخلاق ، فأخرج شر جاهلية في التاريخ.

ولكن صورة «المولد» لم تكن هي الصورة النهائية ، وما كان ينبغي لها أن تكون .

لقد كان كامنا في هذا المولد كل عناصر النماء والقوة التي برزت فها بعد.

فهذا المولد الفذ هو الذي دفع هذه الأمة تبحث عن «العلم» في كل مصادره ، وتتعلم اللغة اليونانية واللاتينية ، وكل لغة للعلم في ذلك العصر ، لتترجم عنها ، ثم تنشئ حركتها العلمية الذاتية فيها بعد ، التي كان أروع ما ابتكرته المنهج التجريبي في البحث العلمي ، الذي قامت عليه _ فيها بعد _ حركة أوربا العلمية المعاصرة ، بها تعلمته في مدارس المسلمين .

وهو الذى دفع هذه الأمة إلى التعمير المادى والتنظيمى فى الأرض ، بما تشهد به المدن الإسلامية وما حفلت به من صناعة وتجارة وحركة موارة . وما تشهد به نظم الإدارة والقضاء والحسبة ونظم التعليم ونظام الوقف والتنظيمات الحربية وديوان المظالم وديوان الإنشاء .. الخ

وهو الذي دفع هذه الأمة أن تكشف مجاهل الأرض، وترسم

الخرائط وتحدد المواقع ، فى حركة من أكبر حركات الكشف الجغرافى فى التاريخ ، والتى على أساسها قامت حركات الكشف الأوربى فيما بعد ، بما فيها حركات فاسكوداجاما ، وكولومبوس ، وماجلان .

وهو الذي أنشأ التراث الفكرى الهائل الذي تعجب له الأجيال المعاصرة: كيف تم بهذه الأصالة وهذه الغزارة وهذا. العمق.

وهو الذى أنشأ فنونا فى الأدب وفى العارة وغيرها من ألوان الفنون ..

ولكن أهم ما تميزت به تلك الحضارة أنها قامت بكل ما قامت به من عمارة الأرض وهي تستظل بظل العقيدة الصحيحة ، بل تنطلق من مطلقاتها ، فتعمر ما تعمر في الأرض وهي تؤمن بالله واليوم الآخر ، وتحقق مقتضيات الإيمان بالله واليوم الآخر من قيم وأخلاق ومبادئ ، دون تناقض في حسها بين هذا الأمر وذاك .

* * *

ولئن كانت هذه الحضارة قد أصيبت بالترف بعد ذلك فقد كان هذا بدء الاختلال في تاريخ هذه الأمة وبدء الانحسار..

وتلك مشكلة من مشاكل الكيان البشرى والحياة البشرية ليس هنا مجال الحديث عنها ، وإن كنا نلم بها إلمامة سريعة فى مجال الحديث عن «مفهوم» الحضارة وعارة الأرض...

إن الأمم تبدأ نشأتها متجمعة العزيمة مشحوذة الهمة متوفرة الجهد، لأنها تواجه تحديات جمة ومن شأن التحديات أن تشحذ الهمة وتستنفر الجهد وتجمع العزيمة وتمضى بضعة أجيال حتى يتم «الإنجاز» بالصورة التي تحقق الوجود وتؤمنه وتمكن له وتتغلب على التحديات وعندئذ يحدث نوع من الاطمئنان إلى ما تم إنجازه بالفعل فيحدث معه نوع من التراخي وفتور الهمة والانصراف إلى الدعة والترف وخاصة مع كثرة الموارد المالية التي تصاحب النجاح المادي في أغلب الأحيان ..

وحين يبدأ الترف يبدأ الانهيار ..

وتجىء الأخطار والأمة لاهية فى ترفها ، مشغولة بمتاع الأرض القريب ، غير مقدّرة للخطر الذى يقترب منها ، مخدوعة بقوتها ، أو مستنيمة لهواتف الراحة والسلامة والإخلاد إلى الأرض ، مبعدة عنها صوت النذير!

وتمضى السنة الربانية بتدمير المترفين:

«وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ، ففسقوا فيها ، فحق عليها القول ، فدمرناها تدميرا » (١٤) .

والسنن الربانية لا تحابى أحدا من الخلق ، مها زعموا لأنفسهم من مسوغات تسوغ المحاباة !

⁽١٤) سورة الإسراء [١٦].

«وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه. قل: فلم يعذبكم بذنوبكم؟ بل أنتم بشر ممن خلق..»(١٥)

ولقد جرت السنة الربانية على الأمة الإسلامية حين جنحت إلى الترف وأخلدت إلى الأرض ، لأن سنن الله لا تتبدل ولا تتحول :

«.. فلن تحد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا » (١٦) .

وكان الترف القتّال من جانب ، مصحوبا _ أو متبوعا _ برد فعل خطر على الجانب الآخر ، هو الانزواء والانصراف عن العارة المادية للأرض ، وعن اتخاذ أسباب القوة المادية ، بحجة أن الدنيا ملعونة لأنها تصرف الناس عن الآخرة .

وبذلك كانت الحضارة تنهار من جانبيها فى وقت واحد: الجانب الروحى والمعنوى ـ جانب القيم والأخلاق والمبادئ ـ يفسده الترف المنحل ، والجانب المادى والحسى تفسده الصوفية المنصرفة عن تعمير الأرض...

ولا الترف مقبول من الأمة المسلمة ، ولا الطريق الصحيح لتقويمه هو الانزواء والانصراف عن عارة الأرض ، فقد كان كلاهما من أسباب الضعف الذي أغرى أعداء الأمة الإسلامية ، فجاءوا من الشرق والغرب يجاولون القضاء على دين الله.

⁽۱۵) سورة المائدة ۱۸۱].

لقد حدثت موجة من الانحسار الشامل في كل ميدان.

ميدان الفكر والعلم. ميدان الأدب والفن. ميدان السياسة والاقتصاد والحرب. ميدان الإنتاج المادى الصناعى والزراعى. ميدان السلوك الخلق.. وكذلك _ وقبل كل شئ _ فى مجال العقيدة الصحيحة. فى مفهوم العبادة ومفهوم لا إله إلا الله (١٧).

واستمر هذا الواقع عدة قرون ، والعالم الإسلامي ينحدر كل يوم ، وأعداؤه يتقوون على حسابه ، ويتحولون من الدفاع إلى الهجوم ، ويقتطعون كل يوم قطعة من العالم الإسلامي ، يستذلونها ويستعبدونها ، ويجاولون القضاء على الإسلام فيها . .

ثم استيقط العالم الإسلامي على الصدمة ، حين وجدكل شئ في داخله ينهار ويقع في قبضة الأعداء.

لقد كان الانهيار نتيجة طبيعية لكل ما حدث من انحراف خلال القرون .

الخواء الذى أصاب مفهوم لا إله إلا الله . الخواء الذى أصاب مفهوم العبادة . السلبية المتواكلة المريضة . الانصراف عن وسائل القوة التى أمر الله بإعدادها لأعداء الله .

ولكن الصدمة العنيفة _ الموازية في شدتها لشدة الخواء _ أحدثت

⁽١٧) راجع إن شئت فصل «خط الانحراف، من كتاب «واقعنا المعاصر».

هزيمة داخلية عنيفة لم يفق منها «المسلمون المعاصرون» بعد ، إلا الذين رجعوا إلى حقيقة هذا الدين ، ومارسوا تلك الحقيقة في عالم الواقع . . تلك الهزيمة الروحية هي التي مهدت في نفوسهم لتقبل الغزو الفكرى بلا مناقشة ولا تدبر ولا تفكير . .

ومن بين المفاهيم الضالة التي أدخلها الغزو الفكرى في قلوبهم ورءوسهم مفهوم الحضارة وعمارة الأرض.

لقد توهموا بتأثير الغزو الفكرى _ أنهم تأخروا لأنهم كانوا مسلمين!

وما أبعد هذا الوهم عن الحقيقة! فيوم تأخروا ماكان أبعدهم يومئذ عن الإسلام! وإن بعدهم عن حقيقة الإسلام لهو الذي أدى بهم إلى ذلك التخلف المعيب (١٨).

ولكن هذا الوهم جعلهم يبحثون عن الحلول لا فى إسلامهم ــ الذى انسلخوا منه ــ وإنما فى الحضارة الغريبة . . أى فى الجاهلية المعاصرة !

وقالت لهم الجاهلية المعاصرة: إن الحضارة هي التقدم المادي والعلمي والتكنولوجي، والتيسيرات المادية التي تأخذ عن عاتق الإنسان ماكان يحمله من جهد فتحمّله للآلة، وماكان يحمله من ألم فتغيبه بالعقاقير!

⁽١٨) وراجع إن شئت فصل «آثار الانحراف» من نفس الكتاب.

وقالت لهم تلك الجاهلية _ بلسان حالها وإن أنكرت في مقالها _ إن القيم والأخلاق والمبادئ لغو ساقط من الحساب !

وقام «المسلمون المعاصرون» يتحضرون! قاموا ينفضون عن أنفسهم غبار التخلف، ويحاولون أن يعوضوا في سنوات ما تخلفوه خلال عدة قرون!

«يتحضرون» على النهج الغربي ، منسلخين أو نافرين من منهج الله .

قاموا يأخذون ببعض أسباب القوة المادية على فتور ظاهر وتقاعس بينا يغرقون فى الترف الغربي إلى أذقانهم ، فى صورة بيوت حديثة ، وفراش وثير ، وسيارات وطائرات ، وأفران وثلاجات ، وملابس مزوقة . . وخمر وميسر ، وفوضى جنسية تسمى «الانطلاق»!

ودع عنك المفاسد الخلقية التي يقر الجميع بأنها مفاسد ، وإن كانوا في دخيلة أنفسهم مسرورين بها ، راغبين في المزيد منها ، متطلعين إلى اليوم الذي تصبح فيه هي «العملة السارية» ، فيمارسوا ــ باسم التحضر والتقدم ــ كل ماتصبو إليه نفوسهم من أرجاس . .

وخذ الجانب الحقيق من التقدم المادى الذى يصبون إليه: عملية التصنيع، وزيادة الإنتاج، ورفع مستوى المعيشة، وزيادة الاستهلاك في الكهرباء (!)

ما قيمة ذلك كله بغير قيم ولا مبادئ ولا أخلاق ؟ ! ما قيمته بغير «الإسلام» الذي انسلخوا منه ونبذوه ؟ !

هل يحسبون أنهم سيخرجون بذلك من ذلتهم وهوانهم على الناس؟!

فليسمعوا مقالة المؤرخ المعاصر «توينبي» عن تركيا أتاتورك:

«ولم يكتف الأتراك بتغيير دستورهم (وهوشئ سهل نسبيا في بجال الإصلاح الدستورى) ، بل قامت الجمهورية التركية الوليدة بخلع المدافع عن الدين الإسلامي الخليفة وألغت منصبه أى الخلافة وجردت رجال الدين المسلمين وحلت منظاتهم ، وأزالت الحجاب عن رأس المرأة ، واستنكرت كل ما يرمز إليه الحجاب ، وأجبرت الرجال على ارتداء القبعات التي تمنع لابسيها من أداء شعائر الصلاة الإسلامية التقليدية ، بخاصة في السجود ، وكنست (١٩) الشريعة الإسلامية بأكملها ، وتبنت القانون المدنى السويسرى بعد أن ترجمته إلى التركية ، وطبقت قانون الجرائم الإيطالي ، وذلك بفرض هذين القانونين بعد التصويت عليها في المجلس الوطني ، وغيرت الأحرف العربية بأحرف لاتينية ، وهذا أمر لم يتم إلا بطرح القسم الأكبر من التراث الأدبى العثاني القديم .

⁽١٩) علق المترجم (الدكتور نبيل صبحى) على هذه الكلمة بقوله في الهامش ـــ: هذا هذا هو تعبير المؤلف . . الأديب !!».

«.. ويجب على المراقب الغربى أن يراعى حدود اللياقة فلا يغالط ولا يسخر ، لأن ما يحاول «المقلدون» الأتراك القيام به هو تغيير وطنهم ومواطنيهم مما هم فيه ، إلى حالة كنا نحن منذ التقاء الغرب بالإسلام من ننتقدهم لعدم وجودها طبيعة فيهم . وها هم حاولوا مولو متأخرين مي إقامة صورة طبق الأصل لدولة غربية وشعب غربي .

«وعندما ندرك تماما هدفهم الذى رموا إليه ، لا نستطيع إلا التساؤل بحيرة : هل يبرر هذا الهدف حقا الجهد الذى بذلوه فى صراعهم لبلوغه ؟؟؟

«من المؤكد أننا لم نكن نحب التركى التقليدى المسلم (المتحمس) الذى كان يثير حنقنا عندما ينظر إلينا من علي على أننا فريسيون زناديق! ويحمد أى التركى - يحمد الله على أنه لم يجعله مثلنا. وبما أن التركى التقليدى القديم كان يعتبر نفسه من طينة خاصة ، حاولنا أن نحط من كبريائه ، بتصوير هذه «الطينة الخاصة» شيئا ممقوتا ، وسميناه «التركى النكرة». إلى أن استطعنا أخيرا أن نحطم سلاحه النفسى ، وحرضناه على القيام بهذه الثورة (المقلدة) التى استهلكها الآن أمام أعيننا.

«والآن وبعد أن تغير التركي بتحريضنا ورقابتنا ، وبعد أن أصبح يفتش عن كل وسيلة لجعل نفسه مماثلا لنا وللشعوب الغربية من

حوله .. الآن نحس نحن بالضيق والحرج ، بل ونميل إلى الشعور بالسخط والحنق ... وبإمكان التركى أن يجيبنا أنه مها فعل فهو مخطئ فى نظرنا ، وهو أى التركى ــ قادر على ترديد مقطع من كتابنا المقدس على مسامعنا ، يقول :

«لقد نفخنا معكم في القرب فلم ترقصوا ، وحزنا معكم فلم ترقصوا ، وحزنا معكم فلم تبكوا »!

"على كل حال قد يكون انتقادنا للأتراك فظا وغير لائق.. ولكن ليس فيه أى تحامل، ولا هو خارج عن الموضوع. إذ ما الذى سيكسبه التراث الحضارى فى حالة عدم ذهاب جهود الأتراك سدى؟ أى فى حالة نجاحهم _ فرضا _ النجاح المرجو؟؟ وهذه النقطة تكشف حركة " المقلدين " عن نقطتى ضعفها الأصيلتين فيها:

«أولاهما: أن الحركة المقلدة متبعة وليست مخترعة مبتدعة ، لذا في حالة نجاحها حدلا لن تزيد إلا في كمية المصنوعات التي تنتجها الآلة في المجتمعات المقلدة . بدل أن تطلق شيئا من الطاقة المبدعة في النفس البشرية .

«ثانيهها: أنه فى حالة النجاح الباهت ـ المفترض ـ هذا ، وهو أقصى ما يمكن «للمقلدين» الوصول إليه ، سيكون هناك خلاص ـ عرد خلاص ـ لأقلية ضئيلة فى أى مجتمع تبنى طريق «التقليد» . .

ومآل الغالبية: هو تضخيم غدد بروليتاريا الحضارة المقلّدة » (٢٠) (يقصد بذلك المستعبدين للحضارة الغربية)!

إنها الزراية الصريحة ، والشهاتة الصليبية الواضحة . الشهاتة بالذين فقدوا ذاتيتهم ، وعجزوا فى الوقت ذاته عن تقديم شئ أصيل للبشرية .

والمسلمون الحقيقيون عندهم الكثير الكثير يعطونه للبشرية الضالة في جاهلية القرن العشرين . .

فليأخذوا العارة المادية للأرض من أى مكان يريدون. ولكن فليقيموها على المنهج الربانى ، لينشئوا الحضارة الحقيقية الأصيلة التى تستحق هذا الاسم.

فلیأخذوا العلم والتقدم المادی والتکنولوجی ، ولکن فلیحددوا لأی شئ یستخدمون هذا کله ..

فى العبودية الذليلة للشهوات ؟ فى الاستغراق فى الحياة الدنيا إلى حد نسيان الآخرة؟ فى عبادة الشيطان بدلا من عبادة الله ؟ عندئذ لا هم سيخلصون أنفسهم من الهوان والذل . ولا هم يملكون

⁽۲۰) من كتاب مترجم بعنوان «الإسلام .. والغرب .. والمستقبل » هو ترجمة محاضرتين ألقاهما توينى فى عامى ۱۹۵۷ ، ۱۹۵۲ ترجمة الدكتور نبيل صبحى ، دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط ۱۳۸۹ هـــ ۱۹۶۹ م ص ۵۰ ـ ۳۵ (مقتطفات) .

أن يخلصوا البشرية من الضياع والتيه ..

لكن يستخدمونه فى إقامة المنهج الربانى ؟ . . فى إعادة شريعة الله لتحكم الأرض ؟ . . فى إقامة العدل الربانى كما يريده الله ؟ فى إقامة الحياة على قاعدة أخلاقية فى السياسة والاقتصاد وعلاقات المجتمع وعلاقات الأسرة وعلاقات الجنسين والفكر والأدب والفن . . ؟

بعبارة أخرى: يحققون غاية الوجود الإنسانى؟ يحققون لا إله إلا الله في عالم الواقع؟ يحققون المفهوم الصحيح للعبادة؟

عندئذ سيخلصون أنفسهم مما حل بهم ، ويمدون يد الخلاص إلى البشرية الضالة الضائعة التي تبحث عن طريق الخلاص.

وليس ذلك على الله بعزيز :

«وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدونني لا يشركون بى شيئا » (٢١) .

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » (٢٢)

⁽۲۱) سورة النور [00]. (۲۲) سورة البقرة [۱٤٣].

«الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور» (٢٣) .

⁽٢٣) سورة الحج [٤١].

أضواء على المستقبل

عرضنا فيما مضى من الكتاب بعض المفاهيم الرئيسية للإسلام ، وبينًا كيف كانت في حس الجيل الأول الذي تلقى الدين تلقيا مباشرا من رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ وتربى على عينه ، والأجيال التالية التي كانت على مقربة من منابع النور .. وكيف تحوّلت في حس الأجيال المتأخرة تحولا خطيرا عن صورتها الصحيحة .. وكيف أثر ذلك التحول في حياة المسلمين ، فهبط بهم من الذروة التي كانوا عليها إلى الحضيض الذي يعيشونه اليوم ، غثاء كغثاء السيل .

ويأتى السؤال طبيعيا بعد هذا العرض.. وماذا بعد؟!

ماذا بعد أن وصلت الأمور إلى هذه الصورة ، وبعدت الأمة كل هذا البعد عن حقيقة الإسلام؟!

فأما الإجابة على هذا السؤال فقد تكفل بها قدر الله الذي أخرج «الصحوة الإسلامية» إلى الوجود:

«والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (١)

⁽١) سورة يوسف [٢٢].

والصحوة الإسلامية هي قدر الله الغالب ، الذي قدره الله ليخرج به هذه الأمة من حالة الضياع التي تكتنفها ، وتجعلها غثاء كغثاء السيل ، إلى الاستقامة على الطريق ، ومد الجذور مرة أخرى ، والقيام بدور جديد في حياتها ، تنقذ به نفسها مما وقعت فيه من الهوان والذل ، والشتات والتيه ، وتطلق في الوقت ذاته بصيصا من النور للبشرية الحائرة ، لعلها تهتدى إلى الطريق (٢) .

ولكن الطريق أمام الصحوة ذاتها مملوء بالعقبات. مملوء بالأشواك. مملوء بالعثرات. مملوء بالوحوش الضارية تتلقف السائرين فيه لتفتك بهم أولا بأول ، لأنها تعلم جيدا أنها إن لم تفتك بهم اليوم فغدا يسدون عليها الطريق!

ولكن المبشرات ـ كما أشرت فى كتاب «واقعنا المعاصر» أكبر من المعوقات . وقدر الله ماض إلى غايته لا يقف فى طريقه شئ ! «ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا ، إنهم لا يعجزون» (٣) .

ولكن الصحوة فى حاجة لأن تتعرف على عثرات الطريق لكيلا تتعثر ، وعلى عقباته لكى تعد لها العدة اللازمة ، كما لابد لها أن تعرف طبيعة الوحوش الضارية ، لتعرف طبيعة المعركة معهم ، وتعرف

⁽٢) راجع إن شئت فصل «الصحوة الإسلامية» وفصل «نظرة إلى المستقبل» من كتاب «واقعنا المعاصر».

⁽٣) سورة الأنفال [٩٥].

مجالاتها وميادينها ، ولكيلا تتوهم فى الوقت ذاته أن بعضها يمكن أن يكون أرأف بالمسلمين من بعض ، أو أن بعضها يمكن أن يهادن السائرين فى الطريق !

وعليها أن تعرف قبل كل شئ عدة النصر في المعركة الضارية التي تقوم بينها وبين أعداء الله ، والتي عليها أن تخوضها لا محالة رضيت أو كرهت ، لأن أولئك الأعداء لا يمكن أن يرضوا عن الصحوة الإسلامية ، ولا أن يكفوا عن قتالها :

«ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم» (٤) . «ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا» (٥) .

杂 恭 恭

ينبغى أولا أن تدرك الصحوة جيدا أن المعركة ليست معركة هذه الجهاعة ولا تلك ، ولا معركة هذا العدو أو ذاك . . إنما هي معركة الأمة الإسلامية جميعا مع أعدائها جميعا . . فالخصومة قائمة أصلا بين أعداء الله وبين الإسلام ، حيثًا كان الأعداء ، وحيثًا كان الإسلام . .

ومقتضى ذلك أن تعلم أن النصر لا يتم والمعركة قائمة بين الأعداء وبين جهاعات منعزلة هنا وهناك ، تستفرد بها الوحوش الضارية وتغتالها

⁽٤) سورة البقرة [٢١٧]. (٥) سورة البقرة [٢١٧].

على تمكن .. ولكنه يتم ـ بتوفيق الله ـ حين تصبح المعركة هي معركة «الأمة الإسلامية» على اتساعها ، إزاء الأعداء المتكتلين في حرب الإسلام كتلة واحدة ، وإن تفرقوا في كل شيء عدا ذاك!

وحين نقول الأمة على اتساعها يظن بعض الناس أننا نقصد كل فرد من أفرادها ، وهذا مستحيل! فلا يوجد مجتمع واحد فى التاريخ ـ فضلا عن أمة يبلغ تعدادها اليوم ألف مليون من البشر يكون كله على قلب رجل واحد ، وعلى مستوى واحد من الرفعة ، أو الصلابة ، أو التوجه إلى الخير ..

ومجتمع الرسول ذاته لم يكن كذلك ، كما أوضحنا في أكثر من موضع وفي أكثر من كتاب ..

ولكنا نقصد أن توجد في هذه الأمة قاعدة صلبة ــ كالقاعدة التي قامت في مجتمع الرسول صلى الله عليه وسلم ـ يبلغ من قوتها وصلابتها أن تحمل ضعاف الإيمان ، والمعوقين ، والمبطئين ، والمتثاقلين ، والمنافقين ، وتسير بهم جميعا إلى هدفها ، كما سارت القاعدة الصلبة التي رباها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على عينه ، ولم يعوقها وجود هذه الفئات كلها عن النصر الحاسم على أعداء الله ..

* * *

وينبغى أن تدرك الصحوة جيدا كذلك أن المعركة ليست مجرد

معركة بين فريق من البشر وفريق ، أو بين شعب من الشعوب وشعب ، أو بين نوع من السلاح ونوع . . إنما هي قبل ذلك كله ـ وأهم من ذلك كله ـ معركة بين عقيدة وعقيدة ، ومنهج للحياة ومنهج .

عقيدة تؤمن بالله واليوم الآخر، وعقيدة تشرك في إيمانها بالله آلهة أخرى أو تنكر وجوده أصلا.. ومنهج للحياة قائم على عقيدة التوحيد ومتناسق معه، مستمد من المصدر الرباني المنزل على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ومنهج مبنى على الشرك أو الكفر ومتناسق معه، مستمد من أي مصدر إلا الوحى الرباني ..

ومقتضى ذلك أن النصر لا يتم حتى تتمحض تلك العقيدة فى نفوس أصحابها وتصفو ، وتتخلص من كل ما شابها من عناصر دخيلة عليها ، أياً كان المدى الذى توغلته تلك العناصر الدخيلة ، وأياً كان الزمن الذى استغرقته وهى متلبسة بعقائد الناس.

إن الجاهلية لم تقف برمتها أمام عقيدة التوحيد وجها لوجه كما تقف اليوم ، إلا مرة واحدة من قبل ، أيام بعثة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والصدر الأول من الإسلام .. مع الفارق الذي أحدثه التقدم العلمي ، والتقدم التكنولوجي ، ووسائل النقل ، ووسائل الإعلام ، الذي جعل الكتلة المتكتلة ضد الإسلام أكثر ترابطا ، وأكثر توحدا ، وأكثر ضراوة ..

ولكن المعركة في جوهرها لم تتغير..

معركة التوحيد والشرك .. معركة الإسلام والجاهلية .

ولقد واجه الإسلام ـ بعد تمكنه فى الأرض ـ كثيراً من عداوات الجاهلية ، مع الصليبيين مرة ، ومع التتار مرة ، ومع اليهود من قبل مرة . ولكنه لم يقف فى وجه جاهلية الأرض كلها مجتمعة إلا مرتين اثنتين : الأولى وقت البعثة المحمدية وصدر الإسلام ، والثانية فى الوقت الحاضر.

وهذا يستلزم كما ألمحنا أن تكون العقيدة من النقاء فى نفوس أصحابها ، ومن رسوخ الإيمان بها ، والتجرد لله بها ، كما كانت فى المواجهة الأولى ، لتكون كفؤا للجاهلية الواقفة أمامها ، فضلا عن التغلب عليها فى نهاية المطاف .

非 排 排

أمر ثالث ينبغى أن تدركه الصحوة جيدا .. أن الجاهلية تواجه الإسلام اليوم وهى فى قمة حضارتها المادية ، وقمة افتتانها بتلك الحضارة ، والمسلمون فى درجة شديدة من التخلف فى هذا المجال ..

ومقتضى ذلك أن يواجه المسلمون تلك الحضارة بمثل ما واجه المسلمون الأوائل الحضارة الفارسية والبيزنطية وهما فى أوج تمكنها المادى . . أى بالقيم الحضارية المواجهة تماما للحضارة الجاهلية .

لقد تمت المواجهة الأولى بين الإسلام والجاهلية والمسلمون يكادون

يكونون مجردين من أدوات الحضارة المادية وتنظياتها ، بينها الدولتان «العظميان» يومئذ ـ فارس وبيزنطة ـ فى قمة من قمم الحضارة المادية والتنظيمية لم يكن قد بلغها أحد قبلهم فى ذلك التاريخ . .

وانتصر الإسلام ..

انتصر بحسب السنن الجارية ، لا بسنة خارقة . وإن كانت هذه وتلك جميعا تتم بقدر من الله .

فن سنن الله الجارية أن ينتفش الباطل فى غيبة الحق. فإذا جاء الحق زهق الباطل..

«وقل: جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا» (٦) . ومن سنن الله الجارية أن يتدافع الحق والباطل ليتم إنقاذ الأرض من الفساد:

«ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين» (٧) .

ومن سننه أن يكون للحق جنود يؤمنون به، لأن الحق المجرد من الجنود لا ينتصر، وأن يكون هؤلاء الجنود مخلصين لله، مترابطين على العقيدة، مؤتلفة قلوبهم عليها:

⁽٦) سورة الإسراء [٨١].

⁽٧) سورة البقرة [٢٥١].

« هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم . لوأنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم » (٨) .

وأن يكون هؤلا الجنود صادق التوكل على الله:

«يا أيها النبي حسبك الله ، ومن اتبعك من المؤمنين (٩) » (١٠)

وأن يكونوا مجاهدين في سبيل الله ، إذا دعت دواعي الجهاد يقاتلون صابرين محتسبين :

«يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال: إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون . الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا : فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله . والله مع الصابرين » (١١)

ثم إن من سننه الجارية كذلك أن الباطل المنتفش بقوته المادية ـ فى غيبة الحق ـ لا أصالة له لأنه باطل ، ومع ذلك يمكن فى الأرض فترة من الوقت لحكمة يريدها الله ، وبسنة يجريها الله :

«فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ، حتى إذا

 ⁽٨) سورة الأنفال [٦٢ – ٦٣].

 ⁽٩) أى من اتبعك من المؤمنين حسبهم الله . (١١) سورة الأنفال [٦٥ ـ ٦٦] .

فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين» (١٢)

فإذا جاء الحق وهو وحدة صاحب الأصالة وتمت له مقوماته ، أى الجنود المؤمنون به ، المخلصون فى إيمانهم ، المجاهدون الصابرون المحتسبون ، فإنه ينتصر بما فيه أصالة ، ولوكان أقل جنودا وأقل عدة ، لأنه يحمل القيم الأصيلة التي كتب الله لها البقاء والصلاحية :

«فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض» (١٣)

«كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ، إن الله قوى عزيز» (۱٤) «ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون» (۱۰)

«ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون» (١٦) .

تلك _ وأمثالها من السنن الجارية _ هي التي قررت في علم الله

⁽١٢) سورة الأنعام [٤٤ - ٤٠]. (١٥) سورة الأنبياء [١٠٠].

⁽١٣) سورة الرعد [١٧]. (١٦) سورة الصافات [١٧١ - ١٧٣].

⁽١٤) سورة المجادلة [٢١].

انتصار الإسلام في مواجهته الأولى مع الدولتين «العظميين» يومئذ، فضلا عن سائر الجاهليات القائمة في ذلك الحين.. ولم يكن للقوة المادية الساحقة، الخاوية من «القيم»، الخاوية من «الحق» أصالة تحميها من غلبة الإسلام عليها، وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلاته، فانتصر الحق وزهق الباطل وذهب طي النسيان..

واليوم تقف الجاهلية _ بدولتيها «العظميين» _ ذات الموقف مرة أخرى . .

قة فى القوة المادية والتقدم العلمي والمادى والتكنولوجي لم يبلغها أحد من قبل ..

ولا أصالة ..

فالأصالة هي الحق..

وحين يكون الإنسان فى عرف الجاهلية المعاصرة حيوانا كما أراده دارون ، وحين يكون فى وهم نفسه في الوقت ذاته إلها متجبرا طاغيا مستكبرا عن عبادة الله .. فكلاهما وهم لا ظل فيه للحق .. ومن ثم فلا أصالة فيه ..

وحين تكون الحضارة هي حضارة «قبضة الطين» منقطعة الصلة «بنفخة الروح» ، فهي حضارة غير أصيلة ، لأن قبضة الطين المنفصلة عن نفخة الروح لا وجود لها في الحقيقة ، وكل بناء يبني على أساس وجودها فهو مجافٍ للحق ، ومن ثم لا أصالة فيه ..

ولا ينفى هذا أن يكون لهذه الحضارة المجافية للحق منجزات ضخمة نافعة ، كمنجزاتها العلمية والتنظيمية ، فهذا من العطاء الربانى المتاح للبشر جميعا مؤمنهم وكافرهم ، وكان للجاهليات التاريخية كلها نصيب منه :

«کلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وماكان عطاء ربك محظورا» (۱۷)

ولا ينفى كذلك أن تكون بعض الأفكار والقيم ذات قيمة ونفع ، فإن النفس البشرية لا تتمحض للشر الخالص مها بعدت عن الحق ، ولا يتمحض مجموع الناس فى الجاهليات للشر بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« حياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا » (١٨).

ولكن العبرة فى النهاية _ فى صراع الحق والباطل _ ليست بالمنجزات المادية مها يكن من ضخامتها ونفعها ، وليست بالأفكار والقيم الجزئية التى يمكن أن تكون فى الجاهليات . إنما هى بالقاعدة التى يقوم عليها البنيان كله . .

فلا شك أن كلا من الجاهلية الفارسية والجاهلية الرومانية كان لها منجزات مادية وتنظيمية ضخمة ونافعة ، ولا شك أن بعض القيم

⁽١٧) سورة الإسراء [٧٠]. (١٨) أخرجه مسلم.

وبعض الأفكار النافعة كان موجودا في كل من الجاهليتين..

ولكن ذلك كله لم يحم هاتين الجاهليتين من الانهيار أمام الإسلام ، الذي يقوم كله على القاعدة الصحيحة السليمة ، التي تحقق الغاية الحقيقية للوجود الإنساني ، وهي عبادة الله ، بالمعنى الواسع الشامل للعبادة الذي بيناه من قبل (١٦) ، رغم قلة العدد والعدة في جانب المسلمين يومئذ ، ورغم الفراغ من المنجزات المادية والتنظيمية إلا اللي لا يكاد يذكر.

وتلك _كما بينا_ سنة جارية . ومعنى كونها جارية أنها يمكن أن تتحقق _ بقدر من الله _ في كل مرة تتحقق مقوماتها وعناصرها ، وتتم المواجهة بمقتضاها ..

ومن جانب الجاهلية فكل المقومات والعناصر قائمة .. قوة مادية هائلة ، وفراغ هائل في عالم القيم والمبادئ والأخلاق ..

ويستلزم سريان السنة الجارية ـ وهي تجرى في كل مرة بقدر من الله ـ أن يكون المسلمون في المواجهة قاعمين على الشرط ، كما كان المسلمون في المواجهة الأولى ، فيتم النصر ـ بقدر من الله ـ كما تم أول مرة ، ويتغير وجه الأرض كما تغير من قبل . .

ولا شك عندى ــ من وعد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ... أن ذلك سيحدث ..

⁽١٩) راجع فصل «مفهوم العبادة».

ولكن الصحوة ينبغى أن تدرك شرط النصر فى تلك المواجهة .. إن المسلمين لن يسبقوا الجاهلية المعاصرة فى التقدم العلمى والمادى والتكنولوجي والتنظيمي فى الوقت الحاضر.

ولكنهم مع ذلك علكون مالا تملك الجاهلية اليوم ولا غدا ولا في أى وقت . يملكون العقيدة الصحيحة والمنهج الصحيح . المنهج الشامل الكامل المتوازن المترابط ، الذى أنزله الله العليم الخبير ليصلح به الأرض ، ويصلح حياة الناس.

وحين يحققون العقيدة الصحيحة في ذوات أنفسهم، ويحققون المنهج الصحيح في واقع حياتهم، تجرى السنة بقدر من الله، وينتصر الإسلام في المواجهة الحاضرة بينه وبين الجاهاية.. ويتغير وجه الأرض.

ولكن العقيدة ينبغى أن تكون فى صفائها كله، وفى بهائها كله، وفى ألقِهَا كله، لتحدث فى واقع الأرض الفارق الحقيق الذى يلمسه الناس فى صورته الأخّاذة _ كها حدث أول مرة _ فيهرعون إليه، ويدخلون فى ظله .. والمنهج _ بها يشتمل عليه من قيم فذة ، وأخلاقيات عالية ، وصدق وعمق ، ورسوخ وتمكن ، وشمول وتوازن _ ينبغى أن يكون محققا فى نماذج بشرية فذة ، تُبْرِز للناس فى عالم الواقع الفارق الهائل بين الإسلام والجاهلية ، كها حدث أول مرة ، فيحب الناس المنهج ويدخلون فيه ..

عندئذ ينتصر الحق بجدارة _ حسب السنن الجارية _ لأنه يثبت جدارته بالفعل . ويكون له دور حقيقي يؤديه في حياة الناس لأنه يعطي الناس بالفعل ما هم في حاجة حقيقية إليه ، ولو لم يشعروا بتلك الحاجة وهم سادرون في غيهم ، بل ولوكانوا رافضين للخير والهدى في مبدإ الأمركا يكون الناس في كل جاهلية . . ولكن الفطرة البشرية تقدره ، حين تراه مطبقا في عالم الواقع _ في الصورة الباهرة التي يلتقي فيها الواقع بالمثال _ وعندئذ يشعر الناس بما يشتملون عليه من نقص ، ويهرعون إلى الكمال . .

وسيزيدهم طمأنينة إلى المنهج الربانى وإقبالا عليه ، أن يروا ـ من خلال التجربة الواقعية ـ أن الإسلام لن يهدم تقدمهم العلمى والتكنولوجي والتنظيمي ، إنما سيقيمه فقط على القاعدة الإيمانية الصحيحة ، ويمنحه «الأخلاق» التي تسلبه إياها الجاهلية ، ويمنحه «الروح» التي تجعل منه إنجازا لائقا «بالإنسان».

316 316 316

من أجل ذلك كله ينبغى للصحوة أن تقدر الأمر حق قدره ، وتمنحه الطاقة اللازمة لإنجازه ..

إنه أمر جاد .. وهو كذلك أمر خطير ..

إنه ليس نزهة قريبة .. ولا هو أمر يخصهم وحدهم في ذوات أنفسهم ..

إنه أمر الأمة الإسلامية بأكملها .. وأمر البشرية كذلك ، من شاء منهم أن يستقيم ..

أمر خلاص «الإنسان» من حمأة الطين التي يتمرغ فيها اليوم ، والتي انساق «المسلمون» إليها ـ أوساقهم أعداؤهم إليها ـ حين تخلفوا عن عقيدتهم ، فتخلوا عن ذاتيتهم ، فأصبحوا كغثاء السيل (٢٠٠).

أمر جاد .. لاتكنى فيه جهود هامشية مبعثرة ، ولا يكنى فيه جهد يبذل لمجرد ممارسة الإسلام على أي مستوى من المستويات .

أمر يحتاج إلى كل الطاقة مجمعة .. ويحتاج إلى محاولة الصعود إلى القمة التي صعد إليها المسلمون أول مرة ، حين عوضت القيم الفذة ، والمارسة الفذة لهاتيك القيم ، كل الفروق المادية بين المسلمين وأعدائهم ، وكتبت النصر لأصحاب القيم الفذة الأصيلة على أصحاب الباطل المنتفش بالقوة المادية وعبقرية التنظيم .

非 非 非

إن على «الصحوة» فى كل بلد إسلامي أن تربى القاعدة الصلبة على اللستوى الفائق ، ثم تدعو إليها الجاهير..

وليس هنا بيان منهج التربية اللازم لبناء القاعدة الصلبة على ذلك

⁽٢٠) انظر_ إن شئت_ فصل «خط الانحراف» وفصل «آثار الانحراف» في كتاب «واقعنا المعاصر».

المستوى الفائق، ولا منهج الدعوة التي توجه إلى الجاهير(٢١) ..

ولكنا نشير هنا إلى أمر أساسى ، سواء فى بناء القاعدة أو فى دعوة الجاهير .. إنه لابد أولا من تصحيح المفاهيم .. إذ كيف تبنى القاعدة على المفاهيم الخاطئة للإسلام ؟!

كيف تبنى قاعدة صلبة على الفكر الإرجائى الذى يقول: إن الإيمان هو التصديق والإقرار؟! وإن العمل ليس داخلا فى مسمى الإيمان؟ وإنه من قال لا إله إلا الله فهو مؤمن ولو لم يعمل عملا واحدا من أعمال الإسلام؟!

كيف تبنى قاعدة صلبة على مفهوم قاصر للعبادة يحصرها فى الشعائر التعبدية ، ويخرج العمل كله من دائرة العبادة ، ويخرج الأخلاق ، ويقسم الحياة إلى «ساعة لقلبك وساعة لربك» فتنقلب ساعة القلب إلى لهو عابث ، وساعة الرب إلى مجرد أداء للشعائر بغير مقتضى واقعى فى سلوك الناس؟!

وكيف تبنى على عقيدة للقضاء والقدر سلبية مخذّلة متواكلة لا تأخذ بالأسباب؟

وكيف تبنى على تصور خاطئ يفصل ما بين الدنيا والآخرة . ويجنح بالسلوك سواء لحساب هذه أو حساب تلك؟

⁽٢١) في النية _ بإذن الله _ إصدار كتيب في هذا الموضوع بعنوان "كيف ندعو الناس».

وكيف تبنى على إهمال لعمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى الشامل المتكامل الذى ينشئ الحضارة الخليقة بالإنسان ؟

وماذا تستطيع مثل هذه القاعدة فى الصراع الهائل مع الجاهلية ؟ وماذا تمنح الناس لتحبب إليهم اعتناق الحق والدخول فيه ؟!

وكذلك الدعوة الموجهة إلى الجاهير ، لتكون سندا للقاعدة الصلبة بدلا من أن تكون حملا عليها ..

لماذا نقوم بالدعوة أصلا إن لم نغير عند الناس مفاهيمهم الخاطئة عن الإسلام ؟!

لأى هدف ندعوهم إذا قلنا لهم إن الإيمان هو التصديق والإقرار . وإن العمل ليس داخلا في مسمى الإيمان ، وإنه من قال لا إله إلا الله فهو مؤمن ، ولو لم يعمل عملا واحدا من أعمال الإسلام ؟! هل ندعوهم لنثبت فيهم الأسباب التي أدت بهم إلى الضياع والتيه ، وجعلتهم غثاء كغثاء السيل؟ سواء ما وقعوا فيه من شرك الاعتقاد عن طريق عبادة الأولياء والأضرحة والمشايخ ، أو شرك الاتباع ، باتباع غير ما أنزل الله ، واتخاذ البشر – المشرعين من عند أنفسهم – أربابا من دون الله ؟

أم ندعوهم ليغيروا ما بأنفسهم فيغير الله لهم ؟!

** ** **

لابد في جميع الأحوال من تصحيح المفاهيم.

وحين تصحح المفاهيم بالفعل ، وتتربى على المفاهيم الصحيحة قاعدة صلبة ، تساندها الجاهير المؤمنة الواعية التي تمارس الإسلام في عالم الواقع .. عندئذ يتحقق الوعد الذي وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها. ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، فتكون ماشاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله إن شاء أن يرفعها . ثم تكون ملكا عاضا فتكون ماشاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها ، ثم تكون ملكا جبريا فتكون ماشاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون على منهاج النبوة » (٢٢) .

وعندئذ يتغير وجه الأرض . .

وتتحقق للإسلام جولة جديدة ، يخرج فيها الناس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة . .

« ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم » (٢٣)

⁽٢٢) رواه الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان.

⁽٢٣) سورة الروم [٤ ـ ٥].

الفهنس

| ٧. | • | لدمة | مة |
|-----|---|--------------------------------|----|
| | *********** | هُوُمُ لا إِلَّهُ إِلاَّ اللهِ | |
| 144 | • | لهُومْ العبَادة | مه |
| 400 | • | هُومُ القضَاءِ وَالقَدَر | مة |
| ۲۸۳ | • | لهُومُ الدّنيَا والآخرة | مة |
| 440 | . | | |
| 474 | | بوالخ علَى المُستقبَل | أخ |

رقم الايداع : ۸۸/۱۸۸۸ النرقيم الدولى : ۸_ ۱۹۰ ـ ۱۶۸ ـ ۹۷۷

مطابع الشروةــــ